الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد
- تلمسان -
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
و العلوم الإجتماعية
قسم: الثقافة الشعبية

سجل تحت رقم
الرقم

الوعدة في الغرب الجزائري، أصولها وتطورها
- دراسة اجتماعية وثقافية -

رسالة دكتوراه تخصص فنون شعبية

من إعداد الطالب:
بن أحمد أحمد

تحت إشراف الدكتور:
سنايسي رابح

لجنة المناقشة

أ.د. سعيدي محمد	رئيسا	جامعة تلمسان
د. سنايسي رابح	مقررا ومشرفا	جامعة تلمسان
د. صبار سليمان	عضوا	جامعة سيدي بلعباس
د. كاملي بلحاج	عضوا	جامعة سيدي بلعباس
د. أوشاطر مصطفى	عضوا	جامعة تلمسان

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
مكتبة
الكلية
والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

السنة الدراسية: 2006- 2007

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾

صدق الله العظيم

سورة: آل عمران

الآيـــة 193

الإهداء

إلى روح والدي الشهيد رحمه الله

إلى والدتي الكريمة وإخوتي

إلى زوجتي وأبنائي الأحباء

شكر وإعتراف بالجميل

أتقدم بالشكر الجزيل والاعتراف بالجميل إلى الأستاذ الدكتور: سنايسي رابح على مساعدته وتشجيعاته طيلة إشرافه على هذا البحث والذي لم يدخر أي جهد في إسدادي بتوجيهاته ونصائحه التي لولاها لما تسنى لي إتمام هذه الرسالة.

كما أتقدم إلى الأستاذ: عنيالة سيلود رئيس بلدية عسلة ولاية النعامة على ما قدمه لي من مساعدات في إطار إنجاز هذا البحث فله مني جزيل الشكر سلفا.

أشكر كل من مد يد المساعدة لإنجاز هذا البحث المتواضع.

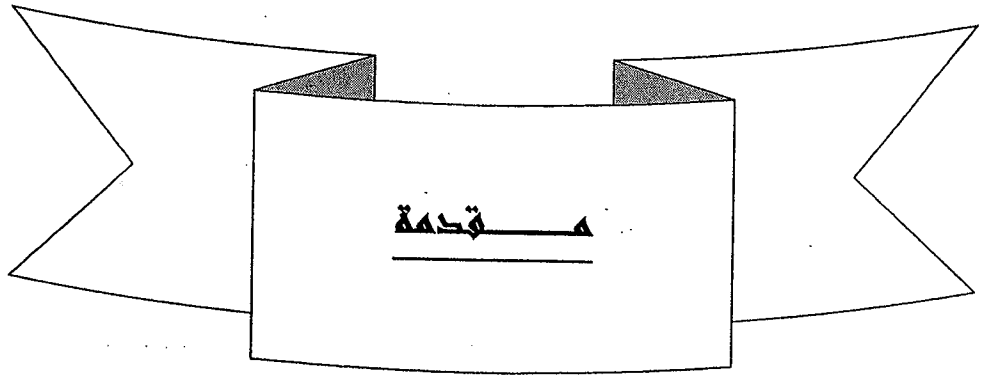
مقدمة

ترتبط الموروثات والرواسب الثقافية بعدد من العقائد والممارسات الباقية في المجتمع عبر مراحل تطوره المختلفة، ورغم فقدانها للشروط التي أوجدتها إلا أنها لا تفقد وظيفتها الأساسية في المجتمع. فهي تملك القوة الكافية للبقاء والاستمرار بفضل ما تحتله من مكانة في السياق الثقافي التاريخي للمجتمع الذي ينتمي إليه.

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى بقايا ممارسات قديمة لا زالت ملازمة لأفكار وسلوكات الناس على الرغم من التطور الهائل الذي مسّ كل مجالات الحياة. وهذه البقايا لها جذور وأصول وثنية على الرغم من أن الممارسة الشعبية أقرتها كعادات كمعتقدات شبه دينية تقترب من تعاليم الدين الرسمي في حين أن طقوسها تعتبر بدعية ومنحرفة عن الدين من وجهة نظر فقهاء الإسلام وعلماء الشريعة.

وهذه الظواهر متعددة ومتنوعة تنتمي إلى التراث الشعبي وتشكل قاعدة لرؤى وممارسات ومعتقدات شعبية ومن بينها ظاهرة الوعدة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بعبادة الأولياء التي تمخضت عن عبادة الأسلاف التي عرفها المجتمع الجزائري قديما، وهي معتقد موروث عن ديانات ما قبل التوحيد، أضافت إليه الممارسات الشعبية عبر العصور إضافات جديدة ولا سيما مع ظهور الطُرق الصوفية الّتي ساهمت في إعادة بعثها من جديد عن طريق تقديس القبيلة لجدها المشترك.

لقد حضيت هذه الظاهرة بأهمية بالغة لدى الكتاب الفرنسيين الذي حاولوا من خلال دراستها إذكاء نار الفتنة والانقسامات بين الطرق والزوايا. وقد عبر عن هذا الهدف الكسندر جولي في قوله: " والخلاصة، فإن الطرق الدينية الإسلامية لا تظهر لنا عداءها لبعضها البعض، ولكن تمزقها عن طريق خصوماتها الداخلية المستمرة والتي تجعل أحلامها وهمية...ويجب أن نتجنب الخوف، غير أننا لا يجب أن ننام في أمن مخادع، فقد يحدث في بعض الحالات أن تنسي الطرق خلافاتها من أجل قضية مشتركة ضد عدو مشترك. ويبقى على السياسة الحيلولة دون ظهور هذا الحدث عن طريق الاستعمال الدقيق للإنقسمات الحالية، مع العمل عند الضرورة على حفظها وتأجيجها".[1]

لم تلق الوعدة الاهتمام المطلوب بعد الاستقلال إذ اعتبرت نوعا من الطابوهات بفعل السياسة المتبعة آنذاك. وعلى الرغم من ذلك فلا زالت إلى الوقت الحالي لم تعط الاهتمام اللازم وهذا ما دفعنا إلى محاولة إلقاء الضوء عليها عبر طريق دراستها تاريخيا للتعرف على أصولها وتطورها، وما هي الأسباب التي تقف وراء استمرارها وديمومتها كما أننا نهدف من وراء إجراء الدراسة تعميق بحثنا وتوسيعه حول نفس الموضوع الذي قمنا به سابقا[2] ونتيجة لهذه الدوافع، فقد غدا عنوان رسالتنا " الوعدة في الغرب الجزائري، أصولها وتطورها، دراسة اجتماعية ثقافية".

ولدراسة هذا الموضوع فقد طبقنا المنهج الوصفي التحليلي الذي يلائم هذا النوع من المواضيع. ويرتبط هذا بتتبع مراحل تطور الظاهرة موضوع الدراسة وتحليلها بما يتيح الوصول إلى تحديد العلاقة بين متغيراتها. ولعل هذا يرتبط ارتباطا وثيقا بدراسة الظاهرة الاجتماعية كظاهرة تاريخية وذلك لاستحالة وجودها خارج التاريخ.

من الصعوبة بمكان الاستغناء عن الروافد المنهجية الأخرى التي تساعد الباحث في دراسته للظاهرة والتعرف على العوامل المؤثرة فيها عبر المراحل التاريخية التي تحكم مسارها

ولتجاوز نقص المعطيات فقد لجأنا إلى الملاحظة بالمشاركة التي اقتضت منا الإقامة في المجتمع المدروس إضافة إلى معايشتنا لهذه الظاهرة عبر مختلف مناطق الوطن.

وفي البعد الميداني فقد اعتمدنا على المنهج الإحصائي لدراسة مختلف البيانات التي جمعناها من الميدان قصد الوصول إلى تأكيد أو نفي الفرضيات التي حددناها ووضعناها سابقا.

ولتنفيذ هذه الدارسة فقد اعتمدنا الخطة التالية: قسمنا الرسالة إلى بابين:

الباب الأول: البعد النظري لمشكلة البحث.

الباب الثاني: البعد الميداني لمشكلة البحث.

- تناول الفصل الأول من الباب الأول دراسة المعتقدات الشعبية في الجزائر، أصولها، تطورها ومظاهرها.

- يحتوي الفصل الثاني: الوعدة من حيث المفهوم والخصائص المشتركة.

– يشير الفصل الثالث إلى الدوافع في الاشتراك في الوعدة ووظائفها داخل المجتمع والتغير الذي أصاب محتوياتها من حيث العادات والتقاليد بفعل تأثير مختلف العوامل فيها.

– أما الفصل الرابع فيختص بدراسة المسار التاريخي والنتائج بحيث يعرج على الحياة الدينية والثقافية في العهد العثماني والوضع أثناء الاحتلال الفرنسي ليختم بالإشارة إلى الوعدة في عهد الاستقلال.

– بالنسبة للفصل الأول من الباب الثاني فقد حاولت دراسة " معروف سيدي أحمد المجذوب " عبر طرق التعريف بالولي الصالح وكل ما يتبعه من سير للمعروف ومختلف الأنشطة والمجالات التي تشكل وعائها.

وضم الفصل الثاني الإجراءات المنهجية للدراسة كتحديد الإشكالية والفرضيات ومنهج البحث والمجال الجغرافي ووسائل جمع البيانات وتقنيات تحليلها.

– أما الفصل الرابع فقد تطرقت فيه إلى نتائج البحث ومناقشتها.

وقد تضمنت الخاتمة آفاق البحث ونتائجه.

ولعلنا لن نجانب الحقيقة إذا قلنا أننا استوفينا الموضوع حقه من الدراسة، وذلك نظرا لصعوبة وعدم توفر الدراسات حوله مما جعله يبدو موضوعا جديدا كان لنا السبق في إثارته حسبما نعلم.

وقد واجهتنا صعوبات جمة في مجال المراجع ولاسيما ما تعلق بفترة الاستقلال وما بعدها. وعلى الرغم من ذلك فقد بادرنا إلى معالجة هذا الموضوع الذي نتمنى أن تشكل محاولتنا هذه لبنة في صرح الدراسات المستقبلية التي ستتناوله علما بأن التراث الشعبي الجزائري لا زال يزخر بكنوز لم يتطرق إليها الباحثون. وأملنا أن تشكل دراستنا هذه حافزا لهم لكشف مكنوناته واستخدامها فيما يعود على تماسك ووحدة المجتمع الجزائري كما نشير إلى أن بعد مكان الدراسة وصعوبة التنقل إليه أضاف أعباءا جديدة غير أن مواظبتنا واجتهادنا مكننا من التغلب عل هذه العراقيل والمعضلات بما أتاح لنا إتمام هذه الدراسة في ظروف حسنة.

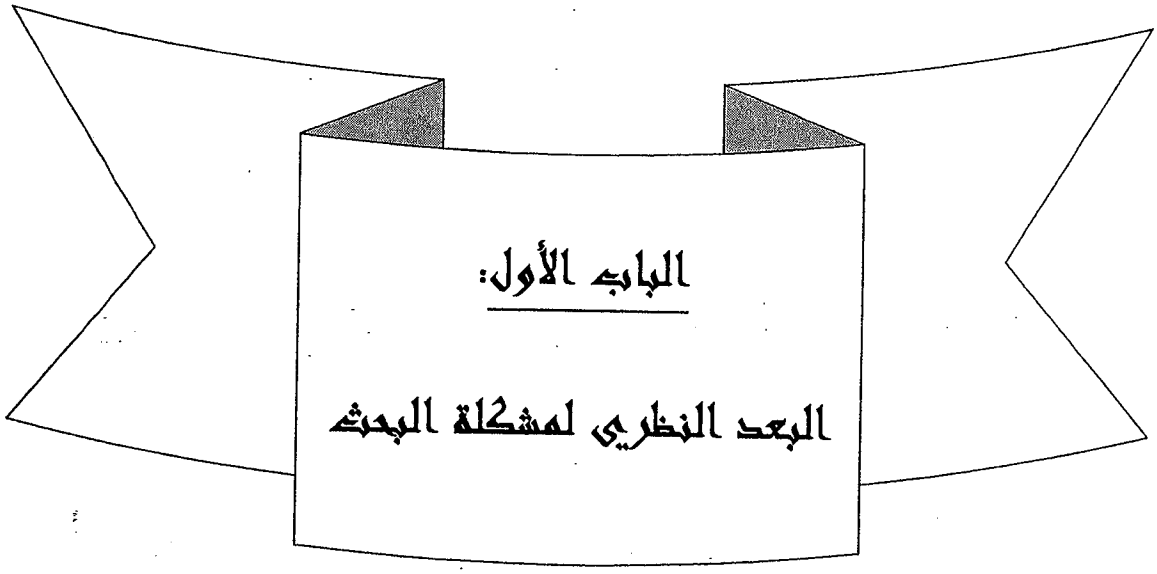

الباب الأول:

البعد النظري لمشكلة البحث

الباب الأول: البعد النظري لمشكلة البحث

إن مشكلة البحث هي موضوع يحيط به الغموض[3] ولكشف هذا الغموض لا بد من سبر أغوار مشكلتنا عن طريق البحث في أصول الظاهرة المتمثلة في طقس الوعدة، ومتابعة تطوره عبر مختلف المراحل التاريخية المتعاقبة ومدى مساهمة العوامل الداخلية المتمثلة في البيئة والسكان المحليين والخارجية كالغزوات التي تعرضت لها البلاد وانصهار مختلف العوامل التي تفسر مسارها، والوظائف المختلفة التي لعبتها ولا زالت تلعبها داخل المجتمع سواء ما تعلق بالماضي حيث واكبت المجتمعات الزراعية وبرز دورها الفعال في الفترة العثمانية وما بعدها في الفترة الاستعمارية حيث ظهرت كمظهر من مظاهر للزوايا وعبادة الأولياء. و لم يأفل نجمها مع ظهور التقدم في كل المجالات إذ لا زالت تلعب دورا أساسيا في حياة المدن والأرياف ويظهر ذلك من خلال ممارستها في مختلف مناطق الوطن وبصفة دورية وهذا موازة مع إعادة انبعاث الإسلام التقليدي الذي أصبحت تعمل على تشجيعه السلطة الحاكمة خدمة لمصالحها تحت شعار المحافظة على التراث الشعبي عبر طريق محاولة تبنيه والإشراف على كل صغيرة وكبيرة. وهذا ما يستشف من خلال التطرق إلى هذه الظاهرة وأسباب وجودها وعدم اندثارها على الرغم من اضمحلال الظروف التي أوجدتها.

الفصل الأول

المعتقدات الشعبية في الجزائر أصولها، تطورها ومظاهرها

1. الإنسان والمعتقدات القديمة
2. عبادة الأسلاف عند الرومان
3. الثقافة الشعبية والمعتقدات
   - [أ] استمرارية المعتقدات الوثنية
   - [ب] الاستسقاء والممارسة الشعبية
   - [ج] أصول التصوف في الجزائر
4. أثر الوثنية في الطقوس الشعبية

- الطقس، المفهوم والوظيفة الاجتماعية

1- الإنسان والمعتقدات القديمة:

لقد كان الإنسان في أول أمره يعتقد أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة. يخضع لظروفها وسيطرتها. ويعتمد اعتمادا كليا على ما يجده من الثمار التي كان يجمعها ليقتات بها. ثم استطاع بعد ذلك التدرج إلى مرحلة أعلى هي اكتشاف وسائل صيد الحيوانات والنار التي شكلت ثورة وقفزة نوعية في حياة الإنسان، إذ بفضلها استطاع صنع الآلات اللازمة للزراعة والصيد والآلات الحربية للدفاع عن نفسه. وقد صاحب هذا التطور المادي تطور فكري، فقد تم استخدام السحر والكهانة لتفسير الظواهر الطبيعية التي لا يستطيع الإنسان إدراكها. وأصبح بذلك السحر يلعب دورا أساسيا. فهو ضروري للزراعة ولرعاية الأطفال، في صناعة السفن. وأصبحت بعض الظواهر يرجع في تفسيرها إلى السحر، كالمرض والوفاة والصحة. ثم انتقل الإنسان من عبادة الظواهر الطبيعية إلى عبادة الحيوانات والنباتات وهي ما تسمى " بالطوطمية ". وقد كانت تساعد في الربط بين أفراد العشيرة إضافة إلى تشكيلها لمعبودها الذي يتم من خلاله المحافظة على النظام الاجتماعي الذي تخضع له العشيرة أو القبيلة.

وعلى كل فرد من أفراد القبيلة أن يدعن لتقاليد وعادات القبيلة وأن يرضخ لقيمها و إلا عد خارجا عن نظام القبيلة ومنبوذا من طرف الآلهة. وحينذاك قد تنفذ العقوبات المقررة ومنها الإعدام.

وفي الجماعات المتأخرة والمتخلفة يشيع الاعتقاد بأن تجنب النواهي المقدسة " يثير غضب الآلهة أي القوة المقدسة الخفية المنتشرة في الظواهر الطبيعية أو في فصائل الحيوان والنبات أو في أرواح الأجداد...فإذا حاق بالجماعة أي شر، نسب ذلك إلى انتهاك أحد أفرادها لقواعد التابو المقدسة كما هو الشأن بالنسبة للسكان الأصلين في هواي وجزر فيجي والمستعمرة الهولندية في الهند.[4]

إن هذه العبادة شكلت ما يمكن تسميته بالمعتقدات الدينية أو الدين. والدين من أقوى النظم الاجتماعية التي عرفتها المجتمعات البشرية منذ الخليقة. وهو موجود كظاهرة اجتماعية، صاحبت الإنسان في جميع أطواره الثقافية عبر التاريخ. وله علاقة تأثير وتأثر

بمعظم النظم الاجتماعية السائدة لعلاقته بالإنسان وارتباطه بصميم الواقع الاجتماعي. فهو ينتج عادات وقيما وتقاليد في المجتمع، لا يجد الفرد بدا من إتباعها طوعا أو كرها[5]. ويتجلى تأثيره خاصة في المناسبات والأعياد. وبقدر ما يكون الدين منتشرا في المجتمع ومتحكما فيه، بقدر ما يكون تأثيره قويا.فهو يفرز الطقوس التي تتناسب مع التعاليم ويستخدمها كأهداف تذكارية. فالدين عند تملكه في المجتمع يشكل من ذاته هدفية عليا تحقق الشعوب تطلعاتها من خلالها وتعبر عن حسها الحضاري في الإنجاز والإبداع. وقد بدا ذلك في جميع الأديان القديمة.

وقد اعتقد الإنسان القديم أنه جاء لخدمة الآلهة وحمل أعبائها أي أنه جاء تابعا لقوة غيبية، خفية تتحكم بمصيره وتعين له أقداره. وقد كانت هذه الآلهة تعي مسؤوليته إدارتها للكون وتنظم شؤون إنسانه[6] وفي هذا المجال يمكن الإشارة إلى بعض الممارسات والطقوس التي كان يمارسها الإنسان القديم لإرضاء الآلهة كتقديم القرابين حيث كان الكنعانيون يضحون بأطفالهم الصغار على مذابح آلهتهم الملتهبة بالكبريت، ويبنون حصون مدنهم فوق جتث أولادهم[7] أما الساميون فكانوا يبذلون قطعة من أجسادهم تكريسا لإله الأنسال ليشعروا بأنهم أعطوا بدلا مما يأخذون من لذات وذلك قبل أن تتحول هذه العادة إلى طقس وتقليد. [8] أما الكلدان ببابل من أرض العراق فقد كانوا يعبدون الكواكب. ويتخذون لها الأصنام تماثيل وفي هذا الشأن يقول أبو بكر الرازي الجصاص في كتابه أحكام القرآن: " كانت علوم أهل بالبل الحيل و أحكام النجوم، وكانوا يعبدون أوثنا عملوها على أسماء الكواكب السبع، وجعلوا لكل واحد منها هيكلا فيه صنمه، ويتقربون إليها بضروب من الأفعال عل حسب اعتقاداتهم، من موافقة ذلك للكوكب الذي يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر، فمن أراد شيئا من الخير والصلاح يتقرب إليه بما يوافق المشتري من الدخن والرقى والعقد والنفث عليها. ومن طلب شيئا من الشر والحرب والموت والبوار لغيره، تقرب بزعمه إلى زحل بما يوافقه من ذلك، ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمه إلى المريخ بما يوافقه من ذلك من ذبح بعض الحيوانات، وجميع تلك الرقى تشتمل على تعظيم

تلك الكواكب، إلى ما يريدون من خير أو شر، ومحبة وبغض، فيعطيهم ما شاء ومن ذلك. فيزعمون أنهم عند ذلك يفعلون ما شاءوا في غيرهم من غير مماسة ولا ملامسة سوى ما قدموه من القربان للكوكب، الذي طلبوا منه ذلك، فمن العامة من يزعم أنه يقلب الإنسان حمارا أو كلبا، ثم إذا شاء أعاده. ويركب البيضة والمكنسة والخابية، ويطير في الهواء فيمضي من العراق إلى الهند وإلى ما شاء من البلدان ثم يرجع من ليلة وكانت عوامهم تعتقد ذلك لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وكل ما دعا إلى تعظيمها اعتقدوه ".[9]

وقد تمثلت عبادة الفراعنة في اعتقاد العوام أن القوة الخارقة تتجسد في الملك الرب الإله امون مثلا. وكان الهدف من وراء ذلك المحافظة على النظام القائم ودوام التراتبية داخل المجتمع بما يكفل مصالح الفئات الحاكمة حيث كان الجميع بفعل الإيديولوجية السائدة يعتقدون أن وظيفتهم الاجتماعية داخل المجتمع قضاءا وقدرا فرضتها القوة الإلهية.

أما العرب، فقد عرفوا منذ القدم بتقديسهم للكعبة حيث كانوا ينصبون حولها أصنامهم. وقد تأثروا في ذلك بعبادة الأوثان التي كانت سارية في الأقوام قبلهم حتى كان المغادر للكعبة لا يسافر إلا حاملا حجرا من حجارة الحرم تعظيما له وشوقا إليه. وإذا حل بمكان فإنه يضعه ويطوف به طوافه بالكعبة وهذا ما أدى بهم إلى عبادة ما استحبوا من الأوثان التي كانت في الأمم قبلهم.

وقد اقترن بعبادتهم تقديم القرابين إلى آلهتهم وإقامة احتفالات تليق بمقامهم، وتندرج ضمن الاحتفال الشعائر والطقوس والرموز التي تؤثر في الأفراد فتجعلهم يتجاوبون مع قداسة هذه المعبودات[10] وقد كانت قريش تبالغ في تعظيم أصنامها في البناء عليها والطواف حولها والتمسح بها، واتخاذ ما يذكر بها في منازلهم. فلا يسافر مسافرهم حتى يكون آخر ما يصنع في منزله التسمح بصنمه. ولا يقدم قادمهم حتى يكون أول ما يصنع إذا دخل بيته التسمح به أيضا. ومن صور عباداتهم لها زيارتها والنذر لها وجعل نصيب لها في حروثهم وأنعامهم والذبح عندها ثم قسمة ما ذبح على الحاضرين واستشارتها فيما ينوون إحداثه[11].

وفي هذا الشأن يقول الإمام الشاطبي: "كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد يقولون: "نجازيه على فعله لأنه كان يعقرها في حياته، فيطعمها الأضياف، فنحن نعقرها عند قبره لتأكل السباع والطير فيكون مطعما بعد مماته كما كان مطعما في حياته. ومنهم من كان يذهب في ذلك إلى أنه من عقرت راحلته عند قبره، حشر يوم القيامة راكبا. ومن لم يعقر عنه حشر راجلا[12].

لقد كان العرب ينسكون في جاهليتهم النسائك حول أصنامهم وأنصابهم تقربا إليها. ومن نسائكهم الفرع والعتيرة[13] ويقصد بالفرع أول نتائج الإبل والغنم وكانوا يذبحونه تقربا لآلهتهم يطلبون من وراءه البركة في مواشيهم.

أما العتيرة وتسمى أيضى الرجبية لذبحها في رجب وهي العشرة الأوائل من رجب، ينذر أحد لصنمه هذه العتيرة فيقول: " أن بلغ الله غنم مائة، ذبحت منها واحدة، وأن رزقني الله مائة شاة، عن ذبحت كل عشرة شاة في رجب[14] وتعد النصب حجارة كانت توضع حول الكعبة وكان العرب في جاهليتهم يذبحون عندها ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب.

إلى جانب هذه المعتقدات تأثر البربر أي سكان الجزائر القدماء بمعتقدات المحتلين كالفينيقيين واليونان والرومان وغيرهم وامتزجت بعبادتهم. وأول هذه العبادات هي عبادة الفينيقيين الوثنية الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر يتخذون لها تمثالين. والشمس هي إله السماء والأرض، يتوسلون لرضاه بتقريب القرابين له. وقد تكون تلك القرابين اناسي وأكثر ما تكون من أبناء الملوك. يحضرون القربان البشري أمام التماثل ثم يلقونه في النار المقدسة التي تجعل لذلك التمثال، وقد تكون أم هذا القربان حاضرة تنظر إليه من غير جزع يلحقها.[15]

أما الرومان فكانوا يعبدون القوى الطبيعية والنار المقدسة والموتى من أسلافهم، وعبادة الموتى هي العبادة الخاصة بالأسر. ويعتبرونهم آلهة يقربون لهم القرابين وإن هم قصروا في ذلك انقلبوا آلهة شر ومن آلهتهم العظمى كوكب المشتري (جوبيتر) وهو إله المطر،

وجونون وهي آلهة النور والزواج ومنيوف هو إله الفطانة، وهناك آلهة الحرب والبحر والمعادن والفلاحة والتجارة والأخلاق وغير ذلك[16].

ولا شك أن الغزو الروماني للجزائر قد ترك آثارا عميقة في نفوس البرابرة وقد تأثروا بعبادة الوافدين وضموها إلى عبادتهم القديمة كما تأثروا بعبادة غيرهم من الشعوب الغازية. وقد أشرنا إلى بعض منها. وأهم ما يمكن الإشارة إليه في التأثير الروماني على السكان القدماء للجزائر هو عبادة الأسلاف وتعظيمهم وإقامة الاحتفالات على قبورهم وقد تجلى هذا مع بزوغ الطرق وعبادة الأولياء حيث أصبحت كل قبيلة تقدس مؤسس طريقتها وغالبا ما يكون جدها عن طريق الاحتفال السنوي إلى المستوى الذي تقيمه بانتظام، ولذلك يصبح علينا لزاما الإشارة إلى هذه العبادة التي اقتبست من الرومان

2- عبادة الأسلاف عند الرومان:

في روما، كانت ديانة العائلة ترتبط بالموقد العائلي وهو رمز تعبيري لشعور الإنسان العفوي بأنه امتداد لأسلافه وسابقيه. ولاحترام هذا الامتداد كانت توقد نار دائمة في موقد داخل مترل العائلة، وتغذى باستمرار، وفق عقيدة تنص بأن استمرار نسل العائلة إنما للحفاظ على جذوة تلك النار التي تخص الأسلاف الذين لهم رتبة القداسة لدى أحفادهم.

لقد كان رب الأسرة هو كاهنها وحاكمها ومن واجبه دون غيره أن يوالي تقديم الذبائح لروح والده الذي يكون قبره مع أسلافه وسط المسكن. وكانت الأسرة وحدة سياسية صغيرة، يدخل فيها حتى العبيد الذين يكرسون على أفهم منها، بعد صب ماء النثار المقدس على رؤوسهم. وأقسى عقاب للميت كان عدم دفنه، لكون ذلك لا يتيح لأبنائه أن يقدموا له الذبائح باستمرار، فتبقى روحه بلا قبر يضمها، وتعذب الأحياء، وكان الموقد يعتبر المتحكم في الأقدار، وإليه يوجه اللوم والعتاب ويقدم التكفير عند المصائب وحلول الأخطاء. وإليه يوجه الثناء والحمد وتقدم التقديمات. وهكذا كانت النار الموقد ترتبط بالعناية الإلهية وهي ظاهرة مقدسة ووقف على سلالة العائلة. وكانت من شأن الدولة أن

تسهر على سلامة العائلة كي يدوم أسلافها في هناء نتيجة ما يتلقونه من عبادات وأضحيات.

وحين اتسع المجتمع، تشكلت الفصائل وهي عبارة عن مجموعة من العائلات تتعبد لإله واحد تقدم له الأضحيات بحضور الجميع واشتراكهم، وتقام ولائم عامة يحضرها أفراد الفصيلة. وكانت مستهلكات هذه الولائم العامة تجمع من غلال الأرض يدفع كل رب أسرة جزءا منها لأخويه أي الفصيلة.

وعند تأسيس المدن الكبرى، كان يوجد لكل مدينة مذبح مشترك. وكان بقاء هناء المدينة يتم ببقاء المراسم على حقيقتها في هذه المعابد. وأي خطأ يمكن أن يحدث في هذه الطقوس كان يعتبر أنه يعرض الجميع لنقمة الإله الأعظم راعي المدينة. وللاحتياط من هذه النقمة كان يقام في روما عيدا كل أربع سنوات وتقدم فيه الأضحيات للتكفير عن الأخطاء، التي يمكن أن تكون ارتكبت أثناء القيام بتأدية الطقوس الدينية. وهذا يشابه رأس السنة البابلية، حيث كان يعتقد بأن الآلهة تقوم بمحاسبة الناس عن أعمالهم في هذه الأعياد.[17]

وديانة البربر مركبة من عدة ديانات منها ما أخذوه عن الفينيقيين ومنها ما نقلوه عن الرومان وكلها ديانات وثنية. ومع تأثرهم بهذه الديانات فقد حافظوا على روح عقائدهم الأولى وعلى الرغم من خضوعهم للدين المسيحي (البعض منهم) وبقاء الأغلبية على الوثنية ودخولهم في الدين الإسلامي عن طواعية واقتناع ووجودهم تحت ظل تعاليمه لقرون طويلة فإنه لم يطهر البربر من كل ما كانوا عليه. وهذا ما سنستشفه من خلال دراسة ديانة البربر ومعتقداتهم وبقايا الوثنية في العادات والتقاليد والطقوس التي لا زال سكان الجزائر يمارسونها على مر السنين

3- الثقافة الشعبية والمعتقدات:

- ديانة ومعتقدات قدماء الجزائر:

لقد عرف قدماء الجزائر عبادة الشمس والقمر (وهما معبودات مصر)، وعبادة بعض الحيوانات منها القرد والثور والكبش والتيس، وجد بجبل بني راشد تمثال يدعى "أتون"،

كانوا يتخذونه إلها وهو صورة تيس على رأسه دائرة الشمس[18] وكانوا يعظمون العيون والأشجار والجبال، ويحترمون الأموات يشيدون لهم قبور ضخمة.

وقد بقيت ترسبات لهذه المعتقدات في المجتمع الجزائري. فمن آثار عبادتهم للشمس أن الولد حينما تسقط سنه يرمى بها إلى الشمس فيقول لها في بعض الجهات الشمالية " أعطيتك سن فضة أعطني سن ذهب" وفي بعض الجهات الجنوبية " أعطيتك سن حمار أعطني سن غزال". ويعظمون بعض العيون، ويتبركون بمياهها ويستشفون بالشرب منها ويرجون منها النسل ويقربون لها القرابين[19] ويجتنبون قطع بعض الأشجار ويعلقون بها الخيوط رجاءا أن تقضي حاجتهم (أشجار البطم).

ومن تعظيمهم للجبال تقديم النذر من الأطعمة والأنعام لبعض الكهوف وزيارتها. وتطييب رائحتها بالبخور ومياه الرياحين. وقد يرجعون ذلك إلى أن أحد الصالحين مر بهذا الكهف وجلس عنده.

وكان قدماء الجزائر يعتقدون بحياة أخرى غير الأولى، ويرون أن الميت في قبره أكمل منهم علما. يدل ذلك ما تقدم من أن منهم من يضع للميت في قبره جالسا ملتصقا ببطنه بفخذيه ولحاه بركبته، يمثلون بهذا الوضع هيئة الجنين في بطن أمه، كأنه بموته ولد في عالم آخر، ولذلك يضعون معه أطعمة وأشياء من الزينة. وإذا أهمهم أمر لم يهتدوا إلى وجهه استشاروا الموتى من أسلافهم. ينام أحدهم على قبر سلفه وما رآه في منامه عمل بمقتضاه في يقظته.[20]

كان قدماء البربر يعتقدون وجود إله يسمونه "عمون" تحل روحه في بعض الكائنات مثل الشمس والقمر والرعد والبرق وغيرها. لذلك كانوا يعبدون تلك المظاهر وهي ترجع على ثلاثة أصول:

1- الكواكب: كانوا يعبدون منها الشمس والقمر، ويمثلون الشمس بقرني ثور.

2- الحيوانات: كانوا يعبدون منها الثور في المنزلة الأولى والكبش في المنزلة الثانية. ويعبدون الأفعى والحمام والطاووس والسلحفاة والقرد والضفدع والهر.

3- الروحانيات: كانوا يعتقدون وجود أرواح كالجن في بعض العناصر الطبيعية كالعيون والأشجار فيعبدونها ويتوسلون بها إلى نيل ما عجزت عنه قواهم البشرية.[21]

ويقول البكري: " وبنو ورسيفان من البربر إذا أرادوا الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ. وهي عندهم الشياطين ويقولون هذا ذبح للشماريخ، ويفتحون أوعيتهم في تلك الليلة من الطعام والعلف، فلا يكون لها وكاء ولا سداد. ويقولون هذا طعام وعلف للشماريخ، فإذ غذوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع الريح. فيقولون قد جاءت الشماريخ أولياؤكم لنصرتكم فيحملون عند ذلك فينتصرون بزعمهم ويقولون أن ذلك لا يخطيهم.[22]

وديانة البربر مركبة من عدة ديانات منها ما يشبه ديانة قدماء المصريين ومنها ما أخذوه عن الفينيقيين ومنها ما نقلوه عن الرومان، وكلها ديانات وثنية. وقد حافظوا على روح عقائدهم الأولى. ولا يعرف التاريخ دينا غير العقائد وابتعد بها عن الوثنية كالدين الإسلامي، ومع ذلك لم يطهر البربر من كل ما كانوا عليه. وكثيرا من هذه المعتقدات لم تزل رائجة بين كثير من السكان غير أنها اصطبغت بلون آخر.

إن السمة السائدة للأفكار عن الدينية للبربر هي الاعتقاد العام بأن العالم تسكنه الأرواح الطيبة والخبيثة، التي يمكن أن تتخذ أشكالا مختلفة، وتسكن مؤقتا في الأحجار، والأشجار والحيوانات والكائنات البشرية. وهذا اللون من العقائد واسع الانتشار في الإنسانية البدائية، وعلم الأديان يسميها الاعتقاد بأن كل شيء نفسا أو روحا. فقد ورث البربر المحدثون هذا التصور الديني من أسلافهم الوثنيين الأقدميين، وهذا الاعتقاد القديم في الجن والعفاريت والقوى الخفية التي لا تحصى، يفسر ما يذكره بعض المؤلفين القدماء، بمناسبة مختلف جماعات البربر، من عبادات للجبال والصخور والينابيع والأنهار والأشجار والحيوانات والكبش والحية.[23]

وعلى الرغم من اختلاط البربر بكثير من الشعوب، فقد حافظوا على سماتهم الخاصة وتصوراتهم المحلية، كأن يبعد المرء عن ذاته وعن بيته وعن حقله وقطيعه للأرواح الشريرة، وأن يهدئها وأن يرغمها على ألا تؤذي، بل ويحملها على مساعدته في عمله وفي تحقيق

أمانيه كل هذا يحصل عليه بطقوس مناسبة أو بوسائل ملائمة، وعبادة مواتية، وكذلك يستجلب أفضال الأرواح الخيرة.

ولا بد أن اعتقاد البربر في أرواح الشر، ساكنة البيوت المظلمة والكهوف والمغارات والمياه والرياح...كان واسع الانتشار جدا في الماضي وهذا الاعتقاد في الأرواح الشريرة أو الطيبة، كان يتطلب من البربر طقوسا وعبادات. وديانة البربر تبدو محملة ببقايا وثنية عديدة مؤلفة من طقوس سحرية – دينية أغزرها هي تلك المتعلقة بالمواسم الزارعية.

وقد كان أول المرامي الدينية لدى المجتمعات الإنسانية هو التأمين الاقتصادي. ويمكن تلمس ذلك بوضوح ابتداء من مجتمعات إنتاج الطعام حيث كانت ظاهرة آلهة الأمومة تهدف إلى التقرب من القوة الخفية الموفرة للإنتاج والخصوبة.

ولقد أحس إنسان تلك المجتمعات بالحاجة الماسة إلى إرضاء تلك القوى المتحكمة في الإنتاج الزراعي والوفر الاقتصادي واستقرار المجتمع وشؤونه الحياتية، وقد استمرت تلك الظاهرة، ولكن بشكل عقيدي متطور يمكن للمؤرخ تلمسه في مراسم الزواج المقدس والاحتفالات الخاصة ببداية السنة، وما لحق ذلك من أساطير دينية تهدف إلى تثبيت تلك المعتقدات بين مختلف طبقات الشعب[24]. ففي كل وقت من أوقات السنة الزراعية، توجد مراسم قديمة غرضها في الغالب هو أن تطرد عن المسكن والحقل والمحصول والقطيع تطرد الأرواح المؤذية، والشياطين التي تسكنها وتهددها، وأن تهدئ من غضبها، وأن تستجلب رضاها بالقرابين. وفي نفس المواسم (الخريف، الحرث، الربيع، المحاصيل، الصيف...إلخ) وفي الوقت الذي تقام فيه الطقوس ضد الجن، أو بعد ذلك تتم شعائر لإجتلاب القوة الخيرة – البركة – فمثلا، النيران الشعائرية التي توقد عند الانقلاب الصيفي تحقق رغبتين: القضاء على التأثيرات الشريرة والأرواح المؤذية، ثم تقوية قوى الخير وقوى الحماية، وذلك بلهيبها ودخانها ورمادها، وهذه الأخيرة يضمها البربري في عجزه عن تصويرها لمعالم محددة تحت تصور غامض لسيال يشيع النجاح في كل ما ينفذ فيه.[25] وغالبية البربر قد أضافوا، في

الذي ينثر الرمان على حرث محراثه عند أول حرث في الخريف. فإنه يؤدي حركة تقليدية. فهو يعتقد أن أجداده كانوا بهذه الحركة، يعتقدون أن المحصول سيكون وفيرا. وأن السنابل سيكون فيها من الحب بقدر ما في الرمانة من حب. وهذه الوفرة من الحب في الرمانة هي التي جعلت الرمانة في قرطاجة رمزا لآلهة الخصوبة. ولكن أوفر الرموز عند البربر هو رمز اليد المفتوحة الممدودة تلك اليد الحامية التي نجدها في كل مكان لطرد الأرواح الشريرة وعين الحسود والجن العفاريت الخبيثة – تطردها عن الأشخاص والأموال. وهذه اليد، كانت مرسومة على كثير من التماثيل القرطاجية. وهي تعني القوة والرعاية الربانية. ثم صارت فيما بعد الحلي القرطاجية علامة واقية ولا يزال الأمر هكذا عند سكان شمال إفريقيا.

لقد بذل البربر جهدهم الديني في أداء الطقوس والشعائر، وانتظروا منها كل شيء. والعالم عندهم، كان دائما مسكونا بقوى الخير والشر، وهي قوى غامضة غير مشخصة، يلتمس المرء رضاها أو يتقيها هو وأهله وأمواله بوسائل أدخل في السحر منها في الدين.

ويمكن القول أن الغاية الدينية كانت تتعلق بما يمكن تسميته بالأمن الوقائي. وهو ما يتصل بحماية الأفراد ووقايتهم من الأمراض والشرور المختلفة، وكذلك حماية المجتمع من التهديدات التي من المحتمل أن يتعرض لها، هذا بالإضافة إلى حمايته أيضا من الكوارث الطبيعية كالطوفان والزوابع والعواصف التي تواجهه[29].

لقد واجه الإنسان القديم العديد من الإشكالات التي تهدد أمنه بصورة دائمة. ولذلك أحس بضرورة توفر نوع من التأمين في حياته ولجأ إلى الفكر الديني لكي يكفل له الأمن الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والنفسي في حياته الدنيوية وفي المستقبلة بعد الموت. وقد كان البربر في فجر التاريخ، مستقرين ورحلا، يعيشون على الزراعة وتربية الحيوان. ولهذا كانت دياناتهم ديانة زراع ورعاة قبل كل شيء وكانت متجهة إلى وقاية الحقول والمحاصيل ووفرتها وجودة القطعان والمواشي. وكانت بلادهم ذات مناخ قاس مفرط يتميز بفصل حار جاف في الصيف، مما أولي أهمية بالغة للينابيع الدائمة الجريان وللأرواح التي تولدها أو تسكنها. والمطر الذي يجعل المراعي تخضر، ويضمن محصول الحبوب، كان

ضرورة تصور البربر دورها على طريقتهم في التصور. وولد طقوسا سحرية ودينية، بدون أدائها لا يمكن المياه الثمينة أن تنفجر وتحدث[30].

ومع تأثر البربر بديانات الأمم المجاورة لهم، فهم يحافظون على روح عقائدهم الأولى ولا يرفضون منها إلا قليلا. ولا يعرف التاريخ دينا غير العقائد وابتعد بها عن الوثنية، واعتمد على العقل مثل الدين الإسلامي ومع ذلك لم يطهر البربر من كل ما كانوا عليه[31] وهذا صحيح إلى درجة أن التوحيد الإسلامي – من بعد المسيحية – لم يستطيع بعد قرون عديدة من السيادة والسيطرة أن يغير تغيرا شديدا في تصورات البربر الدينية.

إن تنوع مناطق الشمال الإفريقي وانعزال بعضها عن بعض ولد نزعة انفصالية قبلية كان من نتيجته نوع من الانعزاليين الدينية التي تتميز بالإيمان بالقوى القبلية أو المحلية، وهي أنواع من الآلهة الخاصة يمكن أن نعد الأولياء المسلمين الحاليين بمثابة خلفاء لها[32].

وعلى الرغم من هذا التنوع في التعبير عن المعتقدات والعبادات والطقوس، فقد كان هناك اتفاق في التصورات والوسائل؛ وقد امتزج السحر والدين على نحو وثيق، كما هي الحال عند البدائيين. وفي هذا الاطراد الأساسي للروح الدينية يمكن أن نعثر على الملامح المشتركة للمزاج الديني للبربر. وفي هذا الشأن يقول هنري باسيه: " كانت الطقوس السحرية في هذه البلاد هي دائما جوهر الدين، إنها ليست بلادا صالحة لميلاد الآلهة".[33]

وإذا كان القرطاجيون الأولون قد وجدوا عند البربر إلها محليا هو الإله آمون، وهو إله كبش. فإن شخصيته لم تكن واضحة كل الوضوح. ولم يتخذ إله البربر القديم ملامح وصفات أوضح إلا تحت تأثير قرطاجة ثم روما.

وفي هذا الصدد يقول هنري باسيه: " كان أمون هو الإله الكبير والوحيد عند البربر في عصر قرطاجة الأولى. ولم يكن مجرد رمز، ومجرد تمثيل سحري لقوة غير واضحة. ويدين بهذه الخاصة لكونه لم يكن بربريا محضا، بل يبدو أنه كان إلها مركبا تكون من كبش قديم يمثل قوة القطعان البربرية، وقوة الإله الشمسي الأكبر أمون – رع وربما يمثل شخصية إلهية ثالثة، مختلفة في الأصل هي شخصية إله الوحي في الواحة الكبرى

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية
المكتبة

وقد بدأ الإنسان في محاولة التقرب من القوى الإلهية المتحكمة في تلك الظواهر الطبيعية الخطرة. وذلك بتقديم القرابين إليها من أجل حمايته ووقايته من كافة الإشكالات التي من المحتمل أن تعترض سبيل حياته وكذلك اتخاذ الإجراءات والطقوس الدينية الكفيلة بتحقيق تلك الحماية. وقد كان للأساطير والآداب الدينية دور فعال في هذا الصدد، من حيث تمجيد تلك الآلهة الحامية له.

إن الكواكب والأحجار والحيوانات التي كان يعبدها البربر ويقدسونها لا ترجع قدسيتها إلى صفاتها الذاتية بل الاعتقاد في قوتها والإيمان بسيطرتها. وفي هذا الصدد يقول مصطفى الخشاب: " والذي يجعل الشيء مقدسا ليس صفات ذاتية نابعة من الشيء نفسه، وإنما المواقف والتصورات العقلية التي يتخذها الفرد حيال الشيء المقدس...فالإيمان يعتمد على الاعتقاد النابع من القلب لا على الدلائل المادية. هذا الاعتقاد بأن الشيء مقدس هو الذي يضفي على الشيء المحسوس صفة القداسة، وبدون ذلك الاعتقاد يصبح الشيء المقدس أمرا لا يختلف عن مثله من الأمور العادية[34].

تجسد هذه المقدسات معبودات لأقوام تقدسها. وتعتقد في قوتها والإيمان بسيطرتها. فهي التي تنفع وتضر وتهب الحياة والموت إلى غير ذلك من الأمور، كالاعتقاد في القوة الخارقة للشياطين والأرواح الخبيثة الشريرة، فكثيرا من الناس يخافون المبيت في منزل مهجور أو مكان معزل خشية أن تصيبهم الأرواح المحبوسة. وهي بقايا من المعتقدات القديمة للإنسان البدائي.

إن السبب الرئيسي في التجاء الإنسان إلى ممارسة السلوك والعادات المتصلة بالتفكير الخرافي، وهو العجز والضعف إزاء حاجاته الأساسية أو مشكلاته المستعصية وعدم القدرة على التفكير المنطقي السليم. إن الخوف الشديد والتوجس المستمر أهم الأسباب التي تساعد على شيوع العادات الخرافية وخاصة إذا اقترن بالجهل والشعور بالضعف والعجز عن العمل الإيجابي[35].

وعلى الرغم من تعرض الجزائر لعدد كبير من الغزاة ابتداءا من الفينيقيين والإغريق والرومان وغيرهم ومحاولة التأثير على معتقدات البربر وعاداتهم وتقاليدهم. فإن السكان القدامى والذين أتوا من بعدهم حافظوا على معتقداتهم القديمة. وقد خضع البربر للدين المسيحي ومن بعده للدين الإسلامي الذي كان الدين الوحيد المؤثر الذي أثر بفعالية في عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم بحيث أصبحوا يدينون بالدين الإسلامي ويؤمنون بإله واحد ويقومون بالشعائر والطقوس التي أتى بها الدين الجديد. وعلى الرغم من مرور قرون عديدة على انصهارهم في هذا الدين غير أن الكثير من المعتقدات القديمة لا تزال مستمرة ضمن تراثهم الشعبي.

لقد استخدمت كل من اليهودية، النصرانية، الإسلام، حال ولادتها، في محاربة تعدد الآلهة من أجل " توحيد " تمجيد الوحدانية الإلهية، في هذه الحال كانت غالبية السلوكات الطقسية الموروثة عن المذهب الإيحائي[36] تعارض هذه الوحدانية. غير أن الإسلام سيكون الغريم الأكثر عنفا إزاء هذه العبادات والطقوس التي دعت إليها التعددية الإلهية.[37]

لكن الهوة التي تفصل بين المعتقدات الدينية والقبول الاجتماعي لها تبقى عميقة جدا. ففي كل أن ورغم تعارضها الجذري مع التقليدية الدينية لا حظنا ولا زلنا نلاحظ – بما في ذلك العالم المسيحي استمرارية العقائد والطقوس الوثنية بحيث يربط المرء هذه المخلفات بحاجة أساسية يجب البحث عنها في أعماق لا وعيه.

وفي هذا الشأن لا حظ بعض علماء الاجتماع أمثال " اوجبرن " "Ogburn" أن القسم المادي يميل إلى التبدل والتطور بسرعة تفوق الأقسام المعنوية ويرجع ذلك إلى أن الإنسان لا يمانع عادة في تغيير وتطوير مظاهر الحضارة المادية طالما يلمس في ذلك توفيرا لجهوده وضمانا للحصول على رفاهيته وسعادته، في حين أنه يكون شديد التعلق والتعصب بما درج عليه من آداب اجتماعية، وما أنشئ عليه من تقاليد ومثل خلقية ودينية وما اكتسبه من آراء مذهبية أو عقائدية أو إيديولوجية[38].

إن ما حدا بنا إلى التطرق إلى هذه المعتقدات والطقوس التي كان يمارسها البربر هو قوة هذه المعتقدات واستمرار وجودها ضمن التراث الشعبي حتى أن كثيرا من العلماء لاحظوا بقايا وثنية ضمن الممارسة الاحتفالية في كثير من المناطق والتي دأب السكان على تنظيمها وفق معتقدات معينة. وفي هذا الصدد يقول مبارك بن محمد الميلي: " ونظير ما ذكره البكري ما هو موجود اليوم من أن الناس إذا عز عليهم المطر في فصلي الربيع والخريف لم يستسقوا الاستسقاء الشرعي بل يتقربون بذبح البقر وغيره من الأنعام لقبر من القبور التي يعتقدون صلاح صاحبها بالسماع من أسلافهم العوام، ويطعمون الطعام ويسمون ذلك " زردة سيدي فلان..." فإذا أغاثهم الله بالمطر نسبوا ذلك لبركة ذلك السيد وأنه رضي عنهم. وكثير من عقائد الأقدمين الوثنيين لم تزل رائجة بين الجهال البسطاء وعوام المتعلمين. وإنما صبغت بلون آخر[39].

وسنقوم بإلقاء نظرة دقيقة على بقايا المعتقدات والطقوس الوثنية التي لا زالت تمارس ضمن التراث الشعبي على الرغم من أن الدين الإسلامي قد حاربها محاربة عنيفة كما أسلفنا. وذلك لأن تغيير وتبديل العادات والتقاليد يبدو من الصعوبة بمكان في حين أن الجانب المادي كما ذكرنا سابقا سهل التغيير والتطوير في حياة الشعوب.

أ- استمرارية المعتقدات القديمة.

إن التقاليد والعادات الشعبية تكتسي قوة عظيمة للبقاء والاستمرار على الرغم من القرون التي مرت بها ولا سيما تلك المتعلقة بالمعتقدات والطقوس حيث أن العديد منها لا زال يعيش مع التقاليد الجديدة. إن التقدم الذي عرفه المجتمع في شتى الميادين وإن كان له أثرا إيجابيا على الجانب المادي للشعب فإن الجانب الروحي والمعنوي لم يتأثر تأثيرا كبيرا بدليل بقاء تقاليد قديمة ضمن التراث الشعبي بفعل قوة صمود العادات في وجه عوامل التغيير المختلفة.

إن إحساس المجتمع بضرورة الدفاع عن كيانه أمام مختلف العوامل التغيرية (الغزو الثقافي الخارجي..إلخ) يجعل أفراده يلجأون إلى الاحتماء بالتقاليد والتراث وربما عمد في بحثه عن وسائل المقاومة إلى إعادة انبعاث تقاليد كان يظن أنها في عالم النسيان.

وفي هذا الصدد يقول حسن الساعاتي في كتابه علم الاجتماع القانوني: " إن التقاليد عادات مقتبسة اقتباسا رأسيا، أي من الماضي إلى الحاضر، ثم من الحاضر إلى المستقبل، فهي تنقل وتورث من جيل إلى جيل، ومن السلف إلى الخلف على مر الزمان...ويزيد التقاليد قوة أن آباءنا يتمسكون بها، وأننا ننشأ فنجدهم بها متمسكين وعليها حريصين، ولذلك كان أصعب دور كلف إياه الأنبياء والمرسلون هو تغيير عادات القوم المتوارثة أي تقاليدهم.[40]

لقد شكلت ظاهرة أو طقس الضحية التي تقدم قربانا للآلهة طقسا ملازما لاحتفالات ومظاهر التقرب إلى الآلهة سواء لطلب حمايتها أو لاتقاء شرها. وأصبح الإنسان تبعا لذلك يحس بالطمأنينة والهدوء حينما يفي بطلبات إلهه – وفي هذا المجال يقول باستيد: " أن الضحية التي تقدم قربانا تستخدم كموضوع تبادل بين المتضرع (الذي يلتمس) والمتضرع إليه (الألوهية التي تتقبل الدعاء) ويشكل هذا التبادل تداخلا للقوى بين الإنسان والألوهية التي يناشدها. ويمكن إسهام الضحية في تحرير طاقة ضرورية للقوى الملتسمة ضمن مهمتها المتعلقة بتوكيد حياة المؤمنين بها لأن دم الضحية القربانية هو شراب الآلهة المفضل، إنه الغذاء الذي يؤدي إلى تجدد قوى المقدس المنهكة الموضوعة في خدمة البشر والوسيلة التي تنعكس هذه القوى عليهم من جديد كي تشتد قدرتهم على الحياة أو البقاء.[41]

وليست وظيفة الضحية واضحة بهذا الشكل إلا في الأديان القديمة، وكل تضرع بشري يتجه للمقدس يحمل في طياته صلاة دينية، لكنه في نفس الوقت مناقضا للديني جذريا عندما لا تكون القدرة الملتمسة هي الله بل رجلا كالشماني الذي ادعى لنفسه مزايا إلهية في المعتقدات الشعبية، تكمن المسألة في أن ثمة اتصال مع المقدس البدائي السحري أو المألوف الديني مطابق لكل سلوك ديني تقليدي أو بدعي[42].

تبرز المعتقدات الوثنية من دوامة النسيان التي وضعها فيها الجحود البشري كما تبرز حجتها، وتنبعث من الأنقاض، تتعلم من جديد كيف تسيطر على الإنسان من خلال حاجته الكبرى للحماية وهي تروضه بينما يعتقد أنه هو الذي يروضها. ففي فترات التأزم الاجتماعي عند قدوم تيار تحديثي من الخارج للثقافة التقليدية، تصبح الضرورة ملحة للاحتماء واللجوء إلى المقدس التي تتجاوز الفرد لتحتضن الجماعات من خلال التحرك الديني، سوف تبحث في الماضي عن التوازن الذي تحن إليه. والطريق الأكثر قبولا هو الطريق الذي يرتكز على التلاعب " بالواقع الاجتماعي الجديد المحدث لضغوطات عديدة بواسطة مؤسسات قديمة تهدمت بنيتها ويبدو اللجوء إلى الطقس وكأنه وسيلة للتلاعب بالحاضر المبهم من خلال سلوكات مأخوذة من الماضي "[43].

إن دراسة التراث الشعبي الجزائري الغني لمختلف مناطقه ولا سيما ما تعلق بالمعتقدات والطقوس التي تتم أثناء مختلف الاحتفالات أو التي تحويها تلك العادات والتقاليد تعكس مدى تمسك الناس ببقايا معتقدات وطقوس وثنية يمارسونها وكأنها طقوس ذات علاقة بالدين، إذ لا يتم التفريق بين الطقس التقليدي الديني وبين الطقس البدعي. وهذا ما جعل تعايش هذين الطقسين في الذاكرة الشعبية. وسنقوم بدراسة بعض التقاليد والعادات لمختلف المناطق لنبين استمرار ظاهرة الوثنية في المعتقدات الشعبية.

على الرغم من التقدم الملحوظ الذي حققه الإسلام، فإن المجتمع الجزائري لم يتخلص من المعتقدات القديمة. ورغم أن حدتها قد خفت فإنها بقيت معلقة في أعماق وجدان الإنسان الجزائري لمدة طويلة وذلك لكون الجبال والشعاب والأودية قد احتفظت بأساطير موسومة بالوثنية.

إن خرافات التوارق اتجاه الجن مثلا، الأماكن المسكونة، بقيت سالمة تتناقلها الأجيال، جيل عن جيل. فإلى جانب اعتقادهم في الأولياء، فإنهم يتمسكون عن طواعية واقتناع بأشخاص غريبين، والذين لا يكونون كما يقول أ.ف. قوتي إلا أرباب صغيرة لم يقض عليها. وقد وجد الأب دوفوكو في سرد الأساطير أسماء البعض من هذه الآلهة: تمارس،

بوردان، تاسود، وارداز، نولانة، رادس والتي تم نسيانها حاليا، ولا يتذكرها إلا بعض الأشخاص المسنون[44] ويعتقد الكثير من الناس أن الأرواح الشريرة تسكن الجبال، الينابيع، الأماكن الوعرة، بعض الأشجار، ويحتمون منها بواسطة حمل طلاسم كثيرة التي يقدمها لهم المرابطون أو حملة القرآن الكريم وهم المعروفون عند العامة باسم " الطلبة ".

وتعتبر النساء أكثر سذاجة من الرجال حيث تمارسن استشارة القبور القديمة، كما أشار إليها هيرودوت " هناك أناس لا يعرفون ألوهية أخرى إلا الأرواح الأموات، ولا يقسمون إلا بها ويستشرونها كوسطاء. وبهاذ فبعد أن توضح النساء طلبهن، فإنهن يضطجعن على بعض القبور ويحصلن على الجواب بواسطة الحلم[45]. وما يؤكد بقايا هذا المعتقد ما يورده مبارك محمد الميلي حيث يقول: " وإذا أهمهم أمر لم يهتدوا على وجهه استشاروا الموتى من أسلافهم: ينام أحدهم على قبر سلفه وما رآه في منامه عمل بمقتضاه في يقظته. وللجزائريين اليوم حظ وافر من هذه العقيدة المباركة على الانحطاط والتقهقر[46].

وتمارس النساء أيضا الكهانة بواسطة المرايا أو الرسوم على الرمال. كما أن بعض الأضرحة لها صيت وشهرة في الاستجابة للنساء اللواتي يرغبن في زوج. ويعتقد الكثير من الناس أن بعض الأحجار يسكنها الجن، ولذلك يضعون أمامها كومة من الأحجار، كما أن البعض منها قد اكتسب صيتا أيضا في كونها مسكنا للجن، ولا يجلسون تحتها قبل أن يقوموا برميها بحصيات من أجل طرد الجن منها.

وبجانب هذه المعتقدات، يشغل السحر لدى الكثير من الجزائريين حيزا كبيرا. فقطع الجلد التي يحملها الفرد كحروز مهمتها الحماية من لسع الأفاعي والعقارب وبهذا يتم الاعتقاد في الحصانة من هذه الآفات[47].

يزخر التراث الشعبي بعادات وتقاليد شعبية كثيرة، ساهمت فيها الأجيال عبر العصور المختلفة. واتخذت صبغة طقوس مقدسة كالذبح للطيرة، نحو أن تشتري دارا فتذبح لتستخرج العين ولئلا يصبك مكروه من جنها[48] وهو ما يقابله عند العامة ما يعبر عنه بالذبح على العتبة عند دخول الدار بعد بنائها أو شرائها. والنشرة وهي في لسان العوام ما

يتخذ من ذبيح من الدجاج غالبا تقربا إلى الجن كي يرفعوا داءهم عن المصاب ولا يذكرون اسم الله على الذبيحة إرضاءا للجن[49] ويضاف إلى هذه العادة اللجوء إلى السحرة والعرافين التي تلتجئ إليها غالبا النساء، فمن أصابه مس من الجنون ينقل إلى قبة من القباب، وتقوم النسوة بذبح ديك أسود، ويبيت المريض بجانب القبر ليشفى من المرض[50].

وهناك عادات أخرى، كاتخاذ المزارات والتبرك بها، وتعليق الخرق على أشجار السدر والبطم، وتقديم الشموع والنقود والمباخر إلى الأضرحة، وتقبيل جدران القباب، التضرع إلى صاحب الضريح من أجل كشف الأضرار ورجاء الخير وطلب الصحة والعافية والبركة. ولكي نتمكن من إبراز بعض العادات والتقاليد القديمة التي لا زال الناس يمارسونها على الرغم من الحقب الزمنية السحيقة التي مرت بها فإننا سنلجأ إلى بعض الدراسات التي قام بها بعض الباحثين أثناء الاحتلال الفرنسي والتي درسوا من خلالها عادات وتقاليد بعض المناطق الجزائرية عن طريق معايشتهم لحياة السكان والإطلاع على ظروف معيشتهم وتقاليدهم:

من العادات التي يتمسك بها سكان بعض المناطق كبني سنوس مثلا وهي عادات عامة توجد في مناطق كثيرة ولكنها تمارس بطرق مختلفة من هذه العادات إذا ظهر لقلق لأول مرة في السنة ووجد شخصا جالسا أو نائما، فإن هذا يبشر بمرض قد يصيبه أو إعلان موت إذا أراد الله.

حينما يريد الفلاحون إبعاد الجراد عن حقولهم، فإن الفقيه يكتب على الأحجار ويضعها في الحقول، ويشفق الله على العباد، فيبعد الجراد عن المنطقة بفضل القوة الإلهية[51].

أثناء النطح (بداية أفريل) تقوم النساء العقيمات بقطف بعض الأعشاب وطهيها وأكلها، وتنطقن بهذه الكلمات: " يا النطح بو النطوح جئتك نطلب على سبة الذرية إذا الله حب [52] كما تأخذ سبع سيقان من الحريف وتقلن: "يا حريف، أنا جيتك قلبي ضيف، الا ما اتجيب زوجي لو يكون في سبعة طرائق، الا راه نعسان فيقه وجيبه قلبه ضيف والا محبوس اخطفه، كما خطفت الموت الخلائق[53].

خلال شهر ماي يحذر الطلبة الناس من اقتراب أيام نيسان ويكون المطر الذي يسقط في هذه الفترة مباركا. فإذا أمطرت السماء لجأ الرجال والنساء والفتيات إلى الخروج عراة الرؤوس لكي تبتل بماء المطر الذي يحمي من صداع الرأس ويشفيها كما يطيل شعر النساء والفتيات[54].

أما العادات المتعلقة بمحاربة الأرواح الشريرة فيمكن الإشارة إليها من خلال ما يلي:

يقول الأوراسيون بأن الله قد قيد لحراسة كل إنسان ملائكة توجهه إلى الطريق المستقيم كما يقولون أيضا أن الله سمح للشياطين بدفعه إلى الأسوء، وعدد هذه الجن غير محدود. وتشمل كلمة الجن كل ما هو غير مرئي وتدل كذلك على الشياطين. ويساهم الجن الخيرون في ترسيخ إيمان الإنسان بالله. في حين يدفعه الجن الأشرار الذين سيلهمون السحرة والبدعين من كل حدب وصوب، إلى الضلال وإلى دروب النار الأبدية[55] لذا يوصي الإسلام بدلا من هؤلاء بالتيقظ المستمر النابع من التعبد. وهكذا سيتم باستمرار طرد الشيطان المؤذي، الذي لا يتوانى المؤمن عن الحذر منه، بواسطة صيغ تعبدية قرآنية والصيغة الأكثر تداولا هي التي ترتكز على ذكر الله[56] وبدل أن يلتجئ الناس إلى محاربة الأرواح الشريرة عن طريق الرقي التي يقرها الدين الرسمي, واعتمادا على عادات الأسلاف، فإن النساء تتقلدن الحلي الفضية التي تحمل " اليد " أو الخامسة[57]. وهي عادة قديمة استعملت عند البربر كيد حامية لطرد الأرواح الشريرة وعين الحسود والجن والعفاريت الخبيثة – تطردها عن الأشخاص والأموال[58]. أما الرجال فإنهم يحملون في أعناقهم وأعناق حيواناتهم رقي بها آيات قرآنية ويلجأون في بعض الأحيان إلى حرق الرقي وتقديمها كشراب لحيواناتهم[59].

أما بالنسبة للأوانس اللواتي يعتقدن بأنهن مصابات بسحر " الثقاف"، فإنهن تلجأن إلى العراف أو إلى مقبرة، فتختار إحداهن قبرا قديما وتمر فوقه سبع مرات قائلة: " يا قبر يا قبر نعرفك لا انثى ولا ذكر تقطع من حزامي هذا الكور."[60].

ومن المعتقدات التي تناقلت عبر الأجيال جيل عن جيل وأصبحت تلقى إلى الأطفال لتفادي الأرواح الشريرة. وقد عايش الباحث ككثير من الناس هذه العادة أثناء الاستحمام في بركة أو واد حيث يلجأ المستحم عند بداية الاستحمام أو نهايته بالتوسل إلى الماء لحمايته من الأذى والحمى حيث يقول: " هذا حقك يالماء، بالصحة والعافية ألى، يجي في يجي في صاحبي والي يجي في صاحبي يجي في الفكرون العمى، الله ينعلك يالحمى في قلب الماء[61] وتبرز بعض الخرافات في الحياة العادية لسكان كثير من المناطق حيث يتجنب العديد منهم كنس منازلهم بعد صلاة العصر ويخشون رمي الماء الساخن في بعض الأماكن كقناة أو ساقية تصريف المياه أو في الموقد (الكانون) كما يلجؤون إلى ترك قليل من الكسكسي في القدر بحجة تقديم العشاء لأصحاب الدار ويقصدون به الجن كما يتعوذون بالله ويكثرون الذكر عند اجتيازهم لواد بالليل أو قرب مكان مهجور أو مقبرة.

فيما يكيلون الحبوب أو يعدون، فإنهم لا ينسون أن يقولوا الله بعد كلمة واحد ويقولون بعد كلمة خمسة في عين إبليس.

ويخشون مآسي كبيرة حينما يحولون خلايا النحل في ليلة يوم الجمعة أو بعد غروب الشمس خوفا من أن يدوسوا بأرجلهم على غذاء الجن[62].

حينما تأتي النسور، فالشخص الذي يراها لأول مرة في السنة يتفاءل بها أو يتشاءم. كما يتفاءل كثير من الناس من رؤية طائر أبيض أو يتشاءمون من رؤية الأسود أو إنسان جميل المنظر أو قبيحه. فإذا كان هذا الشخص واقفا ورأى النسر فإنه يقول له: " لقد رأيتك أيها النسر وأنا واقف" ثم ينحني مغمض العينين، ويلتقط التراب من تحت رجله اليمنى ويتفحصه في يده. فإذا وجده مختلطا مع شعر حيوان أسود، فإن الشخص يشتري حصانا أسوادا أو بغلا أسواد. وإذا كان لون الشعر مختلفا، أبيض أو رماديا أو أحمر فإنه يشتري مطية بيضاء أو رمادية أوحمراء[63] وغالبا ما يلجأ الناس إلى تقديم القرابين إلى الأرواح الشريرة كي يأمنوا شرها وأذاها عن طريق ذبح كبش أو عترة أو دجاجة إذا تم شراء دار أو تغييرها أو دخولها لأول مرة أو اقتناء حصان أو غير ذلك. وهم يعتقدون أن اهراق دم

الذبيحة من شأنه أن يبعد الجن عن هذه الدار ويؤمن ساكينها من أذى محتمل. لذلك يلح الناس على ساكن الدار بذبح شاة انطلاقا من هذا المعتقد الذي يعود إلى المعتقدات الوثنية للقدماء.

يخشى الناس الكوارث والمصائب ويربطونها ببعض المعتقدات الموروثة. فإذا رأوا في الصباح على طريقهم غرابا واحدا يتطيرون منه أو إذا لقوا حيوانا أسودا، أو لاحظوا أرنبا يهرب، أو عاينوا قطا يمرر رجله على فمه (في هذه الحالة، فإن القط يدعو على صاحبه بالموت)، ويشمئزون من سماع نقيق الضفادع. وتقشعر أبدانهم عند سماع الصوت الليلي للبوم أو ظهوره فوق منازلهم أو في جوارهم وهو فأل شؤم بالنسبة إليهم حيث يعتقدون أنه يعلن موت أحد أفراد العائلة. لذلك يلجؤون إلى رميه بالحناء وقد ينذرون ويحذرون من معاملته معاملة سيئة, وقد لجأت إحدى المسنات إلى رميه بشهاب من النار ثم أثناء نومها حلمت بذلك البوم في صفة شخص حيث عاتبها قائلا لها: " الناس ترمين بالحناء وأنت ضربتني بالنار" وقد نهضت مذعورة ومنذ ذلك الوقت آلت على نفسها ألا تعود إلى مثل هذا السلوك[64] وإذا رجعنا إلى الخرافات المتعلقة بالموت فإننا نجد أن يشعر الناس بالضجر حينما لا يستطيعون إغماض عيني الميت أو حينما يلاحظون آثار شخص فوق القبر بعد الدفن. أو حينما يجدون الحجارة بالقبر ويتعذر عليهم حفره وينسبون ذلك إلى سوء فعل الميت.

وإذا نزلت مصيبة بعريس كموت أحد أفراده أو وقوع كارثة بعد فترة من زواجه، فإنه يسرع إلى تطليق زوجته. وإذا اشترى بغلا أو حصانا، فأنه يلصق الشؤم به ويبيعه، وهو يمتثل للمثل القائل (الخير امرا والشر امرا)، معنى ذلك أن المرأة هي التي تكون في نظر الناس فأل خير على زوجها أو مصدر شؤم. سرعان ما يتطير منها. كما أن وقوع حادث أو كارثة في سكن مقتنى حديثا، يؤدي بالمالك إلى بيعه أو الحج إلى مكان مقدس.

ومن العادات الأخرى كذلك الالتجاء إلى السحر لبلوغ بعض المآرب كالإضرار بشخص أو طلب محبة عن طريق العرافين والكهانة، كما يعتقد الكثير من الناس بأن حمل

التمائم من شأنه أن يبطل مفعول السحر ويؤمن حامله من الأذى (تبطال السحر). وغالبا ما تعلق الحروز في أعناق الصبيان والشبان لحمايتهم من كل مكروه. وغالبا ما يضاف إلى هذه الخرافة المتعلقة بالعين الحاسدة.

تعتبر العين الحاسدة[65] في نظر العامة مصدرا خطيرا لجلب الشؤم والنحس على الإنسان فقط وإنما على الحيوان والنبات والجماد. وتوصف عيون النساء بالخطر وبأنها أكثر شرا من عيون الرجال، وخاصة عيون العجائز.

وخير وسيلة لتجنبها هو عدم الالتقاء بها، ويتوقى البعض العين الحاسدة بأن لا يتحدث بصراحة عن مشروعاته ورزقه ونجاحه[66] وعن التدابير التي تتخذ على سبيل الحذر ضد العين الشريرة هو أن يمد الإنسان يده اليمنى نحو صاحب العين الشريرة ويقول: " خمسة في عينيك" والهدف من هذا السلوك هو إعادة الشر الذي ربما تدفق من تلك العين الحاسدة، فإذا أغرزت أصابع اليد باتجاه العين وحركت راحة اليد نحوها، حجبت عقليا ونفسيا تدفق الشر من تلك العين[67].

وينوب عن هذه العبارة، وحتى يضمن المتقي حماية كاملة، فإنه يلجأ إلى تعليق الأيدي الفضية أو الذهبية الصغيرة، كأقراط أو حلقات في أذان النساء والأطفال، أو بالنسبة للأصابع الخمسة التي ترسم فوق أبواب المنازل والدكاكين. وقد وجدت هذه الأشكال على قبور المصريين والبابليين والفينيقيين والقرطاجيين، وتبقى الإشارة إلى أن اليد وفي وسطها عين موجودة في بلدان كثيرة. ويلاحظ أهمية الشكل الخماسي في الأشياء التي تحمله كالبنادق والصواني ومحافظ النقود والسجاجيد (الزرابي) والحصر والأغطية والأواني الخزفية وغيرها[68].

وإلى وقت قريب كانت العجائز وحتى النساء الصغيرات تضع قلادات من الذهب تتوسطها يد مفتوحة يطلق عليها " الخامسة " وهن يهدفن من وراء ذلك إلى محاولة الحصول على نوع من الحماية ضد العين الشريرة وضد الحسد بشكل عام. أما بالنسبة للرجال فكثيرا ما يلجؤون إلى تعليقها على أبواب دكاكينهم وقد تطور الأمر حاليا وحلت العجلات

المطاطية محل راحة اليد التي تتوسطها عين ولكن الهدف بقي ثابتا وهو حماية المحل من الحسد ومن كل ما من شأنه أن يؤدي صاحب المحل ويؤثر على تجارته ونجاحه. وفي كثير من الأحيان تفسر خسارة التاجر بأنه تعرض إلى عين شريرة سببت له هذه الأمر.

ب- الاستسقاء والممارسة الشعبية:

تؤثر العوامل الطبيعة والبيئة في أسلوب حياة الأفراد وسلوكهم وفي معتقداتهم وطقوسهم. لذلك ارتبط المجتمع الزراعي دائما بوجود الأمطار وانحصارها تبعا للمناخ الذي يسود مختلف المناطق: وهي الساحل وأطلس التل والهضاب العليا والصحراء. وبصفة عامة فإن التساقط يقل من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق وتقل كمية الأمطار المتساقطة في الجهة الغربية بسبب ذلك يعود إلى الرياح الغربية والشمالية الغربية القادمة من اسبانيا تكون قد أفرغت حمولتها على المغرب[69].

أما بالنسبة للشبكة المائية، فإن الأودية أقرب إلى السيول منها إلى الأنهار. ففي الشتاء ترتفع حمولتها وتصبح سيولا جارفة وفي الصيف تنعدم الأمطار وتجف الوديان. وكثيرا ما يؤدي هذا إلى التأثير على الزراعة ولا سيما في الفترات الحرجة قبل نضوج الحبوب مما ينعكس على المردود الفلاحي وبالتالي على معيشة السكان. وقد أدى نقص الأمطار وانقطاعها إلى استدرار الأمطار بمختلف الطرق والوسائل وفق الطقس الشرعي الذي يقره الدين الإسلامي في أغلب الحالات وفق المعتقدات الشعبية والطقوس التي تتوافق مع درجة المعرفة التي بلغها المجتمع آنذاك.

والاستسقاء هو طلب سقي الماء من الله تعالى عند حصول القحط والجدب وانقطاع المطر. ويتم عن طريق صلاة ركعتين في المصلى يجهر في الأولى بالفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى والثانية الغاشية بعد الفاتحة ثم خطبة بعد الصلاة ثم يدعو المصلون أو يؤمنون على دعاء إمامهم. ويجب أن تتوفر شروط معينة في إقامة صلاة الاستسقاء كالصوم ورد المظالم إلى أهلها وغيرها من الشروط المطلوبة.

ونظرا لقلة الوعي الديني وتفش الأمية والجهل في الأوساط الشعبية فقد ركن السكان إلى الممارسة الشعبية وإلى عادات وتقاليد الأجداد كوسيلة بديلة للصلاة الشرعية من أجل الاستسقاء.

وتتعدد هذه الوسائل وتتنوع حسب المناطق وقد تصبح مشتركة بين كثير من المناطق. وأهم هذه الوسائل المشتركة إقامة الولائم والوعدات قرب أضرحة الأولياء والقباب على أمل أن تلبي الدعوات وتستجاب وأهمها إبعاد شبح الجفاف والقحط عن طريق التوسل إلى الله بجاه الولي الصالح وكثيرا ما تتهيأ الظروف الطبيعة فينـــزل المطر ويعزى هذا إلى بركة الولي الصالح في أغلب الأحيان. وإذا حدث وأن أقيمت صلاة الاستسقاء و لم ينـــزل المطر تصبح المقارنة لدى الوافدين تميل لصالح إقامة الوعدة.

وكثيرا ما سمعنا الناس يتحسرون على ترك إقامة الوعدات لأنها في اعتقادهم أهم وسيلة للحصول على الغيث. وقد تروى مختلف القصص حول نزول المطر بمجرد الانتهاء من الوعدة ففي هذا تأكيد على ضرورة المحافظة عليها.

ولا يقتصر الأمر على هذه الوسيلة بل أن هناك طرق يستخدمها الناس تسبق إقامة الواعدات والزردات ومن ذلك أنه إذا لم تمطر السماء في بداية نيسان، يقوم الناس بالاستسقاء يخرج الطلبة والشباب جماعات جماعات، حفاة الأرجل بعد المغرب ويتوجهون إلى أضرحة أولياء المنطقة ويطلبون المطر معتمدين في ذلك على جاه هؤلاء الأولياء وما قدموهم من إصلاح في حياتهم وما يتسمون به من قداسة في نفوس الطالبين وفي هذه الأثناء تقوم العجائز باللعب بكرة من الكتان وتحملن ملعقة كبيرة مكسوة كدمية تتجولن بها في أزقة القرى وضواحيها. ويستأنس بتباشير رؤية نعجة سوداء التي تقاد إلى الوادي. ويرمى بأحد من أولاد سيد الشريف (الشيخ) في الماء ثم يرمي الناس بأنفسهم في الماء، ويقومون بذبح عجل أسود، خروفا أسود أو دجاجة سوداء قرب ضريح أحد الأولياء.

وفي أماكن أخرى تعلق السلاحف من أطرافها بغصن شجرة. وتترك وفي هذه الوضعية الغير المريحة إلى أن يشفق الله على هذه الحيوانات ويقرر إرسال الغيث[70].

ونجد القول المأثور في مقطع غنائي ينشده الأطفال حينما يطلبون المطر من نيسان:

النوء تبله، والريح يسله، يا رب تعطينا النوء

النوء يا مولايّ، صب على عزلتي، ما يا كلوا معزايّ

يا السبولة في الاغماد حن عليها يا جواد[71]

يا رخلة في الأوداح حن عليها يا فتاح

حينما تقل الأمطار في الأيام الأخيرة لشهر مارس عند قبيلة ايت سعدان ببطبوة، يجتمع الطلبة ويتوجهون إلى المسجد الرئيسي. ويتناولون وجبة العشاء. ثم يأتي بثور أسود بدون بقع، يأخذه الطلبة ويطوفون به حول المسجد ثلاث مرات كما يفعلون نفس الشيء في القرية فتخرج النساء من البيوت ويرشن الماء على الطلبة والثور. ويدوم هذا الوضع إلى الفجر ثم يعود الجميع إلى منازلهم قبل الافتراق يكتب الطلبة على لوحة يضعونها في الجزء الأعلى للمسجد. ويتركونها إلى أن تمحو الأمطار الكتابة، وقد تدوم شهرا، عشرة أيام أو يوما واحدا إلى أن يجود الله بالأمطار التي تزيل الكتابة عن الألواح عندئذ ترفع هذه الأخيرة[72].

وبالنسبة لبعض مناطق الأوراس كسكان وادي مريل، تنظم بعض الزردات على ضريح سيدي يحي (دوار القسور بلدية عين توتة) من أجل أن يتوسط الولي الصالح لدى الله للحصول على المطر. وعندما يستمر الجفاف، يقوم السكان بتغطيس معتوه في المغسل العمومي والذي تكون حالته حسبهم، مرحلة من المراحل التي تؤدي إلى القداسة وفي المناعة، تقوم الفتيات بصنع دمى بواسطة ملعقات خشبية تمثل القسم المجوف الرأس، وتزور كل البيوت مرددات الدعاء التالي: " ربنا راحنا عطشانين، أعطنا الماء، وفي نفس الوقت يقمن بجمع العطايا، الفواكه، الخبز...إلخ والتي يشتركن في كلها[73]

الحجرة وتهرب. وحينما تتيقن المرأة من السرقة، تخرج وتصيح في البنات: " ليعطكم الله مطرا كثيرا حتى تجدن أين تضعنه ! "[75].

يحمل الحجرة بعد ذلك إلى كومة السماد الحيواني أين يدفن من طرف البنات. بعد هذه العملية، تجوب البنات القرية طالبات القمح، ثم يطحنه ويصنعن الكسكسي ويدعون المارين للأكل. ويعد هذا قربانا من أجل أن يجود الله بالأمطار وهذه العادة هي ما يسمى بـــ (النارونجة).[76]

يتأثر المنتوج بسبب نقص الأمطار، فعنصر الجفاف، الحرارة، العقم، قد تغلب على عنصر الرطوبة، الماء، الخصوبة. تظهر العناصر الأولى في الاحتفال بواسطة الأرملة (العقم) وحجر المسكن (الذي يذكر النار، الحرارة)، العناصر الأخرى بواسطة الفتيات (خصوبة المستقبل) وكومة السماد الحيواني (الخصوبة)، إن الصراع بين العناصر الخيرة والعناصر الشريرة يتجسد من خلال سرقة الحجر. فانتصار الأولى تضمن عن طريق نجاح السرقة ودفن الحجر في السماد. وتدل فكرة الصراع على الغضب وخيبة أمل الأرملة حينما تنتبه إلى السرقة، وتقوم بالدعاء على البنات (فاسم الرب، يحتمل أنه عوض هنا اسم ربوبية قديمة الذي يتحكم في المطر والذي تطلب منه أن يعاقب الغازيات بما يردن أن يحصلن عليه (أي نزول المطر).

القسم الثاني للاحتفال يجسد انتصار عنصر الخصوبة: حجر السكن والذي يعطى له اسم أحد أبطال أسطورة النائمين السبعة. فأثناء الاحتفال تجتمع الفتيات حول مكان دفن الحجر، وتقمن بخدش الوجه صائحات: لقد مات دردوش! من قتله؟ طنطا (المطر الغزير). ويعتبر دردوش ميتا ويدفن في السماد الخصيب. ويدل اسم دردوش على أن الموت ليس نهائيا. بل أن ما يبعث من جديد، يستطيع أن يعيش. غير أن الفتيات يبكين ويمزقن الوجه أثناء الدفن. وهذا من أجل النطق بالاسم العجيب للمطر الغزير طنطا التي يحملها موت دردوش وهذا ما يشكل دعاءا مباشرا.

لقد أشرنا إلى هذه العادات والمراسيم أثناء دراستنا لمعتقدات البربر وقد قاومت هذه المعتقدات المسيحية والإسلام ولا زالت تمارس من طرف الكثير من سكان الجزائر. وفيها يسير موكب بعروسة تمثل عروسا، أو " تسليت " كما يقول البربر. وأحيانا تتضمن المراسيم عريسا أو عريسها على هيئة تمثال لزيادة تمثيل الزفاف. وهذه شعيرة قديمة تقوم على السحر العاطف. ولهذا فإن هذا الطقس يحمل الأرض على القيام بالاقتران من المطر. ويزداد الطقس وضوحا حين يكون مصحوبا برش الماء.(77)

ج- أصول التصوف في الجزائر.

يرجع أصل التصوف في الجزائر إلى ما قدمه رواده الأوائل كأبي مدين (1146م-1197م) ومحي الدين بن العربي (ولد سنة 561هـ - 1165م) وأبي الحسن الشاذلي خلال القرن السادس الهجري ثم انتقل إلى التصوف الجماعي أو بعبارة أخرى انتقل التصوف من إطاره الفكري إلى الإطار الشعبي الطرقي. وقد تم ذلك في القرن التاسع الهجري. وقد استطاع هؤلاء المتصوفة تكوين أساتذة في علوم التصوف، قاموا فيما بعد بنشرها في المدن أولا وشيئا فشيئا (ابتداء من القرن السابع الهجري) نقل تلامذتهم التصوف إلى الأرياف وأنشأوا زوايا للتعاليم الصوفية. وبفتح باب التصوف لأهل الريف والعامة ساعدوا مرارا كثيرة على نشر الإسلام وإعادة نشره في الأرياف، وبهذا مهدوا السبيل للحركة الصوفية الكبيرة الشعبية التي ستنتشر ابتدءا من القرن الخامس عشر الميلادي مع الطرق الدينية من الغرب إلى الشرق وتبعا لهذا انتشر التصوف بين الفئات الواسعة في المجتمع ولا سيما في المجتمع الريفي حيث " أصبح مجموعة من المعطيات الملموسة يمثل ولي الله " محورها الأساسي والزاوية فضائها الأول والطقوس وسائل معانيها الدينيةولأن هذه الطقوس لم تقننها النصوص، بل جاءت خارجة وموازية للطقوس الإسلامية المعروفة فإن هناك من يرى في عبادة الأولياء بشمال إفريقيا تواصلا لبعض الاعتقادات ولبعض الطقوس البربرية القديمة(80) وقد لجأ سكان الجزائر القدماء إلى تقديم القرابين لإبعاد الأرواح الشريرة التي كانت حسب اعتقادهم تسكن الجبال والينابيع وغيرها وإلى عبادات الصخور والأنهار والأشجار

والحيوانات. وكان البربري يحاول إرغام قوى الشر على تحقيق أمانيه بطقوس مناسبة وعبادة مواتية، وذلك لاستجلاب أفضال الأرواح الخيرة[81].

لقد برزت هذه المعتقدات والطقوس الوثنية من جديد من خلال عبادة الأولياء واتخاذهم كوسطاء يلتمس منهم حل المشاكل. وفي هذا الصدد يقول BASTIDE باستيد: " يلتمس الناس مساعدة هؤلاء (الأولياء) وأنهم لا يقسمون غالبا إلا بهم. ولسوف يؤدي هذا الإيمان بمقدراتهم بسلطتهم إلى استخدامهم كوسطاء حينما يتوجه الناس نحو الله، كما لو أن احتمالات استجابة الرغبة الملتمسة من الله باسم الأولياء هي أكبر منها باسم الشخص الذي يلتمسها[82].

وتقديس الأولياء وزيارتهم نتج بفعل اعتبارهم من قبل التدين الشعبي كحاملي البركة وكوسطاء شرعيين مع الله سبحانه وتعالى مما أدى بفئات الشعب إلى محاولة تخليدهم عن طريق بناء القبب وزيارة أضرحتهم وإطلاق العبارات التعزيمية المرافقة لها.

يقدس الناس أضرحة أجدادهم ويعتقدون في إصلاحهم وينسبون إليهم الضر والنفع. وإذا أرادوا حاجة التجأوا إليهم لحلها. ويظنون أنهم أحياء في قبورهم يستمعون إليهم ويقضون حاجاتهم. وإذا حدث خلاف بين بطون القبيلة أقبلوا إلى الضريح يتلاومون.

وقد يجتمعون في مواسم معينة للاحتفال بصاحب الضريح الذي تظل روحه حسب اعتقادهم تنتقل بكل حرية في كل مكان. ولقضاء حاجة فعلى الطالب أن يستنجد باسمه ليتم له ما أراد وهذا الفعل كثيرا ما يلجأ إليه الناس أثناء وقوع المصائب والكوارث فيستنجدون بالولي الصالح سلطان الأولياء وسلطان البر والبحر عبد القادر الجيلاني. وقد أضحى هذا الاعتقاد راسخا في نفوس الكثير من الناس، تتوارثه الأجيال جيل عن جيل يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية. يؤثر فيهم فيصبحون مدافعين عنه بمختلف الطرق والوسائل. وتصبح خشيتهم من هؤلاء الأولياء عظيمة حتى وصل بهم الاعتقاد في أن الولي هو الذي ينفع ويضر وينتقم. ويستطيع أن يطلع على سرائرهم ولذلك لا يقولون فيهم إلا خيرا. وقد

يمتقع وجه الشخص ويخاف إذا حاول شخص آخر تقديم شكوى ضده عند شيخ الزاوية. في حين أن روعه يكون أخف إذا اشتكى به إلى جهة أخرى.

4- أثر الوثنية في الطقوس الشعبية:

- الطقس المفهوم والوظيفة في المجتمع:

إن كلمة طقس هي عبارة تعني عادات وتقاليد مجتمع معين كما تعني كل أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي. يميل الطقس أساسا من خلال تكراره واستدامة القواعد التي تثبته إلى تكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده. فهو استنادا إلى ذلك إعادة خلق وتحيين لماضي، لكنه يأخذ معناه عند الذين يستخدمونه على أنه فعل ديني.[83]

يفرز الدين طقوسه الخاصة به ويستخدمها لأهداف تذكارية تحمل مدلولات دينية مقدسة، وهي طقوس تقليدية (دينية) وبدعية (شبه دينية). وتتمثل الأولى في الطقوس المشتركة كالزواج والختان وعيد الأضحى وهي تنبع من الدين الإسلامي، الذي يحدد ضوابط لممارستها كالتشديد على التقشف وعدم التبذير بالإضافة إلى ضرورة احترام تعاليم الدين. في حين يلجأ الأفراد إلى الإسراف والتبذير والمنافسة والتفاخر مما يجعل هذه الطقوس تقترب من الطقوس البدعية بفعل الانحراف الذي يقع فيه على مستوى الممارسة ويجعلها تبتعد عن الطقوس التقليدية. ولهذا السبب تتم إدانتها بشدة وهي أمور ينكرها الدين الإسلامي ومن هذه الطقوس عبادة الأولياء. فإذا كان الله يتربع على قمة القدسية فلا يمكنه بالتالي أن يتساوى مع قدرات موازية وخصوصا إذا كانت ثانوية[84] وبذلك ترتكز البدعة على السلوكات الدينية المنحرفة أثناء الممارسة وهذا يعني عدم مطابقتها للتقاليد السنية.

وغالبا وما تصاحب الاحتفالات طقوس خاصة تتوافق مع كل حفل وفقا للممارسة الشعبية. وفي هذا الصدد يقول روس: " الاحتفال هو الرابطة التي تجمع شتات الجماهير، وإذا انحلت هذه الرابطة ، تفرقت الجماهير وصارت أمورها مضطربة[85] وقد اعتاد الناس منذ القديم إقامة الولائم والاحتفالات في مختلف المناسبات وتواترت عبر الأجيال وقد مست

مختلف مجالات الحياة واعتمدت على طقوس مميزة. وفي هذا المجال يمكن الإشارة إلى الطقوس الخاصة بالوفاة حيث تقوم العائلة أو جيرانها في اليوم الأول للوفاة بإعداد الطعام للناس صدقة على روح المتوفي وللترحم عليها إتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال: " اصنعوا لآل جعفر طعاما، فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم "[86] وقد يصاحب هذه الوفاة نياحة النساء على الميت كما يعمد إلى تلاوة القرآن الكريم من قبل حفظته في بيت الميت وفي المقبرة وأثناء الدفن وبالمقابل فإن للولادة طقوسها، فعندما يولد المولود يقيم الأب وليمة في يوم سابعه، يذبح عنه شاة عن الذكر والأنثى، يعطي للقابلة ربعها ويقطع باقيها أعضاء ويطعم الجيران[87] وهذا مقابل العقيقة وهي الذبيحة التي تذبح عند المولود في يوم سابعه. وهي سنة مؤكدة فعلها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه حيث قال: "كل مولود يولد رهينة بعقيقته، تذبح عنه يوم سابعه ويحلق ويسمى "[88]وعن سلمان بن عامر الضبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مع الغلام عقيقته، فاهرقوا عليه دما وأميطوا عنه الأذى"[89].

وللزواج طقوسه الخاصة به حيث تشتمل على طقوس خاصة بالخطبة وليلة الحناء وإقامة الاحتفالات يوم العرس مع كل ما يتخلل ذلك من احتفالات للأفراح وصنع الطعام للوافدين وقد تختلف الوسائل المستعملة باختلاف القدرة المادية للعريس إذ أن هناك بعض العائلات تكتفي باليسير في حين أن العائلات الميسورة قد تطنب في التبذير والإسراف بما يتوافق مع مستواها الاجتماعي وقدرتها المالية.

وإلى جانب هذه الاحتفالات التي ذكرنا يمكن إضافة الاحتفالات الخاصة بالنذر (الوعدة) الذي كان الناس يقيمون لذلك وليمة تقدم للفقراء أو وقفا لمسجد، أو صدقة على روح الولي الصالح. وقد تقدم بعض هذه الوعدات للربط المنتشرة في أنحاء البلاد، وكانت عادة الناس في هذه الولائم ضرب البوق والكير، طبل أو دف وفي بعض الأحيان تقدم المشروبات[90].

نخلص إلى القول أن الجزائر تعرضت إلى الغزو الخارجي منذ التاريخ القديم ابتدءا من الفينيقيين مرورا بالرومان والوندال والبيزنطيين وانتهاءا بالفتح العربي الإسلامي. وقد تركت هذه الغزوات آثارها على تقاليد وعادات الشعب الجزائري وعلى تراثه بصفة عامة.

ولقد أشرنا إلى هذا التأثير الذي مارسه الرومان والعرب القادمون من شبه الجزيرة العربية على معتقدات البربر الأصلية لتشكل تراثا مشتركا لهم تحول مع مر الزمن إلى بقايا معتقدات صمدت أمام الديانة التوحيدية: اليهودية والمسيحية والإسلام لتبرز من جديد مع الطرق الصوفية ومع عبادة الأولياء.

إن المعتقدات والطقوس المصاحبة لها لا زالت تحمل رواسب ثقافية قديمة صاحبت المجتمع عبر مراحل تطوره المختلفة. ورغم أن هذه الموروثات فقدت وظيفتها المستمدة في المجتمع الزراعي إلا أنها تمكنت من البقاء والاستمرار بفضل ما قدمته من إيجابيات لقوى اجتماعية تؤمن بجدوى استمرارها. وينطبق الأمر على ظاهرة الوعدة التي يقوم الناس بها إكراما للولي. وبهذا تشكل نوعا من بقايا الوثنية كما يؤكد نور الدين طوالبي: " أن سير أحداث الوعدة بلا ريب بدعي فهو إذن باستعادته لنظام شركي كوني، يشكل تجديدا للوثنية القديمة، ورغم ذكر الله بصورة صدفوية، فإن التوجه يكون لمعبد مأهول بالجن في منظور الممارسات الوجودية"[91].

وعلى الرغم من التطور الاقتصادي وانتشار الثقافة وانحصار الأمية، فإن هذه الظاهرة لا زالت منتشرة ولو أنها لا تأخذ نفس القيمة التي كانت تتسم بها سابقا إلا أنها لا زالت تقام كل سنة مستقطبة آلاف الزوار الذين يحنون إلى عيش هذه الظاهرة نتيجة للترسبات الثقافية الماضية.

ولا يقتصر الأمر على الجزائر بل يمتد إلى دول المغرب العربي وهذا ما يحفزنا إلى دراسة هذه الظاهرة بإتباع التسلسل المنهجي للسياق التاريخي الذي أفرز الظاهرة موضوع الدراسة مع محاولة الكشف عن العوامل المؤثرة فيها لنصل إلى استجلاء الأمر الذي يمكننا من سبر أغوار هذه الظاهرة التي تنتسب إلى التراث الشعبي الجزائري.

الهـــــوامش

1. ALFRED BEL : " L'islam Mystique " R.A N° 69 ANNEE 1928. Alger OPU 1986 P 85.
2. بن أحمد أحمد: " **ظاهرة الوعدة، تطورها وخصائصها الاجتماعية والثقافية وعدة سيدي يحي بصبرة نموذجا.** " رسالة ماجستير. معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1996، 1997.
3. عبد الباسط محمد حسن: " **أصول البحث الاجتماعي** " مكتبة وهبه 1976، ص 153.
4. فوزية دياب: " القيم والعادات الاجتماعية مع بحث ميداني " بيروت: دار النهضة العربية 1978، ص 83.
5. أحمد بن نعمان: " **العلاقة الوظيفية بين الدين الإسلامي واللغة العربية** "، مجلة الثقافة، العدد (45) – يونيو – 1978، ص 83.
6. يوسف الحوراني: " **الإنسان والحضارة مدخل ودراسة** "، الطبعة الثانية بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1973، ص 42.
7. المرجع نقسه، ص 34.
8. المرجع نفسه، ص 75.
9. مبارك بن محمد الميلي: " **رسالة الشرك ومظاهره** " قسنطينة، دار البعث للطباعة والنشر 1982، ص 69.
10. فوزية دياب: مرجع سابق، ص 182.
11. مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق ص 86.
12. المرجع نفسه، ص 240.
13. المرجع نفسه، ص 230.
14. المرجع نفسه، ص 87.

15. مبارك بن محمد الميلي: " **تاريخ الجزائر القديم والحديث** " الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص 197.
16. المرجع نفسه، ص 249.
17. يوسف الحوراني، مرجع سابق ص 49.
18. مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق ص 75.
19. المرجع نفسه، نفس الصفحة.
20. نفس المرجع، ص 76.
21. نفس المرجع، ص 122.
22. نفس المرجع، نفس الصفحة.
23. ألفرد بل: " **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم** " ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1981، ص 60.
24. رشيد الناضوري: " **المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي لجنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا** " الكتاب الثالث: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت، دار النهضة العربية، ص 160.
25. ألفرد بل، مرجع سابق، ص 62.
26. نفس المرجع، نفس الصفحة.
27. نفس المرجع، نفس الصفحة.
28. نفس المرجع، ص 65.
29. رشيد الناضوري، مرجع سابق، ص 161.
30. ألفرد بل، مرجع سابق، ص 56.
31. مبارك بن محمد الميلي: " **تاريخ الجزائر القديم والحديث** " ، ص 123.
32. ألفرد بل، مرجع سابق، ص 56.
33. نفس المرجع، ص 57.
34. فوزية دياب: مرجع سابق، ص 27.
35. نفس المرجع، ص 123.

36. المقصود بذلك هو الأديان القديمة التي كانت تعتقد بوجود روح محركة لكل القوى الطبيعية.

37. نور الدين طوالبي: " **الدين والطقوس والتغيرات.** (ترجمة " وجيه البعيني) بيروت: منشورات عويدات، 1988، ص 39.

38. أحمد الخشاب: " **التغير الاجتماعي** " الهيئة المصرية للتأليف والنشر 1971، ص 68 .

39. مبارك بن محمد الميلي: " **تاريخ الجزائر القديم والحديث** " ، ص 122.

40. فوزية دياب: " مرجع سابق، ص 165.

41. نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 39.

42. نفس المرجع، ص 51.

43. نفس المرجع، ص 52.

44. HENRI LHOTE: " LES TOUAREGS DU HOGGAR "Armand Colin– Collection, CIVILISATIONS p 204

45. IBID P 204

46. مبارك بن محمد الميلي: " **رسالة الشرك ومظاهره** " ص 76.

47. HENRI LHOTE: OPCIT P 205

48. مبارك بن محمد الميلي المرجع السابق ذكره، ص 237.

49. نفس المرجع، ص 238.

50. نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 128.

51. EDMOND, DESTAINE "Fêtes et coutumes saisonnières chez les Beni- Senous"R,A 1906 P 249

52. IDEM P 250

53. IBID P 250

54. IBID P 253

55. نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 93.

56. نفس المرجع نفس الصفحة.

57. H.J ARRIPE "ESSAI SUR LE FOLKLORE DE LA COMMUNE MIXTE DE L'AURES " R.A N° 55 ANNEE 1911 P 464

58. ألفرد بل، مرجع سابق، ص 66.

59. H.J ARRIPE OPCIT P 464.

60. EDMOND DESTAING. OPCIT P 367.

61. IBID P 367

62. H.J ARRIPE OPCIT P 465.

63. EDMOND DESTAING. OPCIT P 249.

64. رويت هذه الواقعة من قبل إمرأة مسنة توفيت في سنة 1976.

65. يرى ديبارنيه في العين الشريرة إحدى بقايا التقاليد الوثنية التي أدخلها القرطاجيون والرومان إلى المغرب حسب نور الدين طوالبي في مرجعه السابق، ص 96.

66. محمد السويدي، " **محاضرات في الثقافة والمجتمع** "، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1985، ص 161.

67. نفس المرجع نفس الصفحة.

68. نفس المرجع، ص 162.

69. حلمي عبد القادر علي: " **جغرافية الجزائر، طبيعية، بشرية، اقتصادية** " الطبعة الثانية دمشق: مطبعة الإنشاء، 1968، ص 24.

70. EDMOND DESTAING. OPCIT P 254.

71. IBID P 245

72. BIARNAY " Etude sur les BETTIOUA du vieil Arzew " R.A N°55 ANNEE 1911 P214.

73. H.J ARRIPE OPCIT P 462

74. لخضيري نجاة: " **انزار و بوغنجة** " جريدة الخبر عدد 1355 بتاريخ 16.04.1995

75. BIARNAY OPCIT P 211

76. التارونجة وهي ملعقة كبيرة تستعمل من قبل قبيلة آيت سعدان بمنطقة بطيوة ضمن طقس الاستسقاء، نفس المرجع، ص 210.

77. ألفرد بل، مرجع سابق، ص 62.

78. نفس المرجع، ص 393.

79. لطيفة الأخضر: " **الإسلام الطرقي** " دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، تونس، سراس للنشر، ص 20.

80. DOUTTE E : " Notes sur l'islam Maghrébin Les Marabouts " Revue de l'histoire des régions – Paris 1900 P P 10.11

81. ألفرد بل، مرجع سابق، ص 60.

82. نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 143.

83. نفس المرجع، ص 34.

84. نفس المرجع، ص 96.

85. فوزية دياب: مرجع سابق، ص 183.

86. السيد سابق: " **فقه السنة** " المجلد الأول، ص 508.

87. جودت عبد الكريم يوسف: " **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (10/09م)**" الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 319.

88. السيد سابق، مرجع سابق، ص 327.

89. نفس المرجع نفس الصفحة.

90. جودت عبد الكريم يوسف، مرجع سابق، ص 320.

الفصل الثاني:

الوحدة المفهوم والخصائص المشتركة

- الوحدة، لغة واصطلاحا

[أ] الوحدة والتراث الشعبي

[ب] المعتقدات والمعارف الشعبية

[ج] العادات والتقاليد الشعبية

[د] الثقافة المادية والفنون الشعبية

[ه] الفنون الشعبية

[و] الموضوعات الرئيسية للفنون الشعبية

- دور ومكانة الوحدة في المجتمع الجزائري

الفصل الثاني:

الوعدة المفهوم والخصائص المشتركة

- الوعدة في الغرب الجزائري

[أ] الوعدة في المنطقة الغربية الشمالية

[ب] الوعدة في المنطقة الغربية الجنوبية

- الخصائص المشتركة للوعدة

[ج] حولية الاحتفالات

[د] ارتباط الطقس بالأولياء الصالحين

[ه] الاحتفال بالولي

[و] الفنون الشعبية كقاسم مشترك

[ز] الطابع التراثي للوعدة

[ح] الدعاء عند اختتام الاحتفالات

- الوعدة، لغة واصطلاحا

تشتق كلمة وعدة من فعل وعد، أي تعهد بالشيء ما، أخذ على عاتقه تطبيق شيء ما، وهي بمعنى النذر، أي ينذر الرجل نفسه صوم يوم أو ذبح شاة، إذا تحقق له شيء ما أو أن يأخذ المؤمن على عاتقه أمام خالقه تنفيذ وعده إذا تحققت إحدى أمنياته. فقد تعهد بإطعام عدد من المحتاجين إذا وضعت زوجته ولدا. فإذا تم ما أراد يكون لزاما عليه احترام تعهده تحت عاقبة الكفارة.[1]

والنذر مصدر نذر الشيء ينذره ومعناه إيجاب الشيء على النفس مطلقا وقيل بشرط. وكذا أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث شيء ما. ونذر على نفسه، ونذر ماله ونذر لله سبحانه وتعالى كذا، أو النذر ما كان وعدا على شرط. فعلي أن شفى الله مريضي كذا نذرا.

والمعنى الثاني للنذر يسميه المحدثون نذر المجازاة وتسميه العامة " الوعدة ".

والنذر في اصطلاح الفقهاء التزام مسلم مكلف قربة. وقيل ما يوجبه المسلم على نفسه من صدقة أو عبادة أو نحوهما[2] وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من نذر يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه "[3]. وعلى هذا فإن النذر إذا كان معصية من المعاصي أو عملا من أعمال المشركين التي تنافي الإسلام، فإنه يعتبر حراما ولا يحل الوفاء به.

إن النذر المشروع لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى وأن المقبول منه ما لم يكن معلقا على حصول غرض دنيوي. فإذا كان النذر لمخلوق من ولي أو شيخ صالح فهو شرك بالله في هذه العبادة. يحرم الإقدام عليه والوفاء به لقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا نذر إلا فيما ابتغى به وجه الله ".[4]

وفي هذا الشأن يقول الصنعاني في " سبل السلام ": " وأما النذر المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات فلا كلام في تحريمها لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر أنه ينفع ويضر، ويجلب الخير ويدفع الشر ويعافي الأليم ويشفي السقيم. وهذا هو الذي كان يفعله عباد الأصنام بعينه فيحرم كما يحرم النذر على الوثن. ويجب النهي عنه وإبانه أنه

من أعظم المحرمات الذي كان يفعله عباد الأصنام، لكن طال الأمر حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروف وصارت تعقد اللواءات لقباض النذور على الأموات ويجعل للقادمين إلى محل الميت الضيافات وينحر في بابه النحائر من الأنعام. وهذا بعينه الذي كان عليه عباد الأصنام ".[5]

لقد غيرت الممارسة الشعبية من مفهوم النذر بحيث أصبح الناس ينذرون النذر لمن يعتقدون فيه من الأموات والأحياء والمزارات، الأموال والثياب، الحيوانات والأطعمة ويعتقدون أن نذرهم يقربهم من رضى المنذور، فإن حصل غرضهم، ازدادوا تعلقا بمن نذروا له، واشتدت خشيتهم منه[6] كما يرون بأن للأماكن التي تنجز فيها النذور خصوصيات قلما تتوفر في غيرها بحيث أن لهذه المواقع خاصية دفع البلاء واستجلاب النعمة والاستشفاء من الأمراض. وقد يتقربون بالذبائح لبعض الأحجار إذا قيل لهم أن عبدا صالحا قد استند إليها. ويقدمون لبعض الأضرحة الشموع والزيت والنقود ويعلقون الخرق على بعض الأشجار المجاورة له. وتبعا لهذا فإنهم يتفاءلون ببعض القبور بقولهم إن القبر الفلاني يقبل النذور أي يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض أو قدوم غائب أو سلامة مال أو غير ذلك من الأغراض. وهم يعتقدون أن الأولياء الصالحين أحياء في قبورهم يتصرفون في هذا العالم ويقضون حاجات قاصديهم. حتى ليجد المرء من يتوسل إلى صاحب القبر من أجل قضاء حاجته أو إنصافه من ظالمه. ولهذا تشد الرحال إلى هذا المكان. وقد يلجأون إلى تشييد البناءات واتخاذ المزارات ويرون أن روح الصالح هناك تستجيب للدعاء، أما لأنه دفن هنالك أو جلس به. ومن هذا التبرك الاستمدادي تقبيل الجدران والتسمح بالحيطان وكل ما يضاف إلى ذلك المكان.[7]

ويشتد الاعتقاد في الولي في أوقات الكوارث الطبيعية كالجفاف وغيره من أجل رفع البلاء وإغاثة الناس. لذلك تقدم القرابين، وهي تلك الذبائح من الأغنام أو الماعز التي تذبح قرب الضريح وتولم الوليمة وتقدم الأطعمة إلى الوافدين إلى الوعدة. وإذا حدث وأن نزل المطر إثرها، نسبوه إلى سر المذبوح له، وقوي اعتقادهم فيه وتعويلهم عليه، وإذا لم يتم ذلك، أصيبو بنكسة وقالوا أن وليهم غضب عليهم لتقصيرهم في جانبه.[8]

لا يتوافق الطقس البدعي المتمثل في الوعدة مع الحيثيات الدينية التي تقتضي كما أسلفنا أن يكون الذبح وتقديم الحيوان لوجه الله. بل أن الدين الرسمي يعتبر تقديم الذبائح للوسيط مهما تكن رتبته الدينية حراما وكفرا وشركا ويعتبر لحم الضحية المذبوحة محرما في حال وجوده.

وهناك مؤشرات تتدخل لتنـــزع عن الوعدة السمة الدينية ومنها:

تتجدد الاحتفالات على فترات منتظمة وتتخذ مظاهر شعائر حقيقية تترأسها عائلات ميسورة تكون المنظمة لهذه الطقوس، تحظى في سلم المراتب الاجتماعية باسم تتفاوت أهميته، إذ تبدو هذه العائلات في نظر الجميع حائزة على قدرة روحية تتعدى حدود العامة، ومن جهة أخرى ملتمسو هذه الطقوس الذين يجتمعون من كل الطبقات الاجتماعية والذين يقدمون للعائلات المنظمة كامل الولاء والطاعة ومن هنا يظهر نوع من التراتبية وتوزيع المهام داخل هذه الجماعات.

يشكل سير أحداث الوعدة تجديدا للوثنية القديمة. ورغم ذكر الله بصورة صدفوية فإن التوجه يكون لغير الله.

إن طلب المعونات ليس هو الذي يوجه دائما الشعائر. بل أن الوعدة تتجدد في فترات منظمة دون أن يؤدي إليها أي طلب موضوعي. فالناس يعرفون تاريخها الثابت، ومن عادتهم أن يرجعوا إليه إيمانا أو تبعا للحاجة.

– النشرة:

النشرة في كلام العرب من النشر بمعنى التفريق وهي تعويذ ورقية يعالج بها المريض المجنون، تقول نشرت المريض إذا قرأت عليه كلمات أو كتبتها له ليعلقها تميمة أو ليمحوها ويشربها ويدهن بها. ونشرت تنشيرا إذا رقيته كأنك تفرق عنه العلة.[9]

ويشتق أصل الكلمة في العربية كذلك من فعل نشر أي أشاع، أذاع. وهي تكثر ممارستها في قسنطينة. تنحصر وظيفتها في كونها طبية – سحرية. فهي معدة لشفاء الأمراض المتنوعة إضافة إلى العقم، العجز الجنسي، الامتلاك.[10]

وقد تكون مشروعة في نظر الدين إذا كانت بدعوات مشروعة وتكون حينذاك عن طريق الرقية. وغير مشروعة إذا استخدمت فيها وسائل أخرى كالسحر لمحاربة العين الشريرة، أو استخدام التمائم وتعليقها في الأعناق.

والنشرة في نظر العامة طعام يتخذ على ذبيحة من الدجاج غالبا تقربا إلى الجن كي يرفعوا داءهم عن المصاب فمن أصابه مس من الجن ينقل إلى قبة من القباب، وتقوم النسوة بذبح ديك أسود ويبيت المريض بجانب القبر ليشفى من المرض.

– الزردة:

عبارة بربرية، تستعمل في شرق البلاد وجنوبها للدلالة على نوعية الفعل في التعييد الذي يلي حدثا سعيدا: ولادة، نجاح مهني، شفاء، عودة من الحج...إلخ ويتم أحيانا استبدال عبارة زردة بعبارة الوعدة للدلالة على نفس الشيء. والزردة في العرف العام طعام يتخذ من بهيمة الأنعام عند مزارات من يعتقد صلاحهم. ولها وقتان، أحدهما في فصل الخريف عند الاستعداد للحرث والآخر في فصل الربيع عند رجاء الغلة. والغرض منها التقرب من ذلك الصالح كي يغيثهم بالأمطار تسهيلا للحرث أو حفاظا للغلة[11] وغالبا ما تضاف الزردة إلى صاحب كالمزار فيقول الناس مثلا زردة سيدي عبد القادر كما أنها تتم دائما عند قبره ونادرا ما يقبلون مكانا آخر. وتأخذ الزردة بالنسبة للقبيلة قيمة دينية لأن الناس يتصورونها على أنها إكراما لولي. كما أنها تؤكد إقامة حج طقسي مرة أو مرتين كل عام للولي. وخلاله تقوم العائلات بزيارة الضريح والتبرك به. وتلي العبادة الانتقال الوراثي عبر الأجيال لإحدى العائلات، وتتجدد بصورة منتظمة مظهرة وجود البركة التي يعتقد كل واحد أنه ممسك بها. وفي هذه الحال تقع تكاليف الاحتفالات على عاتق الجميع بالتضامن. وهذه الظاهرة لا تنفصل عن أي سلوك ديني حيث نجد أن هناك نوعا من التوافقية بين الطقوس البدعية والتقليدية في التقاليد والعادات الشعبية وهي لا تنتهك المعتقد الديني حسب مريديها وترى أي شيء طبيعي أكثر من عبادة هذا الولي الذي جعله تدينه وسيطهم مع الله، في التمثلات الشعبية. وغالبا مما يرتكز هذا التجانس في الأرياف على الطلاب لأنهم مسؤولون عن قيادة التدين الشعبي ولأن مفهوم القداسة في نظرهم مرتبط بالتدين والمعرفة الدينية. مما يجعلهم

يتغاضون عن الانحرافات الدينية التي تخدم مصالحهم. إن عبادة الأولياء وإقامة الولائم على الأضرحة التي يمنعها الدين الرسمي هي أساسا من اختلاق المرابطين أي تلك الهيئة الدينية المكلفة بالإشراف على الدين في الأرياف.

بعد الدراسة التي قام بها عبد الوهاب الشارني للولي الصالح سيدي رابح وسيدي اعمر بن زغيد بالكاف[12] بتونس حول " الزردة " أو الحفل المحلي يحدد مفهومها " كممارسة اجتماعية تتوفر فيها كل خصائص الحفل المختلفة، كالمشاركة الجماعية، والغليان الاجتماعي وتحرر الإنسان من اليومي والعادي كما أنها خرق للقواعد التي تنظم الحياة الاجتماعية وهي عبارة عن ثنائيات: الديني والدنيوي، الجسدي والروحي، العجيب والعادي. وهي ممارسة شعائرية تندرج ضمن نظام طقوسي متعدد المظاهر وهي ترتبط في المخيال الشعبي بالوعدة والزيارة طقسان محليان يتمان لصالح الأولياء ويشدان الجماعة لرمز مؤسس وتهمان الوسطين الريفي وسكان المدن والحواضر وتتجاوز الممارسة الجماعية لهذين الطقسين المعايير الطبقية والتعليمية والسياسية.

– ممارسة الزردة:

تهدف إلى ممارسة رقابة جماعية من أجل التحكم في الجماعة عن طريق:

الشخصية الروحية – الدموية للمؤسس وخصاله كالتضحية والورع وحب الناس والتقوى ونصرة المظلوم.

المكان المقدس للممارسة الحفل: مكان مقدس ومكان دنيوي.

زمن معين: أواسط الخريف أو في بدايته استعدادا للموسم الفلاحي، واحتفالا بانقضاء موسم الحصاد أو في أواخر الربيع يعبر عن استعداد لجني المحصول في الصيف وهو زمن اجتماعي.

الأضحية: الأضحية الجماعية (الثور مثلا) بالنسبة للعائلة أضاحي أخرى (كبش، خروف، جدي).

المرح الجماعي: ممارسة الألعاب الجماعية والفردية كالفروسية والرقص والغناء.

هذه العناصر الخمسة تتظافر لما أسماه دوركايم بإيقاظ حالة روحية لدى المحتفلين، وتجديد علاقة الجماعة بالجد المؤسس.

استلهام المعنى والقوة والمبرر من هذا النموذج تؤسسه الشخصية الروحية لتمارسه على حاضر الجماعة القائمة، ومن هنا اعتزازها بالزردة ووجود ممارستها.

وتهدف الممارسة الجماعية للحفل إلى تجديد التلاحم الجماعي وتأكيده وممارسة الرقابة الجماعية على نفسها خوفا من التشتت والاندثار تحت إيقاع الحياة الاجتماعية السريع والاندثار تحت إيقاع الحياة الاجتماعية السريع والتهديمي.[13]

ومن الجدير الإشارة إلى الاختلاف الذي يبرزه نور الدين طوالبي بين هذه المصطلحات الثلاثة على ثلاثة مستويات من حيث الاحتفالات في المدينة والريف.[14]

أ- على مستوى التسمية، لأن الوعدة والنشرة يتمان في التجمعات المدينية الكبرى — الوعدة في الجزائر العاصمة، والنشرة في قسنطينة علما أن الزردة من خصوصيات الأرياف. ويمكن إضافة الغرب الجزائري، الذي يطلق على الاحتفالات التي تقام على الأضرحة اسم " الوعدة " كما تختص " الزردة " بالشرق والجنوب الجزائري وهي مرادفة للوعدة كما أسلفنا.

ب- على مستوى الممارسة، إذ تتبع الأوليتان غائية مباشرة (تطهير، شفاء، مراد...إلخ) بينما تخضع الأخيرة إلى التماس ديني بشكل واضح دون إهمال بعض المبادئ التطبيق العملي اليومي الذي تقترب بواسطته من الطقس الديني.

ج- على مستوى عملها، لأن الوسائل المستخدمة في المدن تعيد إبراز تلك التي تواكب الطقوس التقليدية فيها، بينما تستمر في الأرياف قاعدة البساطة التقليدية.

- الوعدة والتراث الشعبي

قبل أن نتطرق إلى موضوع الوعدة وعلاقته بالتراث الشعبي، يجدر بنا أن نلقي نظرة على مدلول التراث الشعبي أو الفولكلور الذي حدد مفهومه وليام جون تومز وربطه بالآثار القديمة. وفي مقدمة هذه الآثار المعتقدات الخرافية التي لا زال يتمسك بها إنسان القرن

العشرين. ويعدها موروثا قدمته له الحياة. ويتمثل في المرويات والمأثورة والحلم والأمثال والأساطير وسائر المدونات والنقوش والصور التي تكشف عن سلوك الفرد العادي بكل ما ينطوي عليه من دلالات على الماضي.(15)

وقد أطلق العلماء الألمان اسم الفولكلور على التراث الشعبي المنقول شفاهيا والمكون من العادات الشعبية والمعتقدات والموسيقى والرقص والأدب الشعبي بكل صنوفه. ويدخل ضمنه الأدب المنقول شفاهيا والمعتقدات الشعبية والعادات الثقافية المادية وبعض الأنماط من السلوك المتوارث مثل الفنون الشعبية. وهناك تعريف آخر للعالم الفرنسي هنري جايدو (HENRI GATDOZ) يقول فيه أن الفولكلور يعني: " بدراسة كل ما يتصل بالتراث الشفاهي من عادات وتقاليد وخرافات وأدب شعبي بهدف إرجاعه إلى كنهه الحقيقي.(16)

ومجمل القول أن هذه التعاريف للتراث الشعبي تختلف باختلاف نظرة كل عالم ومفهومه للعناصر المكونة له. ومن هذه العناصر نذكر البعض منها كما حددها الدكتور محمد الجوهري:

أ- المعتقدات والمعارف الشعبية:

تلك الأفكار التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي، وما وراء الطبيعة. وهذه المعتقدات قد تكون نابعة من نفوس أبناء الشعب ذاته عن طريق الكشف والإلهام أو أنها تكون معتقدات دينية، ثم تحولت إلى أشكال جديدة من الاعتقاد المغاير لما يحظى بالقبول الرسمي من رجال الدين. وتتميز المعتقدات الشعبية كما يقول محمد الجوهري بأنها " خبيئة في صدور الناس، وهي تلقن من الآخرين ولكنها تختمر في صدور أصحابها، وتشكل بصورة مبالغ فيها أو مخففة، يلعب فيها الخيال الفردي دوره ليعطيها طابعا خاصا، وهي ما تمكنها في أعماق النفس الإنسانية موجودة في كل مكان سواء عند الريفيين والحضر، وعند المثقفين كما عند الذين بلغوا مرتبة عالية من العلم والثقافة(17). ويتميز جميع أفراد الأمة أو الشعب في كونهم حملة الأشكال الثقافية التقليدية. وتختلف كثافة هذا العنصر أو ذاك من فئة إلى أخرى لكن لا يوجد إنسان بدونها على الإطلاق. وتتفاوت من شخص إلى آخر من حيث

العلاقة بمفردات التراث، فالمثقف قد تكون علاقته بالنكتة والنادرة أقوى علاقة بالحكاية الخرافية والأسطورة[18] كما أن أبناء الطبقات الراقية الذين يخضعون للثقافة الرسمية بدرجة أكبر في تسيير أمور حياتهم ليسوا مقطوعي الصلة بالتراث الشعبي لبيئاتهم المحلية. وإن كان هذا لا يعني أن تلك الثقافة الشعبية تسيطر على حياتهم وأساليب معاشهم خاصة في الأمور المادية للثقافة. ونحن هنا ننظر للإنسان ككائن ثقافي أو ندرسه في سلوكه كحامل للثقافة. ويبدو ذلك جليا عندما لا يستطيع أن يحرر ذاته من الثقافة التي ينتمي إليها. ولا أحد ينكر أنه لا يوجد إنسان يخضع خضوعا كاملا لسلطات العقل وبالمثل لا يوجد في ميدان الإحساسات والعواطف إنسان يعرف كيف يحافظ على ذاتيته الفردية المتميزة دون تأثير بمعايير السلوك الكثيرة المعقدة التي تنص عليها الثقافة المأثورة. ولا يستطيع أكثر الناس استقلالا الهروب من هذا التأثير أو تفاديه. لذا فمن الطبيعي أن تختلف شدة التراث من فئة لغيرها إذا المسألة مسألة شدة فقط.

ومما يدخل ضمن المعتقدات الأفكار والأحاسيس التي يكونها الناس إزاء الظواهر الطبيعة. كتصوراتهم على الزلازل والبرق والخسوف والشهب، والظواهر الطبيعية، كالأحلام والنوم والميلاد والموت، ورؤية المستقبل بكل أنواعها ووسائلها المختلفة. ويدخل في ذلك الاعتقاد في الأحجار والمياه والنباتات والحيوانات والأشكال والصور والكلمات والأعداد والتراتيل التي يسود الاعتقاد بشأن تأثيرها على تلك القوى فوق الطبيعة وإخضاعها لإرادة الإنسان.[19]

ب- العادات والتقاليد الشعبية:

تتميز بمجموعة من الخصائص:

أولا: الصفة الاجتماعية: أي تصدر عن تفاعل مجموعة من الأفراد.

ثانيا: الصفة الوراثية: أي تكون متوارثة أو مستندة إلى تراث يدعمها.

ثالثا: الصفة المعيارية: أي تتسم بطابع معياري بفرض الامتثال الجماعي لها مثل القوانين والأعراف وتمارس الضغط الجمعي المخالفين لها.

رابعا: الارتباط بالزمان والمكان: ترتبط بالظروف التي يعيشها المجتمع سواء من ناحية الزمان كفصول السنة والمواسم الزراعية والأعياد الوطنية أو من ناحية المكان كالأراضي المقدسة، وأضرحة الأولياء والقديسين التي تتطلب من الزائرين سلوكات معينة.(20)

ج- الثقافة المادية والفنون الشعبية:

تتعلق الثقافة المادية بالسلوك الشعبي المنظور وهي تشمل التقنيات والمهارات المتوارثة خلفا عن سلف فيما يخص الحرف اليدوية، والصناعات التقليدية ونمط الملبس والمأكل والمسكن وأدوات الصيد والقنص، وطريقة حفظ الغلال ودفن الأموات، وما إلى ذلك من الأشياء التي تتم صناعتها يدويا وبطريقة تقليدية متوارثة عبر الأجيال.(21)

د- الفنون الشعبية:

إن الفنون التقليدية تعني جميع أنواع وأشكال الفنون والصناعات والحرف، والأعمال التطبيقية والمهنية التي تمارس. وتشمل كذلك حاجات الإنسان من أدوات يبتكرها لتلبية ضرورياته المادية والروحية. وهي تستخدم كوسيلة من وسائل العيش وطريقة للتفكير والشعور. وهي فنون تترسب وتتراكم وتستلهم يوميا باعتبارها تستمد حضورها من عناصر اجتماعية واثنية وبيئية هامة. فهي التاريخ والثقافة الروحية المترسبة، والفنون المتجددة عبر الأجيال(22) والفنون الشعبية، هي فنون نابعة من المجتمع، وموضوعاتها لا تخرج عن احتياجات المجتمع وعن ظروفه وحياته. وهو أمر طبيعي إذا نظرنا إلى الفن كفن جماهيري يشترك فيه الجمهور بمختلف تطلعاته ومشاربه يجمعهم الارتباط العاطفي والروحي بالبيئة ومعطياتها. وهي فنون عملية تعكس الواقع الاجتماعي للمجتمعات الشعبية وترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة الاجتماعية التقليدية وسلوك الإنسان وقواعد عمليه. وترتبط كذلك بالتراث الحضاري والعادات والقيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية. أنها فنون محافظة تحاكي الأسلاف وتنقل التراث في كثير منه نقلا جامدا في غالبه دون تغيير أو تطوير إلا ما كان من تطور الرؤيا العامة للمجتمع نتيجة عوامل مؤثرة.(23)

ترتبط الفنون الشعبية بالمعتقدات والقيم والعادات المشتركة للمجتمع. ولذلك فإن تطورها يكون بطيئا، وتكون مجتمعاتها شديدة التمسك بقيمها وتراثها الذي ترى فيه السند القادر على تمكينها من التماسك والمحافظة على خصوصياتها الاجتماعية والثقافية في مواجهة عوامل التغير. ولذلك فإن أي بادرة للانفتاح تواجه بصرامة ولا سيما إذا تعلق الأمر بالمجتمعات الأمية الفقيرة لأنها تفتقد إلى عوامل التطور التي أساسها شيوع عوامل الرخاء الاقتصادي والانفتاح الاجتماعي والثقافي على مجتمعات أخرى في بلورة هذا التطور وفق الأصول الأولى، وإذا كانت المجتمعات الريفية تمثل هذا النوع من المجتمعات من حيث المحافظة على التراث والتقاليد والعادات فإن المجتمع الحضرية (المدن الكبيرة) عرفت نوعا من الانفتاح على ثقافات أخرى متنوعة، فتأثرت بها اجتماعيا وثقافيا مما كان له انعكاس على الفنون الشعبية. حيث أدي في كثير من الأحيان إلى الإخلال بخصائصها إن لم نقل ساهم في اندثار الكثير منها بسبب نعتها بالتخلف وعدم مواكبة العصر إلى غير ذلك من الصفات التي أراد بها أصحابها التخلص من هذه الموروثات الشعبية.

تكتسي الفنون الشعبية أهمية بالغة بحيث أنها تعكس جانبا من تاريخ الشعوب وتراثها الثقافي وتفسر عناصر حضارتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية وتصور نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان وتعد مرجعا لا يستهان به في تاريخ المجتمعات وفي كشف إنجازاتها وعلاقتها ببيئتها. كما أنها تبين كثير من المعطيات التاريخية التي لم يدونها المؤرخون. وبذلك فهي تتكفل بإضاءة جانب مهم من حياة المجتمعات والأفراد ومعرفة نظمها وعاداتها وتقاليدها وسلوكها مما يمكن من معرفة المجتمعات التي عدمت التدوين.

و- الموضوعات الرئيسية للفنون الشعبية:

يقول محمد الجوهري: " رغم كل تلك المشكلات الحيوية المرتبطة بدراسة الفنون الشعبية وآلات هذه الدراسة بالنسبة لعلم الفولكلور.. فإن التحديد الدقيق بالنسبة للمقصود بالعمل الفني الشعبي ما يزال يمثل مشكلة موضوع خلاف بين الدارسين.[24]

وعلى الرغم من هذا الخلاف بين دارسي علم الفلكلور حول الموضوعات التي تتناولها الفنون الشعبية، فإن البعض منهم يقسمها إلى فنون مكانية وزمانية:

– الفنون المكانية:

هي الفنون التشكيلة كالصناعات والحرف والمشغولات الشعبية اليدوية، الرسم، النحت، الزخرفة، فن العمارة، الحدادة، النجارة، الحياكة، التطريز وتشكيل الطين والحجر.

– الفنون الزمنية:

تشمل جميع الفنون غير التشكيلية التي لا ترتبط بزمن محدد كالموسيقى والشعر والأمثال والقصص والأساطير وكل ما يتعلق بالمعتقدات.[25]

وعلى هذا الأساس فإن الفنون يعبر عنها إما بالكلمة وهذا ما نجده في الآداب وفي المنطوق عموما يتم تبليغ الخطاب بواسطتها عبر رموز وأصوات مؤثرة، والفن القولي وهو الشعر والنثر الجيد والأسطورة. وإما بالحركة وهو فن بصري ويدخل في مجاله الرقص والتمثيل والإشارات المختلفة وإما بالإيقاع وهو يطلق عليه الفنون السمعية كالموسيقى وأما بالتشكيل ويدخل في ذلك الفنون البصرية المادية.

وعلى الرغم من هذه الاختلافات كما أسلفنا فإن محمد الجوهري يقدم تصنيفا دقيقا لموضوعات الفنون الشعبية(25مكرر) نوردها كما يلي:

1- الموسيقى الشعبية:

تشمل: الموسيقى والآلات الموسيقية

2- الرقص الشعبي والألعاب الشعبية:

أ- الرقص الشعبي ويشمل:

- رقص المناسبات والأفراح (فردي وجماعي).
- الرقص المرتبط بمعتقدات معينة (حلقات الذكر الصوفية)

ب- الألعاب الشعبية وتشمل:

- الألعاب الغنائية
- ألعاب الأطفال

- ألعاب الفروسية
- ألعاب التسلية والمنافسات

3- فنون التشكيل الشعبي وتشمل:

أ- الأشغال اليدوية على الخامات المختلفة

ب- الأزياء

ج- أشغال التوشية:

- الحلي
- أدوات الزينة
- الأثاث والأواني
- العمارة الشعبية
- الوشم
- الرسوم الجدرانية وما إلى ذلك

ومهما اختلفت أراء المفكرين حول الفنون الشعبية فإن ما يمكن التأكد منه هو أنها تعبير عن انفعالات المجتمع التي تم ابتداعها عن طريق جماعي واشترك آخرون في الارتقاء بها وتبناها أفراد المجتمع لأنها تعبر عن عواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم. وما يقال عن الفنون الشعبية ينسحب على العادات والتقاليد والقيم التي تتوارثها الأجيال عن طريق المحافظة عليها بالمحاكاة والتقليد وإضافة الإضافات البسيطة التي تلائم الروح الجمعية في العصر دون أن يكون لذلك تأثير كبير وتغيير عمق في أصول هذه التقاليد.

ويحمل التراث الثقافي بمختلف مكوناته تأثيرات مختلف الثقافات التي عرفتها الجزائر سواء تعلق الأمر بالمعتقدات التي أشرنا إليها في الفصل الأول أو العادات والتقاليد والقيم والتي امتزجت مع الثقافة المحلية لتشكل ثقافة المجتمع الجزائري. فإلى جانب تعبيرها عن الثقافة المحلية المتوارثة (الأمازيعية) فقد تأثرت مكونات التراث بالإمدادات الثقافية الفينيقية والحضارتين " الرومانية " اليونانية والرومانية والبيزنطية. وأما التأثير الكبير فقد كان بما حملته الحضارة العربية الإسلامية وقامت بمزجه وانتقائه وإشاعته عبر تواجدها ومنها الجزائر، غير

أن بعض المناطق التي عرفت العزلة في الجبال حملت خصوصيات الثقافة الأصلية التي لم تتأثر كثيرا بالثقافات الوافدة ومثل ذلك بعض المناطق بالصحراء وبعض المرتفعات الجبلية بالجزائر.

لقد كان من الضروري الإشارة إلى التراث الشعبي لأن الوعدة تعد من الموروثات الثقافية التي يحتويها وهي بدورها تحوي العديد من التقاليد والعادات كالعادات الخاصة بالتكافل الاجتماعي، ومختلف الرقصات والألعاب الشعبية. ولذلك يصبح من الأهمية بمكان الإشارة إلى علاقة المصطلحين لنتمكن من معرفة دور ومكانة الوعدة في تراث المجتمع الذي لا زال يشكل رافدا أساسيا من روافد الثقافة في المجتمع الجزائري. والذي يطلب إجراء دراسات معمقة، واعتقد أن مساهمتي هذه ستكون لبنة ستضاف إليها لبنات أخرى تستجلي أغوار هذه الظاهرة التي لم تستأثر باهتمام باحثين على الرغم من أنها تشكل ظاهرة هامة وذات أهمية بالغة في حياة المجتمع والتراث الجزائري.

- دور ومكانة الوعدة في المجتمع الجزائري:

رغم أن الموروثات الثقافية قد فقدت وظيفتها الأساسية في المجتمع، فهي تملك القوة اللازمة للبقاء والاستمرارية بفضل ما تحتاجه من مكانة في السياق الثقافي للمجتمع الذي تنتمي إليه، كالوعدة التي تأخذ قيمة دينية في قبيلة أو منطقة لأن أناس يقومون بها إكراما للولي. إن هذا المعتقد أو الطقس قد وجد الظروف المناسبة ليبرز من جديد.

إذ أن جذوره وأعماقه تمتد إلى الماضي السحيق للمجتمع الجزائري. فظاهرة الضحية أو القربان الذي كان يقدم للآلهة شكل طقسا ملائما للاحتفالات ومظهرا لتقرب إلى الآلهة سواء لطلب حمايتها أو لاتقاء شرها. ولقد جاء الإسلام ليحارب مثل هذه الظواهر إذ يعتبر كل قربان يقدم إلى غير الله بمثابة شرك ووثنية، تجب محاربته. غير أن هذه الظاهرة (تقديم القرابين) ظهرت من جديد ابتدءا من القرن الخامس عشر الميلادي حيث اتخذت عبادة الأولياء أهمية كبيرة بفضل انتشار الطرق الصوفية. وقد سمح بتسرب عبادتهم التي كانت موجودة في السابق غير أنها نمت نموا خارقا مما أدى إلى انتشار الطرق في كل مناطق المغرب الإسلامي والجزائر. ولم يسلم أي قسم من المغرب منه ولا طبقة اجتماعية ولا شعبا من

سيطرة الصوفية وعبادة الأولياء بما فيهم المحليين أو الرجال التقاة والذين يطلق عليهم في اللهجة العامية " مرابطون.[26]

لقد صاحبت هذا الانتشار للأولياء العقلية البسيطة لأبناء الطبقات الشعبية التي تلاءمت مع الخرافات والبدع التي يبثها المرابطون والتي يصدقها العامة، كالاعتقاد بالأولياء الذين يعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله وبأنهم يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب. وقد أدى هذا الإقبال عليهم إلى رفع مكانتهم وتوسع نفوذهم مما جعلهم يدعون الولاية ويظهرون مظاهر الزهد العبادة. وتحولت الولاية لديهم إلى وراثة يرث الابن أباه. ومن هنا كانت الفكرة القائلة: بأن البركة الإلهية تفيض على الولي ثم تنتقل إلى ذريته فيصبح جميعهم شيوخا يلتمس منهم الناس البركة كما تتسابق القبائل ليكون لكل منها وليها يعزز شوكتها ويدعم مركزها ويصبغ عليها بركته مما ساهم في انتشار الأولياء[27] والإنسان البسيط يجد حاجته للاقتراب من الله عن طريق الوسطاء، كما يعتقده. وذلك لكونه يجهل كل شيء عن الدين الحقيقي. فيطلب من الولي أن يلبي حاجته.لأنه يتمتع بالبركة ويستطيع علاج الأمراض والتنبؤ بالمستقبل أو منح الخصوبة للمرأة العاقر. والكثير من الناس يعتقدون أن شيخ الطريق أو الولي أو صاحب الضريح أو القبة يستطيع أن يكون شافعا عند الله للعبد المذنب أو واسطة لتبليغ دعاء الطالب الذي يعتقد اعتقادا راسخا أن دعاء الشيخ مستجاب. وأنه يستطيع أن يضر وينفع. ويقول العوام نحن إنما نعتقد في الصالحين الأخيار، إن الله جعل لهم النفع والضر في هذه الدار وتلك الدار، فهم يعطون أو يمنعون وبأيديهم مفاتيح غيب، وتحت قبضتهم خزائن فضله، ينـــزلون الأمطار متى شاءوا، يعافون من أحبوا ويبتلون من بغضوا، ويهبون لمن أرادوا ذكورا وإناثا أو يزوجونهم ذكرنا وإناثا. ويجعلون من غضبوا عليه عقيما[28] وقد رسخت هذه المعتقدات في أوساط الجماهير، وتناقلتها الأجيال جيل عن جيل لزيادة نفوذ الشيخ والترهيب من مخالفته مما جعل الكثير يعتقدون في قداسته (لكونه ولي الله) وولي الله يجب أن يطاع. كل هذا يفسر ما ذهب إليه الكثير من العلماء ومنهم الشيخ مبارك بن محمد الميلي في اعتبار ما يقدم من أضحيات بمثابة قرابين برزت وتم إحياؤها من جديد ولكن في ظروف وأشكال جديدة تتناسب مع الانحطاط الحضاري والثقافي الذي عرفته

المجتمعات الإسلامية ومنها الجزائر في عصر التأخر الثقافي الذي أصابها. وفي هذا المضمار يقول الشيخ مبارك رحمه الله: " إن نظر الناس اليوم إلى الزردة أنها من الشرك، فيجب على العلماء تحذير الأمة منها والنصح باجتنابها، ويجب على الأمة الإتباع والمبادرة إلى الإقلاع. ودليل ذلك تشابهتها في المعنى لعتائر الجاهلية وقرابينها واجتماعاتها على أنصابها وأصنامها."[29]

لقد تدعمت بقايا الوثنية التي عرفها المجتمع الجزائري القديم (البربري) والتي أشرنا إليها في الفصل السابق بفعل ما عرفه العرب المسلمون من عادات وتقاليد قديمة في جاهليتهم وما صاحب الفتوحات الإسلامية من روافد ثقافية نتجت عن طريق دخول العديد من الشعوب في الدين الإسلامي غير أنها بقيت محتفظة برواسبها الثقافية وحافظت عليها جيل عن جيل لتستخدمها كل ما سمحت الظروف.

وقد برزت هذه الوثنية من جديد من عالم النسيان، وانبعثت من الأنقاض لتروضى الإنسان وتسيطر عليه من خلال حاجته إلى الحماية ووجدت ضالتها في ظهور عبادة الأولياء والاحتفالات التي تقام على الأضرحة. و لم يخب لهيب هذه المعتقدات في الأولياء. فقد حدثنا نور الدين طوالبي عن زيارة جاك بيرك في 1978، على طريق الخميس بني سنوس " وهي قرية تقع جنوب ولاية تلمسان، فلاحظ أن التلال يسارا ويمينا مزدانة بأبنية بيضاء مكعبة ذات قباب في أسفلها رسوم للأولياء والأجداد حيث عرفت الزوايا مكان الوعدة (الأضرحة) التجديد من خلال التبيض بالكلس، وظهرت من جديد القباب بها، وبسير القديسين[30] وتعد هذه الوضعية إثارة السلوكات تقليدية تأخذ اليوم مظاهر شديدة الوضوح في غياب نماذج أخرى من التعبير الثقافي في الأرياف الجزائرية.

وما نلاحظه اليوم مع بزوغ فجر الألفية الثالثة هو استمرار هذه الممارسات التي كان يعتقد أن تيار الحداثة والتقدم سيقضي عليها إلى الأبد.. حيث عمت الأرياف الجزائرية والحواضر، بل أدى الإعلام الرسمي دورا في الترويج لها وإسناد القيمة التبريرية لها.

ويتفق جميع الباحثين الذين اهتموا بموضوع عبادة الأولياء (بيرمنغهام) جاك بيرك.. إلخ على أنها بقايا وثنية برزت من جديد عن طريق المرابطين الذين تعتبرهم العامة واسطة بينهم وبين الله.(31)

ويرى طوالبي أن السلوك الديني الريفي بالإضافة إلى كونه معياري فإنه متوافق تماما مع العوامل التقليدية والبدعية في كل متجانس ويضيف: " المعرفة الدينية يتملكها " الطلبة " الذين يسمون بالعلماء، الذين يتعلمون على بعضهم البعض. كما أنهم مسؤولون عن قيادة التدين الشعبي، ومفهوم القداسة مرتبط لديهم بالتدين وبالمعرفة الدينية وهم يتدرجون في موقف اجتماعي بدرجة متفاوتة مع الواهبين الشرعيين للبركة...لذلك يتغاضون بصمت عن الانحرافات الدينية، وبالتالي تشجيع التوفيقية التي تستمر كشرط للاستمرار مركزهم.(32)

وتعمل هذه المعتقدات بفضل تغلغلها في أعماق الناس على تعطيل الجانب العقلاني والعلمي ويركز الأفراد على إعطاء أهمية بالغة لكل ما هو قديم حيث يطلبون البركة على عكس ما هو جديد. وذلك لأن هذه الاعتقادات ليست وليدة الوقت الحاضر بقدر ما هي نتاج المراحل المختلفة للحضارة الإنسانية التي " عاشت وواصلت استمرارها ونموها في ظل مختلف البيئات التاريخية ومرت بمختلف التحولات، إلا أنها لم تتخل كلية عن خصائصها الأولى، ولنقل طوطمها وتابواتها...ما تزال تحيا وترتع كرموز ذهنية بدائية تحت مختلف الأشكال المتكاثرة لحياتنا الحديثة، فأنت تجدها اليوم في إعلام وشارات الدول الحديثة يستشهد في سبيلها، كما تجدها تطل برأسها في شارات المحافظات، والمطبوعات، والأضرحة والملابس، والماركات والمطبخ الحديث...إلخ(33)

ومهما كان نوع الثقافة متطورة أو مختلفة فإن لكل شعب معتقداته التي يمارسها ويعيشها فلا يتحرك إلا ضمن الضوابط النفسية والاجتماعية والثقافية التي تشكلت عبر مراحل تاريخه الطويل. وهي بإيجابياتها وسلبياتها وقدمها وحداثة ممارستها تعتبر نتاجا لما توصل إليه الفكر الشعبي من خلال تطوراته في مواجهة الظواهر الطبيعة والاجتماعية والسياسة والاقتصادية.

إن المجتمع الجزائري يشكل مجموعة متنوعة من الثقافات عملت الدولة على جمعها تحت سلطة وحيدة وهي ذات هياكل اقتصادية واجتماعية، عادات وتقاليد غير متجانسة حسب المناطق حتى لو أنها تتشابه في الكثير منها، فإنها تختلف فيما بينها في بعض الخصوصيات الثقافية غير أنها خصوصيات طفيفة لا ترقى إلى تمايز بين هذه المجموعات بفعل الخصائص المشتركة بينها كاللغة والدين والتاريخ المشترك.

ويكتسي الاحتفال في الجزائر فائدة خاصة كمؤشر للوضعية الثقافية فقد نجد هياكل احتفالية مشتركة للمجموعة خاصة كمؤشر للوضعية الثقافية فقد نجد هياكل احتفالية مشتركة للمجموعة الوطنية (الاحتفالات الوطنية والدينية، المهرجانات...إلخ) كما قد نجد كذلك احتفالات أو طريقة القيام بالاحتفالات التي تكون خاصة بمناطق خصوصية. وتظهر المعاينة أن مريدي الاحتفالات الخاصة بالوعدات يستعملون الاحتفالات القديمة كأحد الوسائل المتبقية لديهم للالتقاء فيما بينهم للمحافظة على هويتهم رغم اضمحلال العديد من العادات والفنون الشعبية من ظاهرة الوعدة، إلا أن هذا لم يمنع كثيرا من الاحتفالات أن تبقى حية ولو أنها لم تعد تكتسي طابع، المقدس رغم أن القسم الديني لا زال حاضرا (حلقات الذكر، تلاوة القرآن، الحضرة...إلخ) غير أن الشعلة الدينية لم تعد كما كانت سابقا. ويصبح الإنسان أمام وضعية تستمر فيها الهياكل التقليدية في إطار تحديثي مدعمة من طرف هذا الأخير.

- الوعدة في الغرب الجزائري

لقد انتشرت أسماء الأولياء والأضرحة في أماكن عديدة من الوطن إذ لا تكاد تخلو مدينة أو قرية أو دشرة من ولي على الأقل. وقد يصل في بعض القرى أن عائلة تقدس وليا خاصا بها وتحمل اسمه وتعتز به وبانتمائه إليه. وتتقاطع الخريطتان الجغرافية والعقائدية حيث نجد أن كل مدينة كبيرة ارتبط اسمها بولي صالح يقدسه سكانها ويزورونه بمناسبات مختلفة كسيدي بومدين بتلمسان وسيدي شيخ بالبيض، وسيدي بلعباس وسيدي الهواري بوهران وسيدي خالد بمعسكر وسيدي محمد بن عودة بغليزان العاصمة وسيدي أحمد بن موسى

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
مكتبة الكلية

العاصمة وسيدي راشد بقسينطية وسيدي أحمد بن موسى بكرزاز وسيدي محمد بوزيان بالقنادسة...إلخ حيث أن كل تجمع سكاني كبير وصغير إلا وله وليه الصالح الخاص به وكلت له المهام العقائدية والطقوسية الخاصة يحمونه ويحتمون به.

ولقد عطلت الاعتقادات الشعبية ميكانيزمات العقل والتفكير العلمي المنطقي وصاحب هذه الوضعية عجز فكري وإشكالية مطلقة وتصديق مجاني لأي خطاب شريطة أن يكون متضمنا للمقدس حتى وأن كان وهما كاذبا بعيدا عن روح الدين والعقل والمنطق والحقيقة.(34)

ويفسر تمسك المجتمع بهذه الممارسة بضغوط المجتمع على الفرد والجهل والفقر الدور السلبي للنخبة المثقفة التي لم تكلف نفسها عناء إظهار الحقيقة للجماهير للممارسة سواء من حيث المنطق والعلم وهنا يتضح أن علاقتهم بالجماهير تفتقر إلى الوعي السياسي والاجتماعي وعدم الالتزام اتجاه الجماهير الشعبية.(35)

ويضاف إلى هذه الأسباب موقف السلطة من الممارسات حيث أن العديد من المؤسسات الحكومية بشكل مباشر أو غير مباشر في تكريس مكانة الأولياء عن طريق دعمها للمواليد والإشراف عليها بحجة تنظيمها دون أن تضع خطة للتخلص منها تدريجيا أو تحويلها من مهرجانات للخرافات والشعوذة إلى مهرجانات اجتماعية واقتصادية أكثر تقدمية. بل أن المؤسسات الحكومية تقف في كثير من الأحيان موقف العجز أمام ضريح ولي من الأولياء تماما كما يقف الإنسان العادي البسيط.

وعلى الرغم من الانحرافات الروحية التي تصاحب هذه الظاهرة بما فيها من جهل وتخلف فكري وتعطيل لحركة العقل وبما فيها من تبذير مادي ومعنوي. فالأضاحي المقدمة خلال الوعدة، والتي تعبر عن تبذير عير مبرر لا عقلاني كما تؤكد الصحافة، لا تذهب إلى الفقراء كما يعلن الدين، بل لا تعد فريضة، بمعنى ليست أكثر من إجراء خاضع لتقدير كل مسلم...فهناك مساكين في هذه المناسبة يصلون إلى حد الاستدانة للمشاركة في الوعدة بينما ينكر الإسلام هذه المظاهر بشدة. فكما يقول أحد التجار: " هذا الحفل يفلسهم، أنهم يقون هكذا " وكما يقول موس: " إن نسق الهبة الذي ينشأ بين الجماعات المختلفة، يضمحل في

إطار انحرافي للاستهلاك والتبذير "[36] ورغم هذا التبذير تبقى هذه الممارسة عادة من العادات ووسيلة من الوسائل التي تحقق الرغبات التي عجز الفرد عن تحقيقها بالوسائل العقلية التي يرضى عنها العقل والمجتمع. فالأولياء والأضرحة أداة للتلاعب يقوم بها الفرد حين تدفعه الحاجة وحين يعجز عن تحقيق غاية معينة بالوسائل التي يرضى عنها المجتمع "[37] ولذلكم يلجأ العديد من الناس إلى الأضرحة والقباب لطلب قضاء الحوائج بعدما يئسوا من إيجاد الحلول لمشاكلهم عن طريق العلم والعقل. وهذا ما يجعلهم يستنجدون بالأولياء الصالحين لإنصافهم من ظالميهم قبل أن يقدموا تظلماتهم إلى المحاكم الرسمية. وقد كان الناس سابقا يخافون شكوى المظلوم إلى الولي الصالح اعتقادا منهم أنه يستطيع بدعائه أن يصيب الجاني. ولا زال هذا الأمر ساريا في كثير من المناطق على الرغم من التطور المضطرد في جميع مناحي الحياة. ولا أدل على هذه من الزيارات غير المنقطعة إلى مختلف الزوايا والقباب ولا سيما العنصر النسوي حيث لا تكاد تخلو هذه الأضرحة من الزائرين والزائرات ليل ونهار. وقد تدعم هذه الجانب من قبل الهيئات الرسمية التي أفردت إعانات معتبرة لترميم وإعادة الاعتبار إلى هذه الزوايا وهذا تحت طائلة إعادة الاعتبار للتراث الشعبي على الرغم من أن هناك أهدافا سياسة غير معلنة لتوطيد أركان السلطة واستمالة مؤيدي هذه الأماكن لتعزيز نفوذها في المجتمع.

إن هذا التوجه قد وجد أرضا خصبة لإعادة انبعاث الزوايا وما يتبعها من مظاهر احتفالية تصب في إعادة إنتاج علاقة القداسة التي كان يتمتع بها الولي الصالح حتى لو أنها لم تعد بنفس الحدة التي كانت سابقا.

وتأخذ هذه العادات والتقاليد طابع القداسة. وتصبح المحافظة عليها من الأهمية بمكان بالنسبة لجميع أفراد القبيلة. فالاحتفال السنوي الذي يقام على شرف شيخ الزاوية أو صاحب الضريح كثيرا ما يشكل ظاهرة مقدسة لا يمكن الاستغناء عن احتفالاتها بل إقامتها في وقتها المحدد مما يؤدي إلى ترسيخها في أفكار البسطاء كواجب مقدس اتجاه الولي أو شيخ الزاوية، ويدل هذا على تماسك الناس بهذه العادة أو الطقس على الرغم من مرور السنين العديدة على نشوء هذه الظاهرة. وتزداد أهميتها ومكانتها في الأوساط الريفية حيث تفتقر

إلى المرافق الثقافية إن لم تنعدم بها مما يجعل إقامة احتفالات الوعدة كمتنفس وحيد لهؤلاء الريفيين الذين يجدون فيها ضالتهم من حيث ما توفره من فضاءات ثقافية قلما يجدونها طيلة السنة.

ظاهرة الوعدة تعد مظهرا من مظاهر عبادة الأولياء تتمثل في الاحتفال بشيخ الزاوية أو صاحب الضريح عن طريق تجديد التعاقد معه كل سنة من طرف أفراد القبيلة التي تنتمي إليه. وهي ظاهرة عامة تعرفها كل مناطق الوطن. وقد صاحبت الزوايا منذ نشأتها حيث كان أفراد القبيلة يقدمون عمل يوم كسخرة سواء في فصل الصيف أثناء الحصاد أو في فصل الخريف أثناء الحرث للمساهمة في خدمة الزاوية وغالبا ما يصاحب هذه الأشغال عند نهايتها إقامة احتفال بذبح الذبائح وإطعام المشاركين في العمل قصد الحصول على البركة. وقد تقام الاحتفالات من أجل الاستسقاء وتكون غالبا بالقرب من الأضرحة. وفي كثير من الحالات يستعاض عن صلاة الاستسقاء الشرعية بإقامة الوعدات اعتقادا من الناس بأن الاحتفال على الضريح يؤتي أكله بعجالة وقد تحدث الصدفة ما يتمناه الناس بنـــزول الغيث أثناء القيام بالاحتفال نتيجة لظروف مناخية مناسبة فيؤدي هذا بهم إلى الاعتقاد بأن مكانة صاحب الضريح عند الله سبحانه وتعالى قد جعل الدعاء مستجاب.كما أن إقامة هذا الطقس من شأنه أن يجعل المحتفلين به أكثر استعدادا لتقبل الجفاف نتيجة لما تتوفر لديهم من ظروف نفسية ترتبط بمعتقداتهم بقداسة الولي الصالح صاحب الضريح. لذلك فإن الوعدة ترتبط في أذهانهم بمواسم معينة من الواجب إقامتها حتى لا يتأخر نزول المطر أو زوال البركة. وإذا حدث و لم يسقط المطر فإن الاحتفال يصبح بمثابة المتنفس الذي يمكنهم من الانتظار لغاية هطول المطر لأنهم يعتقدون اعتقادا راسخا بأن تلبية هذه الدعوة تعد الضامن الأساسي لتلبية طلبهم المتمثل في الاستسقاء.

وفي هذا المجال يقترح مالينوفسكي البحث عن معنى الطقس في حواضر الإنسان الديني الذي يسعى إلى السيطرة على قلقه أمام محيط لا يسيطر عليه وأمام أسوار غامضة في وضعه..ولقد أشار إلى أن الطقس يغير وضع المؤمن، وبممارسة طقوس الاستسقاء التي يفترض فيها أن تجلب المطر، فإن المؤمنين لا يسببون هطوله، ولكنهم بتجمعهم لإتمام

الاحتفال المفروض، فإن أعضاء المجموعة يعبئون الطاقات التي تسمح لهم بتحمل أفضل لتجربة الجفاف والفقر الذي يرافقه.

إن معنى الطقس ليس في فعاليته الأدواتية، والطقس لا يزود المؤمن فقط بالتطهر من قلقه بواسطة تصرفات بديلة، إن تنفيذ الطقس يقوي ويعيد تضامن المجموعة شرط أن تمارس بجدية وأن تعتبر موجبا دقيقا.(38)

وتختلف الوعدات بين مختلف مناطق الوطن في بعض الاختلافات الطفيفة، إذ تستقطب الكبيرة أعدادا وفيرة من الناس ذوي مستويات ثقافية مختلفة. ونظرا لأهمية هذه التظاهرات فإن أجهزة الدولة تتدخل في عملية التنظيم. ويظهر تواجدها من خلال حضور ممثليها في مثل هذه الاحتفالات كالولاة والنواب ورؤساء البلديات. وتساهم أجهزتها في توفير بعض الجوانب المادية كنقل الأمتعة عن طريق الشاحنات، وحضور سيارات الإسعاف والأمن وتقديم مختلف المساعدات. وهي تهدف من وراء ذلك تبني هذه التظاهرات وتأطيرها بما يخدم سياستها. وقد تستعمل هذه الظواهر لترسيخ نظرتها ومحاولة جر الرأي العام الوطني إلى هذا الجانب قصد استخدامه ضد بعض الأطراف التي لا تتفق مع نظرتها كالتطرف الديني الذي يكون في كثير من الحالات خطرا على المجتمع وعلى مستقبله وقد تسخر مختلف الوسائل لبلوغ هذا الهدف كوسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة. وبهذا فهي تساهم في إعادة إنتاج هذه الظواهر وبعثها من جديد بكيفية تحافظ عليها كتراث شعبي يميز هذا الشعب عن الشعوب الأخرى، وجبت صيانته والحفاظ عليه من الاندثار.

وتختلف الوعدات من حيث التنظيم وتموقع الخيام، فهناك ما يختلط فيها الناس، فقد تبنى الخيام قريبة من بعضها البعض بدون مراعاة لصلة القرابة والدم، في حين أخرى تحترم فيها القرابة العائلية، فتبني كل عائلة خيامها بمعزل عن خيام عائلات أخرى وبعيدة عن مكان التظاهرات. وتتعايش مختلف المجالات داخل الوعدة: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وقلما تخلو الوعدة منها غير أن بعضها يطغى في احتفالها في حين أن أخرى تأخذ الصدارة في أخرى. فقد يصبح التركيز على الجانب الاقتصادي أكثر من غيره فتتحول الاحتفالات إلى شبه أسبوع اقتصادي في حين أن أخرى تركز على الجانب الثقافي والفولكلوري ولاسيما في

الوعدات التي تقام على مستوى القرى والأرياف والتي تظهر فيها العادات والتقاليد بشكل جلي إذ يعتمد الناس على البساطة والابتعاد على التعقيد الذي يطبع الوعدات التي تقام على مستوى المدن.

ويطمح العديد من الناس إلى التركيز على صلة القرابة بصاحب الضريح. إذ من خلال إحيائها لهذه التظاهرات إنما تحاول إظهار صلتها به وهذا ما يجعل الكثيرين يبحثون عبر التاريخ الطويل عن صلتهم بشيخ الزاوية عن طريق البحث عن الشجرة العائلية لصاحب الضريح وعلاقتة بالقبيلة التي تنتسب إليه. وإذا كانت بعض القبائل قد حددت صلتها بشيخ الزاوية وصاحب الضريح، فهناك العديد من القبائل والقرى التي تقيم احتفالاتها على شرف وليها ولا تعرف صلته به إلا صلة القبيلة قديما. وقد دأب أفرادها على إحيائها على مر الزمن بعد أن وجدوا أسلافهم يحتفظون بها.

وعلى الرغم من هذه الاختلافات، فإن الوعدة تظل حدثا مشتركا بين كثير من المناطق قاسمها المشترك طابعها الديني حتى لو أن هذا الأخير يعدها انحرافا عن التقاليد الإسلامية الحقيقية الشيء الذي يتشبث به روادها معتقدين أنها واجب مقدس يجب القيام به مهما كانت الظروف والأحوال. إذ يساهم الموسم السنوي الذي يقام على الضريح في تدعيم أواصر القرابة بين مختلف الأفراد وتمتينها بين مختلف الوحدات الاجتماعية إذ يعد هذا الالتقاء مناسبة لتبادل العواطف الأخوية بين أفراد العائلة: " وقد اتفق كل من " راد كليف براون " و " تالكوت بارسونز " و " دوركايم " و " تايلور " ...الخ على أهمية الشعائر في التعبير عن وحدة المجتمع، وتأكيد وتعميق القيم والمعتقدات وتحقيق الضبط الاجتماعي بالحفاظ على تماسك النظام الاجتماعي عن طريق تقوية المشاعر والروابط والعواطف..."[39]

وتعتبر هذه المواسم فرصا للتكافل الاجتماعي وفض النزاعات بين الأفراد والأسر والعشائر والقبائل بفضل توفره من ظروف مناسبة لإجراء مثل هذه العمليات وبالتالي تساهم في إشباع الكثير من الحاجات النفسية كالشعور بالأمن والتقدير: " والذي لا شك فيه أنه من خلال الاشتراك في الشعائر تقل حدة القلق والإضطرابات النفسية لدى الفرد، إذ تمده

بمشاعر الطمأنينة والأمان وتوحي بالتغلب على أزمات الحياة ومواجهة الاضطرابات المألوفة وغير المألوفة في أحداث الحياة اليومية.[40]

تساهم الشعائر الموسمية المرتبطة بالشيء المقدس كالأولياء والصالحين في تحقيق التوازن النفسي والعصبي للأشخاص وفي هذا المجال تقول منال عبد المنعم جاد الله: " وتحدث وليم هافليند وآخرون عن الشعائر باعتبارها وسائل تربط الأشخاص بالشيء المقدس ويغلب عليها الطابع الديني، كما أنها تهدف للعمل على تقوية الروابط الاجتماعية من ناحية، وتساعد على التخلص من التوتر والاضطراب من الناحية الأخرى."[41] وضمن هذا الإطار يمكن إدخال مختلف الأنشطة العلاجية التي يكون الموسم مسرحا لها كأخذ التراب من الضريح للتداوي به من الرمد والصراع وغيره من الأمراض. ويعتبره الوافدون فرصة لحل مشاكلهم والتخفيف من أعبائهم اليومية والوقاية من المحن والبلايا عن طريق اللجوء إلى دعاء الله عند قبر الولي الصالح اعتقادا منهم بأن بركة الشيخ والمكان الذي يضم رفاته من شأنه أنه يجعل الدعاء أكثر استجابة وأسرع مما لو دعا الله في مكان آخر أو منفردا وبعيدا عن الضريح.

ولا شك أن الاعتقاد في قدرة الولي الصالح على جلب الخير وإبعاد المكروه تجعل الفرد يطمئن نفسيا ويخفف من وطأة المشاكل التي يعانيها لأنه يدرك حسب معتقداته أن الدعاء الذي يقوم إنما يعد وسيلة فعالة لحل هذه المشاكل مهما عظمت واستعصي حلها. وبذلك توفر هذه المواسم الظروف النفسية المناسبة التي تجعل الفرد ينسجم مع مختلف شعائرها ويؤمن بها إيمانا راسخا.

تقام وعدات عديد بمختلف مناطق الوطن، ولا يمكن أن تخلو أي منطقة من هذه المظاهر الاجتماعية الثقافية كما أن كل واحدة منها تنتسب إلى ولي صالح سواء تعلق الأمر بمدينة كبيرة أو قرية صغيرة وفي بعض الأحيان بدواوير صغيرة وإذا كانت الظروف التي عاشتها البلاد خلال السنوات السابقة قد أثرت تأثير سلبيا على إقامة مختلف التظاهرات بحيث أن العديد منها توقف في هذه الفترة، فإن الاستقرار الذي تعرفه البلاد وتحسن الظروف الأمنية قد سمح للكثير من الناس بإعادة إحياء هذه الاحتفالات حتى تمكنت مختلف

المناطق من إعادة ربط الصلة بهذه الظاهرة وتجديد احتفالاتها والتي كان يعتقد أنها سائرة إلى الزوال. ويضاف إلى ذلك إعادة الاعتبار إلى الزوايا والقباب عن طريق تخصيص إعانات مالية سواء من قبل الدولة أو تعاون السكان والمريدين من أجل ترميمها أو إعادة بنائها من جديد وطلائها باللون الأبيض. وهنا يطرح السؤال التالي: ما هي الأسباب التي تعمل على ديمومة واستمرار هذه الظاهرة على الرغم من التقدم العلمي الذي مس مختلف مجالات الحياة؟

حسب السوسيولوجيين الجزائريين فإن الذي يجعل هذه الظاهرة تستمر وتدوم وتعيد إنتاج نفسها سببان رئيسيان:

أولا: الاعتقادات الشعبية التي لا زالت مرتبطة بتقديس الأولياء والصالحين والتي تعتقد أن إقامة هذه الاحتفالات يعد واجبا مقدسا لا يمكن تجاهله ولا سيما إذا تعلق الأمر بجد القبيلة الذي يعتبر في كثير من الأحيان من الأشراف الذين ينحدرون من آل البيت أو ينتمون إلى أحد الصحابة الأجلاء، كما أن لهذه الاعتقادات ارتباط باعتبار الأولياء والصالحين (عبادة الأولياء) الذي تنتهجه الدولة لأسباب معروفة منها تشجيع التدين الشعبي للتخفيف من آثار التطرف الديني، ومحاولة عزل الأفكار المتطرفة التي ينادي بها بعض المتشددين، وهذا نظرا للآثار السلبية التي تفرزها على مستوى بعض الفئات الشعبية ولا سيما الأمية منها أو التي لا تمتلك الحد الأدنى من الثقافة الدينية التي تسمح بعملية غربلة الأفكار واتخاذ الموقف المناسب من بعض الظواهر.

ثانيا: تعتبر موروثا ثقافيا تناقلته الأجيال وحافظت عليه وأصبح يعبر عن حالة نفسية داخلية في نفوس الكثير من الناس والذي لا يمكن تغييره اجتماعيا من يوم لآخر حتى لو افترضنا أن اندماج المتعلقين بإحيائها في الأوساط المدنية أو القروية، فإن هذا لا يعني اندثار تقاليدهم وخير دليل على بقاء هذه الظاهرة واستمرارها هو إعادة إنتاجها بكل عاداتها وتقاليدها الأساسية من جديد عبر مختلف مناطق الوطن.

إن بروز الظواهر البدعية التي لا يسمح بها الإسلام تبدو وكأنها تأتي من الإرادة الجماعية لإعادة التشكيل على الأقل في الخيال الفرق أو القبائل حول ولي رمز تنتمي إليه القبيلة أو الفرقة. إن عبادة الأولياء التي كانت ممارسة قديما، عرفت نشاطا جديدا،

فالاحتفالات السنوية (الوعدات والزردات) تعمل على إحياء قرابة جماعية وهمية عن طريق تقديم الولاء للمرابط[42] إن عودة " لعناية " بهذا الطقس تعني إثارة لسلوكات تقليدية تأخذ مظاهر شديدة الوضوح في غياب نماذج أخرى من التعبير الثقافي في الأرياف.

وحتى نتمكن من تأكيد ما قدمنا حول ديمومة واستمرار هذه الظاهرة، فإننا سنقوم بدراسة بعض الوعدات التي تقام ببعض المناطق من الغرب الجزائري. كما أنها تمس مختلف مناطق شمالا وجنوبا، ولذلك سيكون الذكر على سبيل المثال وليس الحصر، لأنه من الصعوبة بمكان الإحاطة بكلها سيما وأنها أصبحت تقام بمناطق كثيرة ومختلفة (مدينة، قرية، دوار، دشرة، قبيلة...الخ).

أ- الوعدة في المنطقة الغربية الشمالية:

- وعدة سيد محمد بن عودة:

لا تختلف المنطقة الغربية عن بقية مناطق الوطن من حيث انتشار الأولياء الصالحين، وفي توفر العديد من القباب التي تقام بها الاحتفالات. وفي هذا المجال يمكن ذكر وعدة سيدي محمد بن عودة بغليزان الذي ينحدر أصله من فاطمة الزهراء رضي الله عنها ومن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وقد ولد سنة 972هـ وتوفي سنة 1034هـ. وكان من كبار الأولياء الصالحين بالمنطقة، وقد لقب بهدي زمانه[43] ومع بداية كل خريف يحي سكان البلدية التي تحمل اسم وعدته طيلة أربعة أيام كاملة. ويسبق هذا الموعد تجمع لمشايخ العروش البالغ عددهم خمسة وعشرين شيخا، ويجوب رجال يحملون ركيزة القرى والمداشر لتبليغ المواطنين بموعد الاحتفال، وعند مرورهم بالمنازل تقدم لهم التبرعات العينية منها والنقدية، في حين تقوم النساء المسنات بإهداء محارم مرشوشة بشتى أنواع العطور يتم تعليقها على الركيزة على أساس أنها ستستعمل كدعامة لأحدى الخيام التي ستبنى يوم الوعدة. وبالموازاة يتوزع بقية الرجال على الأسواق لإبلاغ الناس بموعد الوعدة أسبوعا قبل بدايتها حيث يتم ذلك جهرا عن طريق البراح. وفي هذه التظاهرة يطعم الزوار وعابرو السبيل في جو من الفرح والكرم تتخلله ألعاب الفروسية وحلقات المداحين والفرق الفولكلورية.

- وعدة سيدي يحي بمنطقة تلمسان:

لقد بدأ الاحتفال بموسم سيدي يحي الولي الصالح في شكل موعد يلتقي فيه أبناء سيدي أحمد بن صفية المولود سنة 1529م وقد نشأ في بيئة دينية ودرس في زاوية جده لأمه الشيخ سليمان بن أبي سماحة اللغة والعلوم الإسلامية والتصوف ثم واصل دراسته ليتخرج عل يد الشيخ محمد بن عبد الرحمان السهلي. وبعد وفاته تحول هذا اللقاء تدريجيا إلى موسم تكريم يطلق عليه " وعدة سيدي يحي " تتم عقب كل موسم فلاحي يحضرها أتباعه الوافدين إليها من جهات مختلفة ويحضرها إضافة إلى أبناء " أولاد نهار " ممثلو قبائل عديدة مجاورة من الجزائر والمغرب الأقصى.

وهناك وعدات أخرى يحتفل بها في الجهة الغربية يمكن ذكر البعض منها كوعدة سيدي غالم ببلدية طفراوي بوادي تليلات ووعدة سيدي خالد بتيارت ومولاي الطيب الشريف ووعدة سيدي يحي بسيدي بلعباس وغيرها من الوعدات التي تزخر بها مختلف مدن وقرى الغرب الجزائري على مستوى الشمال والجنوب.

ب- الوعدة في المنطقة الغربية الجنوبية

في المنطقة الجنوبية الغربية من الوطن تنتصب الكثير من الوعدات لعل من أشهرها وعدة سيدي أحمد المجدوب بعسلة والأبيض سيد الشيخ ومولاي عبد الله الرقاني وموسم تيميمون وتمنطيط وغيرها من التظاهرات الثقافية التي يزخر بها الجنوب الكبير والتي أصبح يحتفل بها كل سنة دون كلل أو ملل.

وسنستعرض هذه الوعدات باستثناء وعدة سيدي أحمد المجدوب التي سنفرد لها فصلا كاملا في آخر الدراسة لما ألفينا فيها من خصائص قد تعبر بصدق عن خصائص الوعدات الأخرى.

– وعدة الولي الصالح " سيدي الشيخ "

تعيش بلدية الأبيض سيدي الشيخ سنويا فعاليات وعدة الولي الصالح "سيد الشيخ " أو " الركب ".تعد هذه الوليمة من أكبر التظاهرات لارتباطها بعرش أولاد سيدي الشيخ زعماء الثورات الشعبية. عاش هذا الولي في الفترة (1533- 1616) داعية إلى الله ومجاهدا في سبيله ضد الغزو الاسباني وقد توفي بسبب جرح بجانبه الأيسر إثر العودة من المشاركة في صد هجوم على شواطئ وهران[44]. ولهذا الولي الصالح أتباع كثيرون بالصحراء والغرب الجزائري. وترجع تسمية " الركب " إلى الموكب الجنائزي الكبير والمهيب الذي انطلق من الكراكدة إلى الأبيض حيث دفن الشيخ ويصبح يحي سنويا ذكر وفاته وأول انطلاقة تمثل في مسيرة تقوم بها قبيلة " استيتن " مشيا وعلى ظهور الحيوانات إجلالا لموكبه الجنائزي. وعند وصولهم إلى مدينة الأبيض سيدي الشيخ يستقبلون من قبل سكان المنطقة بكل حفاوة ويستضافون ويضربون خيامهم في منطقة مخصصة لهم.

وتتكفل الزوايا والجمعيات الخيرية بكل مصاريف الولائم معتمدة في جانبها الأكبر على مساعدة أعراش المنطقة في إتباع ومريدي الشيخ وأمام الضريح وفي مساحة واسعة تجري ألعاب " الفروسية " كما تقام الأنشطة الشعبية الفولكلورية (حلقات المداح، الغايطة، القصبة، الرقص الشعبي وغيرها) كما تقام في المساحات المجاورة نشاطات تجارية لتجار يفدون من مختلف مناطق الوطن. وبالمقام يستريح الناس ويطعمون ويجمعوا ويجتمع أهل الذكر لتلاوة القرآن وقراءة المنظومة الصوفية " الياقوتة " للولي الصالح سيدي الشيخ كما يتم الدعاء والتضرع إلى الله وطلب الغيث ونزول الرحمة والإصلاح بين الأعراش إن وجدت خلافات وتوزيع الصدقات على المحتاجين وغيرها من العادات التي رسخت في المنطقة منذ القرن 17م بداية إقامة هذه الوعدة.

وللذكر فإن عدة قبائل وأعراش تتعايش تحت الزعامة الروحية لقبيلة أولاد سيدي الشيخ، وهي تسير على درب جدهم سيدي عبد القادر بن محمد بن أبي سماحة والذين يتسلسل نسبهم إلى صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه[45]

– وعدة مولاي عبد القادر الرقاني:

بحلول الفاتح من شهر ماي من كل سنة، تتحرك مدينة رقان الواقعة على بعد 150كلم جنوب عاصمة الولاية أدرار لتعلن عن موعد زيارة ضريح مولاي عبد الله الرقاني حيث يقصد المدينة سكان المنطقة المجاورة نساء ورجالا على مختلف أعمارهم، وحسب الروايات الشائعة فإن الولي الصالح عاش حوالي خمسين سنة وقد كان متأثرا بأفكار محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي عاش في القرن التاسع الهجري. وقد وقع اتصال بينه وبين الشيخ حيث خاطبه دون أن يراه وأمره بالبحث عن المنطقة التي يتخذها مقرا له[46]. وقد استقر الرقاني بهذه الزاوية التي تعرف باسمه حيث بني فيها مسجدا. ويبدأ تحضير الوعدة بشهور عديدة إذ يقوم أحفاده بجمع الأموال والطعام ويكلف كل رب أسرة بطهيه. وبعد تناول العشاء تقام ليلة رقان الكبرى التي تنشطها مختلف الفرق الفولكلورية بجانب الضريح. ويستمر الحفل إلى غاية الفجر حيث ينتهي بالتذرع إلى الله طالبين منه تأمين العودة كل سنة لحضور هذه المناسبة السنة المقبلة علما بأن الاحتفالات تدوم أسبوعا كاملا.

إن اقتصارنا على هذه الوعدات لا يعني أنها الوحيدات على مستوى الغرب الجزائري، إذ أن هذه الجهة تزخر بالعديد منها كما ذكرنا سابقا. وقد استعرضنا البعض منها لنبين تشابهها من حيث الخصائص التنظيم. وفي كثير من الحالات من حيث العادات والتقاليد التي تحويها وهي بالنسبة للمدة الزمنية التي تستغرقها احتفالاتها وأنشطتها.

- تنظيم الاحتفال بالوعدة

إذا كانت بعض الوعدات تقام خلال فصلي الربيع والخريف فإن الغالبية العظمى تقع خلال فصل الخريف، وهي تدوم عرفيا ثلاثة أيام ابتداءا من يوم الأربعاء لغاية يوم الجمعة لكن التحضير لها يبدأ من يوم السبت، حيث تتهيأ العائلات بنصب الخيام الكبيرة والصغيرة في الساحة المخصصة لذلك. ووضع الأفرشة داخل الخيام وتحضير أواني الطبخ والأضحية.

أما الإعلان عن موعد الاحتفال لا يتم إلا بعد الاجتماع الذي يعقده مشايخ القبيلة بفترة طويلة. ويحضر هذه الجمعية العامة أعيان القبيلة، يلتقون جميعهم في جلسة واحدة

يخرجون من اجتماعهم بتاريخ الاحتفال بالوعدة. وفور انتهاء الاجتماع المذكور ينشر الخبر ويصل إلى أغلب الدواوير والمداشر، وقد يعتمد في نشر الخبر على أحفاد وخدام الولي الصالح الذين ينتشرون في مختلف الأمكنة كما قد يعمد إلى مختلف الوسائل لإذاعة الخبر كالبراحين في الأسواق وفي القرى أسبوعا قبل بداية موعد بداية الوعدة. أما الذين يقطنون أماكن بعيدة فيتم إبلاغهم بوسائل الاتصال الحديثة كالهاتف والفاكس وغيرهما.

– التحضير ليوم الوعدة:

تنصب الخيام على شكل هلال، وهذا له معنى رمزي لا يختلف عن الهلال القمري رمز السنة الهجرية والإسلام والعلم الجزائري. وفي كثير من الحالات فإن الخيام تنصب وفقا لمخطط كل عرش، حيث يحدد لها مكان خاص تحوي أربع خيام " قيطون بالتعبير المحلي " لاستقبال الضيوف إلى جانب الخيام البدوية لطهي الطعام واللحم من طرف النساء وتستعمل ليلا لمبيت أفراد العائلة. ويعتبر الطعام (الكسكسي) الأكلة الأكثر تداولا في الوعدات لا لشيء سوى لإكرام الضيوف الوافدين كمناسبة لالتقاء الأقارب والجيران والأصدقاء. وتكون الأعيان وممثلو الأعراش حاضرين يوم الوعدة. الأربعاء – إضافة إلى عشرات الآلاف من الضيوف المتوافدين من كل حدب وصوب من مختلف المناطق. يطلق عليهم اسم الزوار. يتولى مهمة إطعامهم وإسكانهم سكان البلدية بحكم اعتقادهم أنهم من سلالة الولي الصالح أو من الخدام والمقربين منه لأنهم كانوا عبر قرون مضت يخدمون الولي الصالح ويكرمون ضيوفه فتجذرت فيهم هذه الخصلة لتتداولها من بعدهم الأجيال المتعاقبة.

في اليوم الثاني من الوعدة، يتوافد الفرسان جماعات وراء بعضها البعض للتسابق (ما يسمى بالتعبير الحلي – العلفة)، ويعتبر هذا الاستعراض بمثابة انطلاق لعبة الفروسية أو الفنطازيا، وبعد عرض الجياد يأتي دور التباهي بالفرسان الذين يكونون قد لبسوا أحسن الملابس التقليدية المعروفة بالعمامة والكلاح والبرنوس والخف دون أن ننسى السروج المطرزة والمنقوشة بمختلف أشكال الزخرفة، وتتباين ألوان البرانس بين كل فرقة وأخرى (الأسود، الأزرق، الأبيض، الأصفر) التي تدل على الأعراش أو القبائل أو الفرقة الزائرة في حين يلتف الزوار حول المتبارزين بالعصي، اللعبة التقليدية الأكثر انتشارا في الغرب الجزائري

وهذا وسط الديكور التي تصنعه عدة فرق فولكلورية وبدوية، إضافة على المداحين والقوالة وقرقابو وعيساوة وغيرها من الفرق على شكل حلقات يجمعون التبرعات التي تقدم لهم من طرف الزوار والتي يطلق عليها تسمية " الزيارة ". أما تلاوة القرآن من طرف الطلبة (بضم الطاء) وإنشاء المدائح الدينية والتراتيل (الحضرة) فإنها تتعالى من مختلف الخيام لتمزج بين الطابع المادي والروحي للوعدة. وفي نفس اليوم تتكثف الزيارات إلى ضريح الولي الصالح من طرف السكان المحليين أو الوافدين في تتابع متسلسل غير متناهي للحصول على بركة الولي الصالح وبين هذه التظاهرات يتفرغ البعض من الناس إلى التزود بالمؤونة والملابس وكل ما يلزمهم من مواد استهلاكية يتم عرضها أثناء المعرض التجاري التقليدي (السويقة بالتعبير المحلي) الذي يقام على هامش الوعدة. حيث يعرض فيه التجار المتنقلون بضاعتهم المختلفة في مشهد يعيدك إلى الأسواق التقليدية القديمة. وتشكل رقصات العلاوي وغيرها من الرقصات مجالا حيويا لدى الشباب الذي يجد فيها متنفسا عن همومه وآلامه اليومية فالوتيرة والرقص يسمحان للجسم والروح بالتنفس الثقافي للذات المفروضة ولكنهما لا يقترحان أدوارا أخرى[47]. وفي اليوم الأخير تستمر مختلف تظاهرات الوعدة لتقدم وجبة غذاء للوافدين وتختتم الوعدة يوم الجمعة سواء قبل أداء صلاة الجمعة أو بعد أدائها عن طريق المعروف أو قراءة الفاتحة والدعاء لصالح المنطقة والبلاد ولجميع المسليمن لتعود هذه المناسبة بكل خير وفائدة على الجميع ثم يفترق الناس صوب بلدته أو مدينته وفي نفسه شعور بالفرح والسرور على أمل الالتقاء مجددا في السنة المقبلة مع أفراد قبيلته أو أقاربه وأهله الذي قد لا يراهم إلا في هذه المناسبة العزيزة على الجميع.

- الخصائص المشتركة للوعدة

إن الدراسة المعمقة لمختلف وعدات الغرب الجزائري تعكس خصائص مشتركة، لا يمكن أن تحيد عنها ولا تبدو إلا اختلافات طفيفة لا ترقى إلى فروقات مميزة بينها. وقد أجملنا هذه الخصائص في ما يلي:

أ- حولية الاحتفالات

ترتبط احتفالات الوعدة بالجانب الاقتصادي ولا سيما الزراعي إذ تحاول استدرار الأمطار عند اشتداد الجفاف واستمرار القحط أو لرجاء الغلة في فصل الربيع أو لرفع البلاء والكوارث بصفة عامة. وهي تتم بشكل دوري بالقرب من أضرحة الأولياء الصالحين أو زواياهم من قبل الأحفاد والمريدين الذين يعتقدون أن من واجبهم تنظيم هذه الاحتفالات إكراما لجدهم في أوقات معينة من السنة، وغالبا ما تقترن بفصلين من فصول السنة هما فصل الخريف وفصل الربيع كما يقام البعض الآخر في فصل الصيف. وفي هذا المجال يقول مبارك بن محمد الميلي: " تذبح الأنعام عند من يعتقد صلاحهم ولها وقتان أحدهما في فصل الخريف عند الاستعداد للحرث والآخر في فصل الربيع عند رجاء الغلة. والغرض من ذلك التقرب إلى ذلك الصالح كي يغيثهم بالأمطار تسهيلا للحرث أو حفظا للغلة[48] كما يلجأون إلى هذا الطقس عند اشتداد الجفاف ونزول الكوارث معتقدين أن هذا الأمر قد نتج بفعل تقصيرهم في جانب الولي الصالح مما يدفعهم إلى محاولة استرضائه وطلب عفوه والدعاء لهم لرفع الظلم والغبن عنهم لما يمتاز به في نظرهم من صلاح وقدسية تساهم في استجابة الدعاء وبلوغ المطالب.

وعلى العموم فإن هذه الوعدات تخضع للدورة السنوية وقلما تحيد عنها لأن الناس دأبوا على القيام باحتفالاتها في أوقات معينة من السنة وهي أوقات ثابتة لا يبغون عنها حولا. والمسألة هي أن كل وعدة تتجدد في فترات منتظمة – ومن هنا خاصيتها الطقسية دون أن يؤدي إليها أي طلب موضوعي، فالناس يعرفون تاريخها الثابت، ومن عادتهم أن يرجعوا إليه، إيمانا أو تبعا للحاجة، كما يخبرنا بذلك رب أسرة منظمة، وعلى هذا الأساس، يندرج طلب هذه العشائر، على غرار الطلب الذي يسود في المناطق الأخرى من البلاد وكأنه ذو طبيعة سيكولوجية قبل كل شيء.

ويهدف إحياء الطقوس الموسمية إلى اغلال السنة الزراعية وزيادة إنتاجية البشر[49] ولذلك تصادف الاحتفالات هذه المواسم وهي تقام بصفة دورية ومنتظمة كل سنة ومن هنا يظهر طابعها السنوي والحولي. وغالبا ما يؤخذ بعين الاعتبار تاريخ ميلاد الولي الصالح أو

وفاته كمناسبة لقيام الاحتفالات بل يؤخذ الموسم كوقت لإقامتها (موسم الربيع أو الخريف) لارتباطه بالجانب الزراعي وهذا من أجل طلب الغيث في فصل الخريف للقيام بعملية الحرث ورجاء الغلة وضمان موسم وفير في فصل الربيع والصيف. ويشكل التوجه إلى الضريح حدثا هاما وبارزا في نفوس الوافدين على الوعدة إذ الغرض حسب اعتقادهم وما رسخ في نفوسهم على مر السنين هو الدعاء عند الضريح والتوسل بجاه صاحب الضريح للحصول على المطر الذي يؤدي إلى زيادة الإنتاج الوفير ويبعد شبح الجفاف الذي كثيرا ما يصيب الأراضي بالجدب والقحط. كما تستغل المناسبة لإعادة تجديد العقد والعقد بين القبيلة وجدها عن طريق التعهد بالمحافظة على إحياء هذه التظاهرات سنويا وتمجيد وتقديس الولي الصالح، وبهذا يضمن الجانب التعاقدي بين الطرفين حتى لا يتم الإخلال بهذا الاتفاق.

ب- ارتباط الطقس بالأولياء الصالحين

يوجد نوع من التحالف أو العقد بين القبيلة والولي، بموجب هذا التحالف يتكفل الولي بمصالح الجماعة. وهو يحافظ على ازدهارها وسعادتها، بالمقابل فإن أفراد القبيلة احترام سيادته الروحية وتجديد الوفاء له كل سنة بتقديم الزيارات والأضحيات التي تؤكل لحومها في وجبة جماعية.

إن هذا التحالف بين الولي وخدامه يتجسد من خلال الاحتفالات التقليدية التي تقع خلال الاحتفالات بالولي أو حينما تصاب القبيلة بكارثة عامة وتصبح كلمة " وعدة " أو الوفاء بالنذر في أراضي الإسلام ذات معنى. وفي هذا اليوم يقوم الأتباع وأفراد القبيلة بواجباتهم الجماعية حيال الولي. فيغتسلون من الخطايا والتقصيرات التي اقترفوها نحوه في حقه، ويشكرونه على مننه السابقة، ويطلبون حمايته في المستقبل، ويجددون بالمناسبة تحالفهم الأخلاقي معه.[50]

يجد المسلم البسيط الحاجة إلى التقرب إلى الإله عن طريق إظهار الوسطاء الذين يشكلون حلقة وصل بينه وبين الله الذي يعتقد أنه بعيدون وأن قيام هؤلاء الوسطاء من شأنه أن يقربوه منه. فالفلاح أو المرأة التي تجهل غالبا الدين الصحيح، تطلب الحاجات التي

تستحقها من هؤلاء الصالحين ذوي الجاه الإنسانيين وما فوق الإنسانيين، ذوي الكرامات والذين يرتبطون بأماكن معينة، بمنطقة أو قبيلة ويحملون وظائف محددة إن تقديس رب العائلة، رمز الجماعة وراهب التدين الشعبي، تقديس الأسلاف، مكان كل الطقوس سابقا يبين أن العائلة الموسعة، مفتاح النسق الثقافي هي أيضا وحدة مقدسة[51] وترتبط هذه القداسة بعلاقتها بالمرابطين وشيوخ الزوايا التي تعتبرهم أسلافا وتعتبر " أحفادها " أفرادها أحفادا لهم. ويقترح هؤلاء المرابطون والمشرفون على الطرق الصوفية دينا يخاطب القلب والخيال، وبواسطة قوتهم المادية والمعنوية، فإنهم يحدثون تأثيرا واسعا على حياة الأرياف. ويستمد الإسلام قوته وشكله في العالم الريفي بفعل التحامه مع طموحات الريفيين في نفس الوقت الذي يشكلهم فإنه يتشكل من قبلهم.[52]

فالتدين الشعبي هو المكان والنتيجة التي تنبثق من الحوار الثابت والمعقد بين قوى التراث والرسالة العالمية. وقد أدت هذه الوضعية إلى أن يصبح الدين ظاهرة معقدة أين يصعب على غير المختص أن يميز بين ما هو إسلامي وبين ما يتعلق بالجانب المحلي والتفريق بينهما بدقة بل أصبح هناك نوعا من التمازج بينهما.

ونتيجة لسيادة هذا النمط من التدين لدى الغالبية العامة من السكان، ارتبطت كل قبيلة أو عشيرة بمرابط معين، وتشكلت بذلك قبائل مرابطية بمحاذاة الزوايا والمقامات وفي بعض الأحيان قباب وقد اعتبرت أعضائها أحفادا للقديس واستفادت من اسمه ومن الرفعة الدينية التي كان يمتلكها.

وقد أدت هذه الوضعية إلى جعل التجمعات السنوية والولاء إلى الأجداد الحقيقي أو الوهمي أصبحت تستقطب آلاف الأشخاص الذين يأتون من مناطق مختلفة. وكل مشارك يستقبل هذه التجمعات كفرصة وحيدة للالتقاء بأحبائه المتفرقين وهو المرتبط بهم عن طريق علاقة قرابية أو خرافية، فإنه يسلي نفسه بفكرة انتسابه إلى نسب كان قديما قويا وكثير العدد والذي يتناقض مع وضعيته كفلاح يعيش فقرا مدقعا، سجينا لتقلبات فلاحة الاكتفاء الذاتي.[53]

إن تضاعف الأولياء وازدهار الطرقية تشهد على الرغبة الجماعية لإعادة بعث الهياكل الاجتماعية القديمة في الضمائر (الوعي) وهي تستجيب لحاجة بسيكولوجية مكثفة أحدثت بفعل الفراغ الاجتماعي الذي يشعر به كل واحد، إن وجود التجمعات يؤدي دورا لا يستهان به في التوازنات الذهنية للسكان المعتادين على نمط معين من الاجتماعية والألفة. إن الأجيال القديمة التي أدامت عبادة الأولياء لم يعرفوا القبيلة إلا من خلال الصور الخرافية والمثالية التي تم تناقلها بصفة شفوية. فإرادة إعادة عيش الاجتماعية القديمة، توجد بفعل هذا مدعمة باليقين في نمط اجتماعي يستمد من إطار مثالي لا من الحياة الواقعية. إن الاختلال بين هذه الصنفين الأخيرين يفسر كثيرا من المواقف البسيكو اجتماعية. لقد أصبحت الأسطورة تكبت التاريخ وتجدرت الوحدة الاجتماعية في الأشياء المقدسة.

إن المعايير الاجتماعية القديمة أعيد تقييمها أكثر من اللازم ليس رفضا للحداثة ولكن لكونها سمحت قديما بإيجاد توازن اجتماعي. فعدد كبير من الفلاحين يعتقدون أن كل العراقيل تأتي من كون هذه المعايير لا تحترم. ولكن تكون المرة الأولى التي يفسر فيها الإنسان وجوده الاجتماعي بوعيه الاجتماعي. فكل المجتمع يعيش في وهم وفي مثالية التي يعتقدون أنها لا زالت قائمة.[54]

ج- الاحتفال بالولي

من واجبات يوم الاحتفال بالولي، اجتماع عام لممثلي العائلات الذي يحضره الأطفال والنساء أيضا في مكان قريب من زاوية الولي، هنا تحت عينيه ورئاسته وبحضوره تقدم وجبة مشتركة يحضرها الزوار الأجانب كذلك. إن ارتداء الملابس الجديدة أو النظيفة والقيام بالأفراح المختلفة (لعبة البارود، الفروسية، الرقص...الخ) تشكل طقوسا أو مظاهر للفرح التي تصاحب هذه الاحتفالات. وتنظم بعد ذلك زيارة خاصة إلى الزاوية أو المقام يحضرها وفود مختلف الجماعات الذين يتمنون قضاء بعض الحاجات.

إن الذبائح وكل الأغذية المستهلكة، بمناسبة هذه الوجبة المشتركة تقدم من طرف العائلات التي تقطن الإقليم الذي يشكل مجال الولي وتعتبر هذه العائلات نفسها كخدامه وغالبا كمنحدرين من نسله.

وبعد الانتهاء من أكل لحوم الذبائح يتحلق الناس حول المقام ليطلبوا من الولي الاستمرار في تقديم مساهماته الضرورية ومساعداته للرجال والخدام. إن الحج الجماعي والوجبة المشتركة يقعان حينما تكون جماهير الأتباع مهددة بكارثة (كالجفاف) والتي يستطيع الولي بفضل قوته أن يبعدها عن طريق التوجه بالدعاء إلى الله.

يتكون الحج من:

1- الاجتماع في اليوم المحدد بالقرب من مقام الولي لمندوبي العائلات الذين ينتمون إلى إقليم نفوذ الولي وممثلي القبائل والمدن والقرى القريبة.

2- الزيارة إلى الزاوية أو المقام من طرف قسم من الوافدين سواء بعد وصولهم أو قبل مغادرتهم لمكان ليعبروا للشيخ عما يريدونه منه غاية لاجتماع ولتقديم الهدايا والزيارات له، والتمنيات الموجهة إلى الولي من طرف أحد أو الممثلين الأكفاء للأتباع غالبا مقدمي الطرق وباسم الجميع.

3- حفلات متنوعة، سباق الخيل، رقصات خاصة عادية أو دينية، غناء وألعاب، إقامة الحضرات والمدائح الدينية.

وتشكل هذه الوجبة المشتركة قسما من طقوس هذا النوع من الحج، يقدم الغذاء كليا من طرف العائلات الرئيسية للخدام التابعين للولي وإلى الغرباء الذين وفدوا على الوعدة. أما فيما يتعلق بالحيوانات التي تذبح بمناسبة هذه الوجبات فإنها لا تذبح كلها من مكان الولي بل قد يذبحها أصحابها في منازلهم أو خيامهم. وهي قاعدة قلما تحيد عنها الوعدات بحيث أنها تتشابه في كثير من العادات. وهي تقترن بولي صالح أو صاحب ضريح وفي بعض الحالات تنتسب إلى بعض المقامات والقباب سواء تعلق الأمر بالمناطق الريفية أو الحضرية. لأن هذه الاحتفالات لا يفهم معناها ولا تأخذ قيمة في نظر العامة إلا إذا انتهت

إلى سيدي فلان لاعتقادهم بأن هذا الأخير شرط أساسي في عملية استجابة الدعاء الذي من أجله أقيمت هذه الاحتفالات.

د- الفنون الشعبية كقاسم مشترك بين الاحتفالات

تلعب العادات والتقاليد الشعبية دورا أساسيا في التراث الشعبي وتعتبر من أكثر العناصر انتشارا كما تمتاز بطابع الديمومة والاستمرار على الرغم من أن الظروف التي أنتجتها قد اندثرت ولا يكاد أي مجتمع أن ينسلخ عنها طفرة واحدة. وإذا كانت تخضع لشروط معينة فإن اختلاف البيئة والظروف قد يؤدي إلى اختلاف بعضها عن بعض. غير أن ما يلاحظ بالنسبة لبعض العادات والفنون الشعبية التي تحتويها احتفالات الوعدات تبدو ذات سمات مشتركة تتشابه فيما بينها وقلما تختلف وهذا ما يلمسه المتتبع لاحتفالات الوعدات على مستوى الغرب الجزائري والقطر الجزائري ككل، إذ يلاحظ وجود حتمي لألعاب الفروسية، إذ لا تخلو أي تظاهرة منها ولا يستصيغ الإنسان العادي عدم قيام هذه الألعاب وإلا أصبحت التظاهرات بدون معنى. وما يقال عن هذا الفن يقال عن الفنون الأخرى التي أصبحت ملازمة للوعدات ليس فقط للفترة الحالية وإنما تمتد عبر أزمنة طويلة. ومنها الألعاب الغنائية الخاصة بالرجال والنساء كلعبة الصف ومختلف الألعاب التي يقوم بها الرجال والتي ترافق عادة الغناء.

وتعتبر حلقات الرقص الشعبية (الفردية والجماعية) التي تعقد خلال هذه الاحتفالات من أهم الرقصات الشعبية كرقصة أولاد نهار، والعلاوي ومختلف الرقصات التي تشتهر بها منطقة الغرب الجزائري والتي يتعاطها الكثير من الناس ولا سيما الشباب التي يعبر من خلالها عن رجولته وعن إتقانه لهذا الفن ويسمح هذا النوع من الألعاب بالتنفيس الثقافي للذات المفروضة ويضاف إلى ذلك ألعاب التسلية والمنافسات وألعاب الأطفال وكل هذه الفنون متواجدة بهذه الاحتفالات.

ه- الطابع التراتبي للوعدة

إن الدراسة السوسيولوجية لظاهرة الوعدة تفيد بأنها تخضع إلى التراتبية في بعض المجالات وتعكس التقسيم الاجتماعي الموجود في المجتمع الريفي التقليدي المعتمد على النظام القبلي وكذا تماثل التراتبية التي تتصف بها الزاوية. وأشد ما تظهر في مجال الطعام أثناء تناول الجماعات للوجبات التي تقدم أثناء الوعدة حيث تعكس القيم المرتبطة التراتبية الأسرية. وبهذا تجد الجماعات نفسها موزعة على ثلاث جماعات كما يلي:

1- جماعة شيوخ القبائل ورؤساء العشائر والدواوير إضافة إلى كبار الضيوف الوافدين.

2- جماعة الشباب والناس العاديين بمن فيهم الضيوف الدرجة الثانية.

3- وأخير النساء والفتيات من جهة والأطفال الصغار من جهة أخرى.

ويخضع الجنسان إلى قاعدة تحريم الالتقاء ببعضهم حيث يفصل بين النساء والرجال ويتم التركيز على المراقبة الشديدة لكي لا يتم الاختلاط بين الجنسين تنفيذا للأعراف والتقاليد التي تحكم هذه العلاقات ولاسيما الخاصة بالمحافظة على الشرف لذلك لا يسمح لأي غريب أن يقترب من خيام الدوار بأي حال من الأحوال.

ويمكن الإشارة إلى أن النوع الأول من هذه الجماعات ونعني به الجماعة الأولى من هذه التراتبية قد عرفتها مختلف الوعدات عبر تطورها ومسارها التاريخي وشكلت بذلك جماعة مميزة تحظى بمختلف التشريفات سواء تعلق الأمر بمرحلة الاحتلال أو مرحلة الاستقلال. حيث كانت تخصص خيام للضيافة تتوسط خيام الدواوير[55] للقياد وحاشيتهم ورؤساء العشائر والأئمة وشيخ الزاوية وشيوخ القبائل الصديقة والحاكم العسكري ورئيس البلدية وتخصص لهم ضيافة خاصة تليق بمقامهم وطعاما فاخرا غالبا ما يشكل من اللحم المشوي (المصور) والطعام (الكسكسي) والفواكه التي تبقى بعيدة عن متناول الوافد العادي وقد استمر هذا الوضع حتى بعد الاستقلال وإلى أيامنا هذه حيث استبدل الحاكم العسكري بالسلطات المحلية من ولاة ورؤساء دوائر ورؤساء بلديات وأعيان ومنتخبين على اختلاف مراتبهم إضافة إلى رؤساء الدواوير وشيخ الزاوية والرجال الكبار الذين يدعون من مختلف

المناطق إلى هذه الوعدة حيث تخصص لهم ضيافة متميزة ويحضون بمختلف التكريمات في حين تبقى عامة الشعب لا ترقى إلى هذا المستوى وقد تكتفي بتناول الكسكسي واللحم وينام البعض في بعض الخيام والبيوت أو في العراء وقد يقضي هذه الأيام كلها بطريقته الخاصة. وتسعى القبيلة المنظمة للوعدة من وراء هذا إلى إبراز نفوذها أمام القبائل الأخرى. وترمى من وراء استضافتها لأصحاب القوة والنفوذ إلى إظهار التصاقها بأصحاب الأمر والنهي سواء تعلق الأمر بمرحلة الاستعمار أو الاستقلال.

و- الدعاء عند اختتام الاحتفالات

تسمى في بعض المناطق بـــ " الفاتحة " وفي البعض الآخر بالمعروف وتتم هذه المرحلة عند اختتام الحفل أو التتويج، وتكون عادة بعد صلاة الجمعة وفي بعض الأحيان مع صلاة العصر في ساحة الوعدة. وتشكل دائرة كبيرة تبدأ بالشريحة المشرفة على الزاوية أو المنظمة للوعدة والشيوخ الأكثر تقدما في السن والأعيان يتقدمهم إمام القرية أو مقدم الزاوية الذي يقوم بقراءة الفاتحة بصوت مرتفع وبالدعاء للعباد والبلاد بالخير ويرد عليه الحاضرون " آمين " وبالبر والإحسان إلى سائر المسلمين. ثم يفترق الجميع، متفقين على نفس الموعد من السنة المقبلة وتهنئة بعضهم بعضا بنجاح الزيارة.

إن هذا الدعاء الختامي يعتبر قاسما مشتركا بين كافة الواعدات لأنه في كثير من الحالات ولاسيما أوقات الكوارث والأزمات يشكل هدفا أساسيا لجموع الوافدين الذين يغتنمون هذه الفرصة التي يعتبر فيها الدعاء مستجاب وهذا لطلب الغيث والأمن والاستقرار للعباد والخير لكافة المسلمين في مختلف الأماكن.

لقد لعبت الوعدة كظاهرة صاحبت ظهور الطرق وعبادة الأولياء دورا حيويا في تراث المجتمع. وأخذت مكانة هامة في سياقه التاريخي والثقافي وعملت على أداء وظيفة التماسك الاجتماعي داخل القبيلة. وحافظت على ثقافة المجتمع وعلى إبراز خصائصه المتميزة عن المجتمعات الأخرى ولاسيما الأوروبية منها. وعلى الرغم من تعدد الطرق وتنوعها وعدائها لبعضها البعض في كثير من الأحيان إلا أنها ظلت ذات خصائص موحدة

وتشابه للطقوس والاحتفالات لا تكاد تميزه تلك الاختلافات الطفيفة. وقد لا حظنا ذلك من خلال دراسة بعض الوعدات على مستوى الغرب الجزائري علما بأنها لا تختلف عن مثيلاتها على مستوى القطر إلا من حيث التسمية وهذا ما عكسته تلك الخصائص المشتركة التي ميزت هذه الظاهرة التي تبدو عامة لا تكاد تخلو منها منطقة من مناطق الوطن إذ أن لكل منطقة وليها الذي تنتسب إليه وتقيم له الاحتفالات. وقد تتعدد دوافع الاشتراك في هذه الاحتفالات بين الوافدين إليها ولكنها تتجمع كلها لتعطي لهذه المشاركة مبررها ولاسيما بالنسبة للأحفاد الذين ينتسبون للجد المشترك والذين يرون فيها تراثا شعبيا تركته الأجيال السابقة أمانة في رقاب الأجيال الحالية. كما يتأكد انخراطهم في إعادة إحياء هذا الطقس من خلال الوظائف المتعددة التي تؤديها للمجتمع وأعظمها المحافظة على تقاليد وعادات المجتمع المحلي وإعادة إنتاج المجتمع القبلي ولو على مستوى وعي الأفراد الذين ينتمون إلى الزاوية أو إلى الطريقة بما يضمن إعادة إحياء لهذه الظاهرة وتأمين عدم اندثارها وعدم اضمحلال طقوسها.

الهـــوامـــش:

[1] نور الدين طوالبي، مرجع ذكر في الفصل السابق، ص 123.

[2] محمد عبد القادر، أبو فارس، " **الإيمان والنذور** "، باتنة: دار الشهاب، 1991، ص 132.

[3] المرجع نفسه، ص 137.

[4] مبارك بن محمد الميلي: " **الشرك ومظاهره** "، مرجع سابق، ص 250.

[5] المرجع نفسه، ص 251.

[6] المرجع نفسه، ص 250.

[7] المرجع نفسه، ص 227.

[8] المرجع نفسه، ص 240.

[9] المرجع نفسه، ص 238.

[10] نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 128.

[11] مبارك بن محمد الميلي: " **الشرك ومظاهره** "، ص 238.

[12] عبد العزيز، رأس مال، المعروف المحدد بالمجال ، " **الخصائص والصيرورة** "، المركز الوطني لبحوث ما قبل التاريخ والأنتروبولوجيا والتاريخ، الجزائر في 2001/01/04.

[13] المرجع نفسه.

[14] نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 123.

[15] زكي كمال أحمد، " **الأساطير** " دراسة حضارية مقارنة، الطبعة الثانية، بيروت: دار العودة، 1979، ص 15.

[16] أحمد بن نعمان، " **نفسية الشعب الجزائري** " دراسة علمية في الأنتروبولوجيا. دار الأمة، 1994، ص 65.

[17] المرجع نفسهم، ص 66.

[18] محمد الجوهري وآخرون " **علم الفولكلور** "، دراسة في الأنتروبولوجيا الثقافية، ط1 القاهرة: دار المعارف، 1975، ص 101.

[19] المرجع نفسه، ص 103.

[20] أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 67.

[21] المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[22] عيلان محمد " **الفنون الشعبية الجزائرية، واقع وآفاق** "، مجلة التواصل، العدد 06، جامعة عنابة، جوان 2000، ص 198.

[23] المرجع نفسه، ص 205.

[24] محمد الجوهري، " **علم الفولكلور** "، ص 129.

[25] عيلان محمد، مرجع سابق، ص 199

[26] ATTALAH, DHINA, "LES ETATS DE L'OCCICDENT MUSULMAN AU XIII, XIV ET XV SIECLE " Alger: ENAL P 303.

[27] فيلالي مختار بن الطاهر، " **نشأة المرابطين والطرق الصوفية، وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني** "، الطبعة الأولى، باتنة: دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر، 1976، ص 24.

[28] مبارك بن محمد الميلي: " **الشرك ومظاهره** "، ص 101.

[29] المرجع نفسه، ص 240.

[30] عبد العزيز رأس مال، مرجع سابق، ص 10.

[31] نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 141.

[32] المرجع نفسه، ص 134.

[33] أحمد أمين، " **قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية** "، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1953، ص 116.

[34] سعيدي، محمد، " **من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية، ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا** "، وهران: مركز البحوث الانتروبولوجي، جوان 1995، ص 12.

[35] بدران إبراهيم، وسلوى الخماش، " **دراسات في العقلية العربية – الخرافية** "، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الحقيقة، ص 129.

[36] نور الدين طوالبي، مرجع سابق، ص 122.

[37] بدران إبراهيم، وسلوى الخماش، مرجع سابق، ص 230.

[38] ر. بودون وف. بوركو " **المعجم النقدي لعلم الاجتماع** " ترجمة سليم حداد، الطبعة الأولى، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 321.

[39] منال عبد المنعم جاد الله، " **التصوف في مصر والمغرب** "، الإسكندرية: منشأة المعارف، ص 91.

[40] المرجع نفسه، الصفحة.

[41] المرجع نفسه، ص 89.

[42] LAHOUARI ADDI, " De l'Algérie précoloniale à l'Algérie colonial, Economie et Société ", Alger : ENAL, 1985 P 101.

[43] محمد بوغرارة، وعدة سيدي محمد بن عودة، " **موعد سنوي للفرحة والكرم والتراث** "، الخبر اليومي، العدد 2972 المؤرخ في 2001/09/21.

[44] بلفضال سليمان، " **الأبيض سيدي الشيخ، محطة لاستحضار ومواقف الجهاد والقداسة** "، جريدة الرأي، العدد 970 بتاريخ 2001/07/05.

[45] المرجع نفسه.

[46] محمد طواهرية، " **موسم الحج إلى رقان** " الخبر اليومي، العدد (2853) المؤرخ في: 2000/05/06.

[47] J. DUVIGAUD. " LE DON DU RIEN " Essai d'anthropologie de la fête. Edition STOCK France, 1997.P.P 33-35

[48] مبارك بن محمد الميلي: " **الشرك ومظاهره** "، ص 238.

[49] نور الدين طوالبي، " **في إشكالية المقدس** "، الطبعة الأولى، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص 129.

[50] ALFRED BEL. OPCIT P 91.

[51] Pierre Bourdieu, "SOCIOLOGIE DE L'ALGERIE", 3ème édition "Que sais-je ? " Puf, 1970 P 102

[52] IBID P 103

[53] **LAHOUARI-ADDI OPCIT P101.**

[54] IBID P102.

[55] جمع دوار، ويدل في الأصل على مجموعة الخيام المنصوبة على شكل دائري ثم صار بالتوسع في المعنى يدل على القرية الصغيرة.

الفصل الثالث:

الوحدة، الدوافع والوظائف في المجتمع

- تمهيد

- دوافع الاشتراك في الوحدة:

1- الدوافع النفسية

2- الدوافع الاجتماعية والثقافية

3- الدوافع الاقتصادية

4- الدوافع السياسية

- وظائف الوحدة في المجتمع:

1- الوظيفة الاقتصادية

2- التكافل الاجتماعي

3- الوظيفة الثقافية

- تمهيد

تتعدد دوافع الاشتراك في الوعدة باختلاف ميول ورغبات الوافدين. فقد يعزو البعض انخراطهم في احتفالاتها إلى التخفيف من الأزمات التي يعيشونها والتي تؤمنه بفضل ما يعتقده الوافد في القدرات الخارقة للولي الصالح أو لصلاحه الذي يؤهل الاستجابة إلى الدعاء بجاهه. وقد تتعدى هذا الدافع إلى دوافع اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية أو سياسية. وغالبا ما يتأثر الأفراد بإحدى هذه الدوافع التي تجعله يتحين وقت حدوثها ليحضر احتفالاتها ويندمج في طقوسها. وقد تتقاطع هذه الرغبات مع ما توفره الوعدة من حاجيات أو تتضمنه من وظائف داخل فئات المجتمع المحلي ليجد الإنسان ضالته في هذه التظاهرة التي أصبحت تؤمن ديمومة واستمرار العادات والتقاليد الشعبية على الرغم من أن هناك عوامل عديدة للتغير تعمل على التقليل من فعاليتها وتأثرها على المجتمع.

- دوافع الاشتراك في الوعدة:

1- الدوافع النفسية

لقد حلت عبادة الأولياء محل عبادة الأجداد والأسلاف، وذلك لأن الله يبقى بعيدا في نظر الإنسان البسيط الذي يجد حاجة ملحة لتقريبه والتقرب إليه، لذا يلجأ إلى الوسيط الذي يمكنه من بلوغ هذا الهدف[1] وقد ظل هناك إحساس بين البشر بالفجوة الهائلة التي تفصل بينهم وبين إلههم. ونشأت تبعا لذلك حاجة ملحة لملء هذه الفجوة. وهي حاجة نفسية استغلها رجال الدين لإدامة سلطانهم ولمنع العامة من الانصراف عن الدين. وهو تقليد قديم كان يتبيعه الكهان في الأزمنة الغابرة إذا كانوا يوهمون العامة بأنهم الوحيدون الممتلكون لأسرار الآلهة، القادرون على الاستجابة لها وهم الوسطاء بينها وبين الناس. ومن هنا نرى بأن هذه الحاجة النفسية أدت إلى ضرورة إيجاد الشفيع أو الوسيط. إذ لا تكتفي الطبقات الشعبية بالتعاليم المجردة بل تحتاج إلى وسيط يتحسس مآسيها ويساعدها على حل مشاكلها

وينصرها ضد ظالميها ويتكلم لغتها لهذا فهي تتحول " عن دعاء الرب إلى دعاء نبيه إلى حفيد نبيه إلي سليل بعيد من أهل البيت إلى ولي صالح "[2] تطلب شفاعته ومساعدته وتلجأ إليه وقت الضائقة

وقد توصل " أرنست غيلنر ERNEST GELLNER " في دراسته حول الصراع القائم في الإسلام بين الدين الرسمي والدين الشعبي أن هناك قطبين، قطب التوحيد والسنة والوحي والمساواة في الإيمان، وقطب الاعتقاد في الأولياء والاختيار والحدس والتدرج في علاقة المؤمن بالله... عندما يصبح مفهوم الله شديد التجريد يحتاج المؤمن إلى وسيط حسي يصل بينه وبين الله[3] وفي دارسة قام بها نور الدين طوالبي في قريتي "كرزاز" في جنوب الجزائر و " بني حمدون" حول دوافع السكان في التماس وسيط من خلال القيام باحتفالات الطقس فوجد أن أغلبية السكان قد أكدوا إخلاصهم للأولياء وفي نظرهم فإن الولي هو " الممثل الشرعي لله وبدونه ما كان للإسلام أن ينتشر على الأرض ولما كان عزيزا جدا على قلوب المؤمنين"[4] ويضيف في مقام آخر " يتجلى البعد السيكولوجي للطقس هذا للأوساط الشعبية حيث أن هذا النمط من الطقوس يهدئ حالات القلق ويحقق نوعا من التوازن الداخلي ".[5]

ويظهر هذا السياق السيكولوجي في الارتياح النفسي والشعور بإتمام الواجب عند القيام بهذه الاحتفالات قرب ضريح الولي الصالح وتشكل هذه الطقوس حلا لمشاكله الحياتية وتنظيما لقلقه حيث تخففه لاعتقاده في القدرات الخارقة لصاحب الضريح، ولشعوره الداخلي بأن عدم الإقبال على طقس الوعدة من شأنه أن يعيق طلباته ويؤثر على نيته اتجاه الولي وهو يصيغ هذا الشعور بالعبارات التالية: " تهز كياني فكرة الامتناع عن أداء واجب الوعدة، أكون في حالة من التوتر العصبي الشديد، ولا أشعر بالتحسن إلا مع انتهاء الاحتفال الشعائري، أي بعبارة أخرى، عند إشباع حاجة للمقدس البدائي".[6]

تولد المشاكل اليومية نوعا من الإحباط في نفوس الكثير من الناس ويزداد القلق والتوتر عند استحالة إيجاد الحلول لها مما يؤدي إلى شعور بالعجز إزاءها لاسيما إذا وجدت

هناك عراقيل، تمنع من تجاوزها. لذلك تلجأ الطبقات الشعبية إلى الأولياء وتغتنم الفرص أثناء قيام الاحتفالات لتحقيق طلباتها والتخفيف من آلامها ومن المظالم (أثناء اشتداد الكوارث الطبيعية، الأزمة الأمنية، مظالم الحكام) وحينما تعجز عن تجاوز هذه الأوضاع الصعبة حينذاك " تعتقد أن الأمل الوحيد لحلها يبقى مرتبطا بسلطة فوق بشرية عند الولي الصالح الذي تخضع له كلية ومن هنا تكون دوافع اللجوء إلى الأولياء لحل المشاكل والبحث عن الراحة النفسية ولا يكون ذلك إلا من خلال إحياء الطقس عند استحضار الماضي[7] وبالتالي فإن إقامة الوعدات هي عملية توحي بالاطمئنان لدى هذه الأوساط، فالظلم والحرمان والفقر ليست إلا أسباب تدفع الناس إلى البحث عن أمل سحري يخلصها من معاناتها اليومية ويؤمن لها الهدوء والطمأنينة التي تعتبر أقوى حاجات الإنسان. ولهذا تلجأ الطبقات الشعبية إلى أضرحة الأولياء وزواياهم لإقامة الاحتفالات الطقسية والتي تختتم غالبا بالدعاء وهو نوع من الترويح عن النفس والبحث عن الحلول المناسبة والأمل في الفرج القريب وفي هذا الصدد يقول حليم بركات في دراسة أجراها حول مسألة الاعتقاد بالأولياء في المجتمع العربي: " فليس من العجب أن تلجأ الطبقات المحرومة إلى الأولياء بحثا عن حلول لمشاكلها اليومية الاقتصادية والنفسية.[8]

2- الدوافع الاجتماعية والثقافية

لقد دأب الناس على إقامة الاحتفالات احتفاءا بشيخ الطريقة عند زاويته كل سنة، وبتكرار هذه العملية أصبحت عادة اعتادها الناس. وقد يحتفل بالشيخ بعد مماته قرب ضريحه وتقام الولائم وتقدم الذبائح. وبهذا المعنى يصبح الاحتفال نوعا من الممارسات الاجتماعية والإجراءات المقررة التي تتصف بالمظهر الرسمي، وتلتقي فيها الشعائر والطقوس والمراسم والرموز والأساطير...التي تبلورت حول معان وقيم وأحداث لا يمكن للأفراد أن يعزلوا أفكارهم ومشاعرهم عن التغني بها وتذاكرها في مناسبتها الدورية. وفي هذا الصدد يقول

روس: " الاحتفال هو الرابطة التي تجمع شتات الجماهير، وإذا انحلت هذه الرابطة تفرقت الجماهير وأصبحت أمورها مضطربة."(9)

ولا شك أن التخلف الاقتصادي والثقافي يلعب دورا كبيرا في انتشار وترسيخ العادات والتقاليد الشعبية حتى تأخذ في كثير من الأحيان طابع القداسة وتختلط بالدين. ويعتقد الكثير أنها جزء لا يتجزأ منه كزيارة الأضرحة وقصد الزاوية لحل ما استعصى من المشاكل أو الاحتكام إلى الولي اعتقادا بأنه يعلم الغيب وأنه قادر على رد المظالم إلى أهلها. وازداد تعلق الناس بالأولياء وكراماتهم فازدادت سلطتهم الروحية واتسع نفوذهم وكثر عددهم وقد كانت سيطرة الطرق على الجماهير الشعبية كبيرة، وأصبح شيوخ الطرق يلعبون دورا أساسيا في المقام الأول منذ عهد المرابطين، فحياة الشعب كانت قاسية وكانت الطاعة كلية من المريد إلى الشيخ، أصبحت الحياة الروحية مقيدة بتقديس الشيخ، وأضحت أضرحة الشيوخ المتوفين موضوع عبادة.(10)

وقد أدى الإقبال المتزايد عليهم إلى رفع مكانتهم وتوسيع نفوذهم مما جعلهم يدعون الولاية وتحولت لديهم إلى وراثة يرث الابن أباه. ومن هنا كانت الفكرة القائلة: بأن البركة الإلهية تفيض على الولي ثم تنتقل إلى ذريته فيصبح جميعهم شيوخا يلتمس منهم الناس البركة كما تتسابق القبائل ليكون لكل منها وليها يعزز شوكتها ويدعم مركزها ويصبغ عليها بركته مما ساهم في انتشار الأولياء.(11)

لا زالت المعتقدات الشعبية تتضمن المورثات الثقافية التي ترتبط بعدد من العقائد والممارسات الباقية في المجتمع عبر مراحل تطوره المختلفة. ورغم أن هذه الموروثات قد فقدت وظيفتها الأساسية في المجتمع، فهي تملك القوة اللازمة للبقاء والاستمرار بفضل ما تحتله من مكانة في السياق الثقافي للمجتمع الذي تنتمي إليه كالوعدة التي تأخذ قيمة دينية في منطقة ما لأن الناس يقومون بها إكراما للولي. وهي تستقطب آلاف الزوار الذين يحنون إلى عيش هذه الظاهرة نتيجة للترسبات الثقافية الماضية. وتعد الاحتفالات بمثابة تظاهرة

ثقافية يعيشها الوافدون سنويا حيث أنها تحوي الكثير من الفنون الشعبية التي تستهوي العديد من الأفراد كالرقصات الشعبية، ألعاب الفروسية والغناء وغيرها من العادات الشعبية.

إن اللجوء إلى إحياء هذه الاحتفالات وإقامة مختلف تظاهراتها واختتامها بالدعاء إنما يهدف إلى التقليل والتخفيف من القلق والتوتر النفسي الذي يعانيه العديد من الناس بحكم أنهم يعتقدون اعتقادا جازما في أن المشاكل المستعصية لا بد وأن تجد حلولا لدى الولي الصالح وهذا تجسيدا لمبدأ التوكل على الله الذي نادت به المتصوفة والذي لا يتطلب بذل أي مجهود شخصي بل يضع مصيره بيد الله كما يقول كبار المتصوفة: " الذي يوكل أمره إلى الله هو ابن اللحظة (الوقت) فهو لا ينظر إلى الوراء للماضي ولا إلى الأمام نحو المستقبل.[12]

ويقصد الصوفية بالتوكل دعوة الناس إلى التوكل على الله والثقة المطلقة به، تاركين الأمر كله لمشيئته من غير أن يعملوا شيئا ذاهبين إلى أن أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغسال، يقلبه كيف يشاء، لا يكون له حركة ولا تدبير،[13]ومن هذا المنطلق تشكل لدى العامة موقف سلبي اتجاه الحياة وأصبح الناس يستندون في حل مشاكلهم على بركة وكرامات صاحب الضريح وزادت اعتقاداتهم فيه وأصبحت متواترة على مر الزمان وترسخت في عقولهم كترسبات ثقافية لا محيد لهم عنها.

ولا تقتصر الوعدة على هذا الجانب بل تتعداه إلى جانب هام وهو جانب التكافل الاجتماعي بين الناس حيث يتم فيها الإحسان إلى الفقراء والمساكين وتبرز روح التآخي والتضامن بين الأغنياء والفقراء حيث تعتمد الجماعة إلى توزيع الزكاة لتشمل المحتاجين ومساعدة المساجد والزوايا بتخصيص مبالغ لفائدة الطلبة (معلمي القرآن) وعقد قران الأزواج وغيرها من وجوه الصدقات. كما يتم إصلاح " البين " ذات البين بين المتخاصمين في مختلف المجالات (كالجرائم، النزاعات العقارية وغيرها) ولو أن هذه الوظيفة قد أصبحت حاليا من اختصاص الدولة فإن دور الجماعة لا يستهان به في مجال التخفيف من شدة التوتر فقد تحدث عبارة " جاه سيدي فلان " لدى المتخاصمين مفعولا سحريا يسكن روع المتنازعين باستجابتهم لجاه الولي الصالح. وتشكل الاحتفالات إطارا أمثل لتدعيم العلاقات

الاجتماعية بين الأفراد والأسر, وتعتبر مكان تجمع للقريب والبعيد حيث يفد عليها كل من هجرها بمجرد أن يعلم أنها تقام في وقتها المحدد. وتمثل بهذا المعنى جوا ثقافيا واجتماعيا يمكن من إعادة تشكيل القبيلة في المخيلة الشعبية ويشجع الفرد على إعادة ربط أواصر القرابة مع مختلف أفراد العشائر التي ينتمي إليها. كل هذه العوامل المذكورة تمثل دوافع رئيسة تدفع الفرد للاشتراك في مختلف احتفالات الوعدة كما تجعل العديد يساهمون فيها بأموالهم وجهودهم ولاسيما إذا تعلق الأمر بالفرد الذي يحس أنه حفيد الولي الصالح الذي تقام على شرفه الاحتفالات.

3- الدوافع الاقتصادية

لقد أشرنا سابقا إلى تأثير الظروف المناخية على الزراعة في الجزائر حيث أنها غير منتظمة السقوط ولاسيما في فصل الشتاء إذ كثيرا ما يطول سقوطها مما يؤدي إلى كارثة طبيعية وهي الجفاف الذي له آثاره الوخيمة على الإنتاج الفلاحي وبحكم أن المجتمع الجزائري يعد مجتمعا زراعيا ولاسيما في فترة الاحتلال يعيش أفراده على الزراعة وعلى تربية الماشية ويرتبط الإنتاج بما تجود به السماء من أمطار. لذلك نرى الفلاحين يتمنون سقوطها بانتظام، وإذا حدث وتأخرت فإنهم يعزون ذلك إلى نقمة أصابتهم. وهذا ما يبرر إقامة الوعدة لطلب الغيث والاستسقاء الذي تحتاجه الأرض لإخراج نباتها وزيادة غلتها. ومن هذه الناحية فإن الاحتفال يعد في نظرهم وسيلة لاستدرار الأمطار. ويزيد اعتقادهم رسوخا حينما يلجؤون إلى شيخ الزاوية أو مقدمي الطريقة طالبين منهم الدعاء لهم بنـــزول الأمطار لأنهم ذوو بركة، ولا يستجاب لهم إلا إذا قاموا بالاحتفال وقدموا الذبائح (القرابين) وقرأوا الفاتحة وتوسلوا إلى الله بجاه الولي الصالح وإذا كان الوضع في السابق يفسر على أساس انعدام الوعي الديني لدى العامة بفعل عامل الأمية والتعلق بعبادة الأولياء مما يجعل الكثير من الناس لا يعطون أهمية للصلاة الشرعية للاستسقاء، فإن ممثلي الدين الرسمي يعتمدون على إقامتها ولاسيما حينما تجذب الأرض ويستمر القحط. وعلى الرغم من ذلك فإن العامة تفسر عدم الاستجابة لدعاء الاستسقاء بعدم احترام معايير الاحتفالات الشعبية ولاسيما

طقس الوعدة مما يدفعها إلى إقامة هذه الوعدات التي تعتبرها وسيلة فعالة للحصول على المطر.

وإلى جانب هذا العامل فإن الاحتفالات تتميز بإقامة عدة نشاطات اقتصادية تستقطب اهتمام الوافدين وتشكل بذلك سوقا مفتوحة لمختلف المنتوجات الريفية إضافة إلى المنتوجات المصنعة التي يعرضها التجار. وقد استغل هذا النشاط قديما وحديثا حيث كان الفلاحون يعرضون منتوجاتهم الفلاحية والماشية التي تقدم كذبائح ومختلف السلع التقليدية وكانت تستغل كسوق سنوية لتصريف مختلف المنتوجات والتبادل بين أفراد القبيلة الوافدة. أما حديثا فإنها تستغل كمكان لبيع مختلف المنتوجات وبهذا أصبح الدافع الاقتصادي ذا قيمة كبيرة سواء في نظر المنظمين أو الوافدين على الوعدة التي أصبحت تتيح اقتناء مختلف السلع من قبل سكان المنطقة أو الضيوف الوافدين عليها.

4- الدوافع السياسية

للمحافظة على مصالحها المختلفة ولتدعيم موقفها واستقرار المجتمع لجأت السلطة ولازالت تلجأ إلى استخدام الدين لبلوغ هذه الأهداف وذلك عن طريق صرف نظر الشعب عن المشاكل الحقيقية التي يعاني منها بجعله يلتجئ إلى الأولياء والصالحين هروبا من مواجهة الواقع الذي يعيشه. وهذا ما يجعل هذه السلطة تركز على التدين الشعبي وتشجيع المؤسسات الدينية الشعبية كالاهتمام بالأولياء وتقديسهم وإقامة المواليد والوعدات والتعلق بعبادة الأولياء وبهذا يصبح الدين من أجل تدعيم وجودها ويوظف في دعم موقفها وتثبيت شرعيتها ووجودها.(14)

يظهر موقف السلطة من هذه الممارسات حيث تلجأ مختلف مؤسساتها إلى المساهمة بشكل مباشر أو غير مباشر في تكريس هذه الطقوس عن طريق دعمها والإشراف عليها وتنظميها في كثير من الحالات حيث يعهد إلى لجان للتنظيم غالبا ما يرأسها ويديرها أحد أفراد السلطة كرؤساء الدوائر والبلديات ويتمثل دورها إلى جانب عملية التنظيم في توفير الوسائل المادية من خيام ونقل وتوفير للمياه وغيرها مما يجعلها تتحكم في كل مجريات

الأمور. وعلى الرغم من ذلك فإنها لا تبذل أي جهد في تحويل هذه الطقوس من مهرجانات للخرافات والشعوذة إلى مهرجانات اجتماعية واقتصادية أكثر تقدمية بل أن المؤسسات الحكومية تقف في كثير من الأحيان موقف العجز أمام ضريح ولي من الأولياء كما يقف الإنسان العادي البسيط[15] وتسعى السلطة من وراء ذلك إلى جعل الطبقات الشعبية تفوض أمرها للأولياء بهدف إبعادها عن التفكير في تغيير أوضاع المجتمع وبذلك تتحول إلى كائنات عاجزة سلبية لا تؤمن إلا بقدرة الأولياء تنتظر مصيرها المحتوم بصبر وأناة تجسيدا للمثل والشعار الطرقي القائل " ناكلو لقوت ونستناوا الموت ".

وإذا كان الأمر يقتصر في فترة الاحتلال على دعوة الحاكم العسكري والقياد ورؤساء القبائل والعشائر والدواوير والأئمة فلأن الاستعمار الفرنسي لم يكن ليسمح بإقامة وعدة لا يشرف عليها واستخدامها لأغراضه عن طريق الرخص التي كان يقدمها لإقامة الوعدات وقد استبدلت هذه الفئات في الوقت الحاضر بالسلطات المحلية المنتخبين (المجالس الولائية والبلدية والوطنية) حيث لا يخلو أي احتفال من حضورهم. وبهذا يتأكد الدافع السياسي إلى إقامة هذه الوعدات التي تسعى السلطة من خلالها إلى إلهاء الشعب وجعله يتعلق بتقديس الأولياء وإبعاده عن المشاكل الحقيقية وإعادة إحياء الفكر القبلي الضيق الذي لا يهتم إلا بمشاكله دون ربطها بالمشاكل التي يعاني منها جل الشعب وهذا من شأنه أن يصرفه عن التفكير في تغيير الظروف الكفيلة بتحسين أوضاعه بما يتناسب مع طموحاته وآماله.

- وظائف الوعدة في المجتمع:

تنادي النظرية الوظيفية بضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية من حيث الوظيفة التي تؤديها. وكثيرا ما تبدو غامضة لا تخضع لمنطق يبرر وجودها غير أنها تتضح وتظهر معالمها حينما ننظر إليها في علاقتها الوظيفية أي في أساسها في استمرار الحياة الاجتماعية في التركيز على فكرة التكامل الاجتماعي للأجزاء في الكل.

ويرى " راد كليف بروان RAD CLIFF BROWN " أن الوظيفة هي الإسهام الذي يسهم به كل فعل اجتماعي معين في الحياة الاجتماعية من أجل بقائها. فال....الاجتماعي

يشكل وحدة وظيفية متكاملة ومنسجمة[16] ومن هذا المنطلق يركز على عناصر البناء الاجتماعي ويرى أن كل منها يؤدي وظيفة معينة. أما " مالينوفسكي " فيوسع هذا المجال ليشمل الحضارة بكل ما تتضمنه من معتقدات وأفكار وعناصر مادية وأن لكل منها وظيفة حيوية. وهو ما يؤكد على أن في كل نمط من أنماط الحضارة، لكل عادة، لكل موضوع مادي، ولكل فكرة، ولكل معتقد، يحقق وظيفة حيوية، واجبا يجب أن يؤديه وأنه كل منها يشمل جزءا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه ضمن الكل الذي يشمله[17] وبذلك تصبح الثقافة عنده عبارة عن بناء كلي وظيفي ومتكامل شبيه بالكائن الحي، وأننا لا نستطيع أن نفهم أي جزء من أية ثقافة إلا في ضوء علاقته الوظيفي بالكل.

يؤكد كل منهما على أهمية التكامل والاعتماد المتبادل بين أجزاء النسق الاجتماعي أو الثقافي وأهمية الدور الذي يلعبه الجزء في الكل الثقافي وأنه لا يمكن فهم الجزء إلا من خلال الكل أو خلال علاقته بالكل الاجتماعي أو الثقافي. وهكذا أصبح مدلول كلمة وظيفة يغطي في نفس الوقت الروابط القائمة بين العناصر الثقافية، والمساهمة التي يقدمها جزء من الثقافة إلى تلك الثقافة ككل.

وفي هذا المجال يمكن الإشارة إلى مختلف العادات والتقاليد التي يزخر بها المجتمع والتي تعبر عنها الطقوس المختلفة التي تحافظ عليها الفئات العريضة من المجتمع في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي تؤدي وظيفة معينة في المجتمع استمرت ودامت على مر الزمن على الرغم من تغير الظروف وحدوث تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية. ومن هذه العادات الذبح للطيرة، نحو أن تشتري دارا فتذبح لتبعد العين ولئلا يصبك مكروه من جنها وهو ما يقابله عند العامة الذبح على العتبة عند دخول الدار بعد بنائها أو شرائها. ومن ضمن هذه الطقوس يمكن ذكر إقامة الزردات بمناسبة ختان أو الزواج أو ذهاب وإياب الحاج إلى البقاع المقدسة مع ما يتطلبه كل ذلك من طقوس تناسب كل منها ظاهرة معينة. ولعل من بين الطقوس التي استقطبت اهتمام الفئات على اختلاف مستوياتها هي لجوء العديد من الناس ولاسيما النساء إلى الكهنة والعرافين حينما ييأسن

مكتبة الكلية

لبعض المشاكل التي يتخبطن فيها كأن يعجز الطب في معالجة داء، فمن أصابه مس من الجنون ينقل على قبة من القباب وتقوم النساء بذبح ديك أسود ويبيت المريض بجانب القبر ليشفى من المرض وقد تتخذ المزارات والتبرك بها وتعليق الخرق على أشجارها وتقديم الشموع والمباخر إلى الأضرحة وتقبيل جدران القباب والتضرع إلى صاحب الضريح من أجل كشف الأضرار ورجاء الخير وطلب الصحة والعافية والبركة والتظلم عنده عسى أن ينصف الشاكي ويرد عنه المظالم.

من هذه المعتقدات فإن الولي حينما يموت تظل روحه تنتقل بكل حرية من كل مكان، ولقضاء حاجة فعلى الطالب أن يستنجد باسمه ليتم له ما أراد وهو سلوك يلجأ إليه الناس عند وقوع المصائب والكوارث فيستنجدون بالولي الصالح سلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني " يا مولاي عبد القادر يا سلاك الواحلين " وقد رسخت هذه العادات في نفوس الناس وتوارثت جيل عن جيل وشكلت عاملا مشتركا بين جميع فئات المجتمع طبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية. وبذلك أصبحوا وسائل دفاع عن هذه المعتقدات ذات الطابع المقدس. وهي ممارسات شعبية تأخذ في كثير من الحالات أهمية بالغة في نفوسهم قد تتجاوز في كثير من الحالات المعتقدات الدينية الإسلامية بسبب جهلهم لهذه الأخيرة. وفي هذا الإطار فإن الاحتفال السنوي على شرف الشيخ الزاوية وصاحب الضريح كثيرا ما يشكل ظاهرة مقدسة بالنسبة لكافة أفراد القبيلة تجب إقامتها في وقتها المحدد مما يؤدي إلى ترسيخها في أفكار البسطاء كواجب مقدس اتجاه الولي يؤدى طواعية ودون إكراه.

وظاهرة الوعدة طقس من هذه الطقوس التي ارتبط بالتراث الشعبي وبالزوايا كمظهر من مظاهرها، وهي وإن طبعت بعض هذه المظاهر إلا أنها قد ظهرت قبل ظهور هذه الأخيرة وقد أشرنا إلى ذلك عند التعرض لعادات السكان الجزائريين القدماء. وقد برزت من جديد عند ظهور عبادة الأولياء وشيوخ الطرق وقد تطابقت بساطتها مع بساطة أفكار الجماهير الشعبية واعتنقتها وأصبحت المدافعة عنها وقد تدعمت بفعل الدعم المتواصل الذي مثله رؤساء الطرق والزوايا ولاسيما في الفترتين العثمانية والاستعمارية الفرنسية. وبذلك توطدت

أركانها واتسع مجالها ليشمل كل المناطق ولاسيما المناطق الغربية منها. وقد صاحبت الزوايا سابقا حيث كان يقوم أفراد القبيلة بحرث وزرع أراضي الزاوية وحصادها في فصل الصيف وهو ما يشبه إلى حد بعيد السخرة وتتوج هذه الحملة بإقامة وجبة جماعية على شرف المشاركين من قبل الشيخ وهو ما يعبر عنه بالوعدة. وهذه الظاهرة تتكرر كل سنة يقدم فيها الناس ولاءهم اللامشروط للشيخ معتقدين فيه الكرامة والإطلاع على الغيب مما يجعلهم يتظلمون لديه عسى أن ينصفهم من ظالمهم إضافة إلى طلب الشفاء من الأمراض وغيرها من المطالب التي يرجون تحقيقها وكلهم اعتقاد راسخ في كفاءته وقدرته.

وقد أدى هذا الاعتقاد في شيوخ الطرق والزوايا والأولياء بالناس إلى الحلف بهم بدل الحلف بالله سبحانه وتعالى كما يتجنبون سبهم ظنا منهم أنهم مطلعون على سرائرهم وفي هذا الصدد يقول محمد بن مبارك الميلي: " فلم يطمئنوا إلا للحلف بأوليائهم وهكذا تراهم يعظمون الإيمان بأوليائهم ويخشون الحنث فيها أكثر من تعظيم اليمين بالله وخشية الحنث فيها.(18)

وقد أصبغت الذاكرة الشعبية طابع القداسة على هؤلاء الأولياء وجعلت واسطة بينهما وبين الخالق. ولذلك كان لزاما عليها تعظيمهم عن طريق تقديم العطايا والصدقات والزيارات وإقامة الولائم على شرفهم أحياءا وأمواتا. ومن هنا أصبحت المعتقدات الشعبية هي المتحكمة في إقامة هذه الاحتفالات ويتدعم هذا الجانب الديني بالجانب الاقتصادي حيث أن إقامة الوعدات تعد عند الفلاحين والموالين من أسباب الاستسقاء ونزول الغيث ولاسيما حينما تنحصر الأمطار ويحل الجفاف. وقد تأخذ مكان صلاة الاستسقاء حينما تسمح الظروف المناخية بسقوط الأمطار.

ويزخر الغرب الجزائري بوعدات كثيرة، قلما تخلو منها منطقة. وتتباين فيما بينها على مستوى تظاهراتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أو على مستوى الهدف من إقامتها، ويضاف إلى ذلك أهميتها بالنسبة للمنطقة وطابعها المحلي أو الجهوي أو الوطني. فهناك وعدات تقتصر على بعض القرى والمدن الصغيرة إن لمن نقل على بعض القبائل مما يجعل

أهميتها محدودة محليا. فقد يقوم بها بعض الكبار، وتصبح إقامتها مرهونة بوجودهم وقد تتلاشى نهائيا إذا لم تجد من يقوم بتجديد واستخلاف القائمين عليها فيخبو لهيبها يأفل نجمها. في حين أن هناك وعدات ذات طابع وطني بوعدة سيدي أحمد المجذوب بعسلة، وسيدي محمد بن عودة بغليزان، وهناك من لها طابع جهوي كوعدة أولاد نهار وكثير من الوعدات بالغرب الجزائري. وتجمع هذه الظواهر بالإضافة إلى طابعها الديني والتاريخي، الجانب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

وتختلف تركيبة من يؤمها عند الوعدات الصغيرة، إذ تستقطب أعدادا كبيرة من الناس ذوي مستويات ثقافية مختلفة ومن جميع أنحاء الوطن. ونظرا لأهميتها، فإن أجهزة الدولة تتدخل في عملية التنظيم، ويظهر تواجدها من خلال حضور ممثليها في مثل هذه التظاهرات كالولاة والنواب ورجال الدولة كما تساهم أجهزتها في توفير بعض الجوانب المادية، كنقل الأمتعة وحضور سيارات الإسعاف والأمن. وهي تحاول تأطير هذه الاحتفالات واستغلالها ثقافيا وسياسيا ولاسيما كوسيلة من وسائل محاربة التطرف وإظهار التدين الشعبي كبديل له لما يتسم به من بساطة في المعاملة. وأنه عام ومعتنق من قبل الجماهير الشعبية العريضة. وبهذه الطريقة فإنها تساهم في إعادة إنتاج مثل هذه الظواهر، وإعادة بعثها من جديد ولاسيما بعد فترة الجمود التي عرفتها البلاد.

أما من حيث التنظيم، فقد اعتاد المنظمون في مختلف التظاهرات الاحتفالية إقامة خيام كل دوار بمعزل عن خيام دوار آخر على أن يقع موقعها بعيدا عن مكان الاحتفالات وهذا تجنبا لأي مشكل وحتى لا يختلط الغرباء بالعائلات المنظمة للوعدة. وبفعل التطور الاقتصادي المتزايد فقد تحول العديد من الوعدات إلى شبه أسابيع اقتصادية وأصبح البعض الآخر يركز على الجانب الفولكلوري والثقافي. وقد تواجدت هذه الأصعدة منذ القدم في هذه الوعدات غير أنها تفاوتت بفعل التنمية الاقتصادية حيث أصبح التركيز في السنوات الأخيرة على الجانب الاقتصادي علما بأن الجوانب الأخرى لها أهميتها في إقامة هذه الاحتفالات.

وعلى الرغم من هذه الاختلافات فإن الوعدة تظل حدثا مشتركا بين كثير من المناطق قاسمها المشترك طابعها الديني حتى لو أن هذا الأخير يعدها انحرافا عن التعاليم الإسلامية الحقيقية الشيء الذي يتشبث به الأتباع معتقدين أنها تطبيقا للمبدأ الصوفي المعرف " اعتقد ولا تنتقد ". ولعل هذا من بين الأسباب التي ساعدت على ديمومة الوعدة واستمراريتها. ولهذه الأخيرة دور كبير في حياة المجتمع ولاسيما الريفي منه حيث تدعم التماسك الاجتماعي بين أفراد القبيلة، وتحافظ على التقاليد والعادات الشعبية من الاندثار. ويتعدى دورها إلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي تغيرت بتغير العوامل المؤثرة فيها حسب المراحل التاريخية المتعاقبة (التغير من حيث المحتوى دون الجوهر)، ويمكن استشفاف ذلك من خلال دراسة وظائف الوعدة وهذا يقودنا إلى إلقاء الضوء على أسباب بقائها على الرغم من العوامل التغير الكثيرة التي مست المجتمع الجزائري في مختلف مجالاته:

1- الوظيفة الاقتصادية

الوعدة حدث مؤطر بالزمان والمكان تتميز به القبائل وتعرف به. فتقوم كل قبيلة سنويا بإقامة وعدة على شرف ولي معين تعرف بالميل له وإتباع طريقته وخدمة أحفاده حذوا بما ورثه الآباء من محبة الولي ولأحفاده من بعده. تقام الاحتفالات من قبل قبيلة معينة أو بالاشتراك مع قبائل أخرى في فصل الخريف: أواخر شهر سبتمبر أو بداية شهر أكتوبر من كل سنة. ولم تكن الوعدة وليدة اليوم بل تضرب بأعماقها في القدم ولكن حسب أشكال مختلفة وتبعا لتطور المجتمع وتعرضه لثقافات الغزاة وقد أشرنا إلى ذلك عندما تعرضنا لأشكال الاحتفالات عند سكان الجزائر القدماء. وقد برزت من جديد مع ظهور الطرق والأولياء الصالحين الذين زخرت بهم البلاد مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي ولاسيما مع الوجود العثماني في الجزائر الذي عمل على تشجيع هذه الممارسات وأغدق الأموال على الشيوخ والأولياء وعلى مختلف الاحتفالات التي كانوا يقيمونها حتى يتمكن من تطويع الأتباع وحتى يستغل نفوذ هذه الطرق في توطيد أركان الخلافة العثمانية بالجزائر. وقد حافظت قوات الاحتلال الفرنسية على هذا الأسلوب في التعامل مع الطرق حيث أوعزت

إلى القياد ورؤساء القبائل والأعراش والدواوير بالحرص على إقامتها في وقتها وقد رأت فيها وسيلة لإبعاد الأهالي عن المقاومة ولتأصيل الفكر القبلي الضيق حتى لا يكون هناك تفكير وطني في مقاومتها. وفي المقابل فقد شكلت الوعدات وطبعت الثقافة المحلية التي وجدت فيها ثقافة تميزها عن ثقافة المستعمر وتحافظ على مختلف العادات والتقاليد التي يرتبط الكثير منها بالتعاليم الإسلامية ومنها المحافظة على التماسك الاجتماعي لأفراد القبيلة وكثيرا من القيم كالضيافة والكرم والتكافل الاجتماعي وفك الخلافات والخصومات بين الأفراد دون الاعتماد على المؤسسات الفرنسية (الأحوال الشخصية، المعاملات العقارية، المواريث) وعلى الرغم من قوة الحضارة الغربية المدعمة بمختلف الوسائل المادية والعلمية. فإن هذه التقاليد التي حافظت عليها الوعدة شكلت حصنا منيعا أمام الثقافة الوافدة استطاع مقاومة الغزو الثقافي الاستعماري، وحافظت على التواصل والتلاحم بين أفراد الشعب. وقد كانت الأنشطة التي ترتكز عليها تضم الأنشطة الاقتصادية وبذلك أخذت معالم سوق سنوية مفتوحة لمختلف المنتوجات الريفية إضافة إلى منتوجات مصنعة يعرضها تجار محترفون يقتنيها الوافدون من أفراد القبائل الأخرى. كما يعرض الفلاحون منتوجاتهم الفلاحية للبيع وسط خيام موزعة حسب طبيعة النشاط أو تعرض في أماكن مخصصة لذلك وغالبا ما تخص هذه المعروضات الحبوب والبقول الجافة والأعلاف والحيوانات للبيع ولاسيما الأغنام والماعز التي تشكل حيوانات مفضلة للذبح في هذه المناسبة.

بهذا تتم عملية تبادل الفائض من المنتوجات، أو شبه سوق مغلقة لسكان المنطقة. وقد كان هذا حالها أثناء الاحتلال الفرنسي لأن المجتمع الجزائري كان يعتمد على الاقتصاد الزراعي الذي يرتبط إنتاجه على ما تجود به السماء من أمطار لذلك يتمنى الفلاحون سقوطها بانتظام. وإذا حدث وتأخرت فإنهم يعزون ذلك إلى نقمة أصابتهم. وهذا ما يشكل سببا من أسباب إقامة هذه الوعدات في بعض المناطق لاسيما في الشمال للاستسقاء الذي تحتاجه الأرض لإخراج نباتها وزيادة غلتها. ويعد الاحتفال في نظرهم وسيلة لاستدرار الأمطار ويرسخ في اعتقادهم حيث يلجأون إلى شيخ الزاوية أو مقدم الطريقة طالبين منهم

الدعاء لهم بنـــزول الأمطار لأنهم ذوي بركة وأن دعائهم لا يرد. وقد ترسخت هذه الفكرة في عقول الناس ولا زال الكثير من الناس ينسبون الجفاف وجدب الأرض بعدم إقامة الوعدات وذهاب البركة بعد تبني الناس أفكارا علمية تنفي أي أثر لهذه الظاهرة على سقوط الأمطار ويتساوى لديهم في هذا الشأن رجال الدين ورجال العلم على حد سواء لأن كل من الفريقين لا يؤمن بهذه المعتقدات الشعبية.

وقد ساعدت هذه السوق السنوية في رفع مدخول الفالحين عن طريق تشكيلها كمنفذ لمنتوجات الصناعة التقليدية التي كان تمتهنها الكثير من الجماهير كمنتوجات الحلفاء المتمثلة في الحصر والأطباق والأكياس والسلال والقفف وغيرها. وهي منتوجات يؤدي بيعها إل زيادة مداخيل الفلاحين يمكنهم من مواجهة النفقات المتزايدة التي كان يتطلبها الوضع أثناء الاحتلال ويضاف إلى هذه الحرف حرفة الخشب التي تستخرج منها الملاعق والمهاريز وغيرها من المنتوجات التقليدية التي كانت مزدهرة أثناء الاحتلال الفرنسي.

وقد تطورت هذه المنتوجات بتطور البنية التحتية للمجتمع وحلول الآلة مكان اليد حيث غزت المنتجات المصنعة الأسواق. غير أنها لم تقض على المنتوجات القديمة كليا بل لا زالت هناك سلع تقليدية تعرض ولكن بكميات قليلة وبأسعار مرتفعة وهناك حرف تستمد وجودها من تربية الماشية كصناعة الصوف والجلود (المزاود، الباريح)[19] وهي منتوجات بسيطة تؤدي وظائف أساسية في المجتمع الريفي وترتكز عليها حياة السكان ويستغلونها في حياتهم اليومية. ويضاف إلى هذا توافد التجار المحترفين الذين يعرضون منتوجاتهم من الألبسة الكتانية والأدوات الحديدية البسيطة وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة هذا النشاط قد تغيرت بتغير المواد المعروضة وحلول التجار المحترفين محل الفلاحين والذين تنوعت منتوجاتهم بحيث أصبحت تشمل أنواعا متعددة وتشكل شبه سوق أسبوعية من حيث التنظيم والمواد المعروضة.

تكتمل النشاطات السابقة ببيع الحلويات والمشروبات التي غالبا ما تكون محط رحال الغرباء الوافدين على الوعدة من مناطق أخرى. ويشكل بيع الحلويات مناسبة هامة للأطفال

لاقتنائها وقد تغيرت وضعية هذا النشاط بحيث أصبح يضم أجنحة خاصة بها حيث تقدم المشروبات المتنوعة إلى الوافدين بما يتوافق مع التقدم الذي عرفه المجتمع.

ولعل أكثر النشاطات التصاقا بالوعدة والملازمة لها والتي بدونها تصبح غير ذات أهمية لعبة الفروسية التي تتطلب توفير معدات خاصة بالفرسان والحصان والتي تقع على عاتق حرفة الحدادة وإصلاح السروج والأسلحة التي تستعمل في لعبة البارود المرافقة للعبة وللرقصات الشعبية التي قلما تخلو وعدة منها. وقد استمرت هذه الحرفة. وهناك أمل لإعادة إحيائها بفعل العودة إلى مهرجانات ألعاب الفروسية التي أصبحت تقام بانتظام وكذلك إعادة إحياء كثير من الوعدات التي تشكل الفروسية فيها اللعبة الرئيسية (القوم)[20] كما يسميها العامة في بعض المناطق.

مما سبق يتبين أن الوظيفة الاقتصادية هي وظيفة أساسية بحيث تشكل سوقا سنوية للمنتوجات الريفية تساهم في تطوير الاقتصاد المحلي وما يكمله من نشاطات مساعدة، وتعد عنصرا هاما هي تثبيت الجماهير الريفية وتحسين أوضاعها وعامل حفظ وتنشيط للتراث الثقافي والفني ومصدرا للدعاية الداخلية والخارجية للفن الشعبي.

2- التكافل الاجتماعي

وظيفة التكافل الاجتماعي أساسية ينص عليها الدين الإسلامي في القرآن والحديث. وقد جسدتها الممارسات الشعبية من خلال بعض العادات والتقاليد التي صاحبت الوعدات وتتمثل من خلال إبراز الكرم وحسن الضيافة اتجاه الوافدين عليها وتقديم الأطعمة إلى مختلف فئات الناس والصدقات لليتامى وتقديم يد العون للمحتاجين والغرباء وغيرهم. وقد نبعت هذه العادات من تراث الشعب إذ أن المرابطين الصالحين كانوا يرشدون الناس إلى أمور دينهم فيحسنون إلى الفقراء ويصلحون ذات البين[21]

ويستغل أشراف القبيلة هذا التجمع السنوي لإصلاح ذات البين بين المتخاصمين، وفك الخلافات والبث في النزاعات العقارية وتوزيع مياه السقي بين العائلات والفصل في قضايا الطلاق والحضانة وتوزيع الميراث ويستعان في هذا بإمام ملم بالأحكام والشرعية.

وبكلمة مجملة فإن الجماعة تشكل هيكل للعدل يحتكم إليه الأهالي ويرضون بأحكامه مقابل العدل الفرنسي، الذي لا يأخذ بعين الاعتبار خصوصيات المجتمع الجزائري. وفي كثير من الحالات تكون الوعدة مناسبة لعقد قران الكثير من الأفراد حيث تتم أمام الإمام. وتساهم الوعدة في تنظيم الكثير حملات التويزة (التطوع) لمساعدة بعض المساكين على بناء منازلهم أو حفر قنوات السقي أو غير ذلك من الأشغال الجماعية التي يعود نفعها على الجميع.

ويبرز هذا الدور ويتجسد من خلال تلك القيم التي توارثت عبر الأزمنة الطويلة والتي قام الناس بها انطلاقا من شعورهم الإنساني بضرورة العمل للتخفيف من آلام الآخرين عن طريق تقديم العون إلى من يستحقها وإشعارهم بأن روح التآخي التي تحث عليها التعاليم الإسلامية من شأنها تدعيم التعاطف والتكاتف بين كل أفراد الشعب. وقد ترسخت هذه العادات بفضل أهل الزوايا الذي كانوا يعلمون الناس شؤون دينهم وينشرون الأخوة الإسلامية بينهم[22].

وتكاد هذه الوظيفة أن تغطي كل الممارسات في هذه الاحتفالات إن لم نقل كلها والتي تعد في نظر العامة من الحتميات الملازمة لها تلازما وظيفيا لا يكاد ينفصم عنها.

إن الإحسان إلى الفقراء والمساكين من الواجبات الأساسية التي يحث عليها الدين الإسلامي ولذلك فإن المنظمين للوعدات والقائمين عليها يركزون عليها في احتفالات الوعدات وبهذه الطريقة فإنهم يساهمون في تجسيد وظيفة التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع. وسيادة هذه القيم في المجتمع البدوي يرجع أساسا إلى قوة التقاليد والعادات التي أصبحت تشكل أحد الروافد الرئيسية للإطار الثقافي الذي تتحرك فيه مختلف الأفكار والمعتقدات والقيم التي لا يشوبها التغير والتبدل بسرعة وإنما تقاوم مختلف الظروف ولاسيما إذا رأت فيه القوى الجديدة تقاليد إيجابية تخدم مصالحها مما يستلزم الدفاع عنها والمحافظة عليها.

3- الوظيفة الثقافية

تشتمل الثقافة على معارف الإنسان ومعتقداته وأعرافه وسلوكاته، وهي المركب الذي يحدد منطلقاته في الحياة، ويوجه عمله وأساليب حياته وممارسة علاقاته المجتمعية والفردية وأهمية الثقافة كعنصر يحدد الأفكار والسلوكات والظواهر الاجتماعية، يجعلها محور الرهان ولب اهتمام كل الحركات والاتجاهات والقوى السياسية والفكرية والعقائدية منذ بدء الحياة على هذه الأرض ولذلك تختلف الشعوب والأمم على هذه الأرض من حيث طبيعة المعيشة وأنماطها وتاريخها وحضارتها، وتنحصر ثقافة شعب معين في أفكاره وتقاليده المشتركة بين أفراده دون سواهم.

الوعدة ظاهرة ثقافية في حد ذاتها تحوي العديد من العادات والتقاليد والطقوس التي طبعت سلوك الأفراد منذ زمن بعيد. وهي تعيد إنتاج هذه الأخيرة بما توفره من إطار للمحافظة على ما تركته الأجيال السابقة. ولذلك فهي تكتسي أهمية بالغة بما تقدمه من أسباب الحماية للتراث الشعبي وما تمثله من تمايز عن الثقافات الأخرى. وقد استطاعت أن ترفض السياسة الاستعمارية الداعية إلى الاندماج والذوبان، وقاومت الثقافة المتبدلة التي لا تعبر عن كرامة وطموحات الشعب. وكانت تدعو إلى استعادة الحق الضائع وحرية إبداء التمييز عن المغتصب، وبذلك حافظت على التراث الشعبي لأن الأعراف والعادات والتقاليد والمعتقدات تتظافر وتتجلى في هذه الظاهرة.

تعود الوعدة كل سنة لتسترجع الجماهير ماضيها القريب والبعيد، وتستنير بدروس الماضي لتجيب عن أسئلة الحاضر، وفي علاقة الحاضر بالماضي، يقوم الحاضر بتصحيح أسئلة الماضي كما يعيد الماضي قراءة الحاضر ليمنحه القدرة على السير[23] ويدرك من يفد على الوعدة ذلك التوصل والحوار المستمر بين الماضي والحاضر من خلال التراث الشعبي والترابط الوثيق بينهما ليظل الأول قائما في قلب الثاني يمنع عنه إمكانية الانسلاخ عن هذه التقاليد العريقة. ولعل أشهر هذه العادات هي لعبة الفروسية التي لا تكاد تخلو منها أي احتفالات وهي لعبة رياضية إسلامية حيث تتبارى الخيول يتفاخر الفرسان في شكل " علفات " وكل

علفة[24] تبرز ما لها من انسجام بين أفرادها يحدوها في ذلك إظهار ما للقبيلة التي تنتمي إليها من تنظيم ورزانة في هذا الميدان. وقد حث الدين الإسلامي المسلمين على ممارستها لما لها من علاقة في تكوين المجاهدين سواء من أجل الدفاع عن بلاد الإسلام أوفي الفتوحات. وفي هذا الشأن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " كل شيء يلهو به الرجل باطل، إلا رميه بقوسهم وتأديبه فرسه وملاعبته أهله، فإنه من الحق ".[25] ولذلك تجد هذه اللعبة مدلولها في هذه الاحتفالات حيث تلازمها، ويصاحب ممارستها إطلاق البارود وقرض الشعر الملحون من قبل أفراد الفرقة وهو يطلق عليه بالعامية " اللغيط ".

وتجلب هذه اللعبة الهواة والمحترفين الذين يرون فيها مجدهم وشهامة الإنسان العربي ومدى ما قدمه الجواد من خدمات جليلة في مختلف الحروب والفتوحات الإسلامية في القديم وما أصبح يمثله في الاحتفالات إذ لا تتم إلا به ولا يكتمل الجاه إلا باكتسابه.

وإلى جانب هذه الممارسة تتخلل الاحتفالات ألعاب أخرى متنوعة كالألعاب الفولكلورية تمارس من قبل النساء والرجال. يلجأ الرجال إلى رقصة العلاوي حيث يرقصون على أنغام المزمار " الناي " والدف أو القلال وقد تتعدد الرقصات حسب الفرق المشاركة وحسب المناطق ويحس الزائر أنه وسط أعراس أقيمت خصيصا لإحياء هذه الاحتفالات التي تتخللها تلك المقاطع التي يرددها " البراح " أما النساء فيرقصن رقصة الصف وسط حلقات نسوية تستبعد الاختلاط بالرجال وكثيرا ما تغتنم الفرصة في هذه المناسبة من قبل المداحين الذين يقومون بسرد قصص شعبية توارثوها جيل عن جيل. وقد وظفت أثناء الاحتلال لشحذ الهمم ورفع المعنويات وإيقاظ الضمائر. وقد نشأت معظم هذه القصص في مجالس الجماعات الصوفية... كجزء من الطقوس التي تؤديها الجماعة في حضرة الولي...وقد انتقلت من الجماعات إلى الأوساط الشعبية الأخرى عن طريق دعاة الطرق الصوفية والرواة المحترفين الذين كان بعضهم أعضاء في هذه الجماعات الدينية.[26]

وتقدم هذه القصص في لغة بسيطة يفهمها الجميع تتخللها أبيات شعرية تروى قصص المعارك الإسلامية والغزوات التي تمت في الفتوحات وبذلك ساهمت هذه القصص في

رفع وعي السكان حول الظلم الممارس عليهم من قبل المستعمر. وقد استمر هؤلاء الحكاة في سرد هذه القصص حتى بعد الاستقلال ولا زال منهم يجوبون الوعدات مقدمين خدماتهم للناس في هذا المجال.

4- الوظيفة الدينية

لقد عملت الوعدة على تحصين الشخصية الوطنية وحمتها من الإستيلاب الثقافي الفرنسي عن طريق ما مثله من تمايز عن الثقافة الاستعمارية. وقد احتمى الشعب عند ما شعر بخطر الهجمة الاستعمارية فدافع بذلك عن دينه وشخصيته. وقد استغلت مختلف الاحتفالات لجمع الزكاة لبناء المساجد والمدارس والزوايا. ووفرت الظروف الضرورية لتعليم الأطفال القرآن الكريم والقراءة والكتابة. وفصلت الجماعة في الأحوال الشخصية حسب الشريعة الإسلامية كما تحل كثير من المشاكل والخصومات نظرا لوجود أصحاب الجاه وكبار رجال القبيلة أو رؤساء الطرق والزوايا الذين لهم نفوذ كبير في تذليل الصعاب وفض الخلافات. وبذلك تساهم الوعدة في حقن الدماء وحل المشاكل العالقة بين القبائل حول النزاعات العقارية وتوزيع مياه السقي وتخصيص المراعي. كما تناقش شروط تعليم الصبيان مع الأئمة وتدفع نفقاتهم (نصيب من المال ونصيب من المؤونة الغذائية من قبل الجماعة) وهي شروط يتم الاتفاق عليها مسبقا وتجسد غالبا سنويا.

وتتوج هذه الوظيفة بطلب الاستسقاء والبركة ويتم ذلك بعد اختتام الاحتفالات حين إقامة الفاتحة حيث يقوم الشيخ أو المقدم أو إمام القبيلة بالدعاء بالخير وأن تعاد المناسبة في ظروف طيبة.

إن هذه الوظائف تؤدي في آخر المطاف إلى تهيئة الظروف المناسبة للتماسك الاجتماعي القبلي، وهو شيء مفيد للقبيلة يشعر الفرد بولائه للقبيلة غير أنه كان يعيق نمو الشعور الوطني ويمنع قيام رأي عام موحد في الوطن وهذا ما استغله الاستعمار الفرنسي لتبديد جهود وطاقات الشعب ومنع قيام مقاومة حقيقية بين القبائل شعبية إلى سياسة " فرق تسد " وإضرام الفتنة والتناحر بين القبائل عن طريق شيوخ الطرق. وإذا كانت هذه الوظيفة

قد أدتها تبعا لظروف معينة فإنها بالمقابل حافظت على وظائف كثيرة ساهمت في الحفاظ على عادات وتقاليد الشعب وميزت ثقافته عن ثقافة الغزاة. وبهذا فقد قدمت للمجتمع أعظم خدمة وأجلها كان لها عظيم الأثر في الحفاظ على هويته الشخصية.

نخلص القول أن الشعب الجزائري يحتضن هذه الظاهرة إنما يجمع في حياته بين القديم والجديد بل يعيش في القديم بقدر ما يعيش في الحاضر. وهكذا يؤكد أن التقاليد نشأت في رحم المجتمع ومن طبيعته و من تفاعل العلاقات بين أفراده منذ القديم. ومن الصعب تغيير هذه الأوضاع بسهولة وذلك لأن النظم والأوضاع الراسخة في طبيعة البيئة قلما تقبل التطور أو التحرير إلا في الحدود التي يسعها العقل الجمعي أما العناصر الدخيلة فتكون عادة أكثر استجابة للتحول وأكثر خضوعا لإحلال.[27]

- أثر التغير على عادات وتقاليد الوحدة

تخضع جميع مظاهر الكون وشؤون الحياة على ظاهرة التغير التي يمكن تعريفها بأنها: كل تحول يحدث في النظم والإنسان والأجهزة[28] الاجتماعية، سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية محددة وأن ي أي تغير يحدث في ظاهرة لا بد أن يؤدي إلى تغيرات فرعية تمس مختلف جوانب الحياة بدرجات متفاوتة. وهو سمة من سمات الحياة والإنسان والمجتمع بحيث يؤثر كل عنصر في العناصر الأخرى بما لديه من طاقة وديناميكية كما يتأثر هو بغيره من العناصر. ويحدث في جميع البيئات غير أنه يختلف من حيث السرعة والعمق. وقد عاشت المجتمعات القديمة في نمط واحد مستقر لآلاف السنين دون أن يمس عاداتها وتقاليدها تغير يذكر وحتى وإن وقعت تغيرات طفيفة فإنها لم تكن لتؤثر على المجرى العام للثقافة السائدة آنذاك. غير أنه بالمقابل فإن عملية التغيير قد تصبح عملية متسارعة تمس كل مجالات الحياة نتيجة لعوامل متعددة كالعامل التكنولوجي والاجتماعي والثقافي وغيره مما يحتم وجود تغيرات تصيب العادات والتقاليد ولاسيما بالنسبة للمجتمعات الحديثة التي تتأثر بانتقال الظواهر الاجتماعية من مجتمع إلى آخر أثر تقدم وسائل الاتصال المختلفة التي تتعلق

بالنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية المختلفة كما أن التقدم العلمي له آثاره على أساليب التفكير والعلاقات الاجتماعية وتنظيم المجتمع وتطور القانون[29]

وإذا رجعنا إلى التغير الثقافي وجدنا أن الثقافة دائمة التغير حيث أن عناصرها تخضع لتحول مستمر وإن كان تدريجيا غير واضح. ويحدث هذا التغير نتيجة لتعقد المجتمع في تنظيماته وعلاقاته ويبدأ التناقض والصراع بين القوى الثقافية أي أنه نتيجة للتغيرات الاجتماعية يحدث اضطرابا في النظم والعلاقات التي تنظم سلوك الأفراد[30] ويظهر بذلك الصراع بين القديم والحديث وما يتفق معه من قيم وأنماط سلوكية وبين الجديد وما يتطلبه من قيم واتجاهات وأنماط سلوكية مختلفة. فالمجموعة التي تمثل القيم التقليدية تدافع عن نفسها ضد التغيير الذي تؤيده مجموعة أخرى التي تكون مقتنعة بفائدته وترتكز نظرة المجموعة التقليدية أو المحافظة على تصوير الواقع والماضي على أنه أنسب من المستحدث. وهذا يفسر الموقف السلبي الذي تقفه بعض المجموعات المعارضة للتغيير. فالتكوين العقلي لهذه المجموعات يصور لها أن النموذج الماضي التقليدي هو النموذج الذهبي[31] وأن الجيل المفضل هو جيل الكبار الذين يملكون العقل والحكمة نتيجة للسنين العديدة من التجارب والملاحظات التي اكتسبوها. وبهذا يكون التغيير أسرع في الثقافة المادية عنها في الثقافة اللامادية وفي هذا المجال يقول محمد لبيب النجيحي: " والتقدم الثقافي البطيء الذي قد نشاهده في بعض المجتمعات يرجع في كثير من مظاهره إلى انعزال هذه المجتمعات عن غيرها وإلى اعتمادها على قدرات أفرادها العقلية.[32]

والإنسان ككائن ثقافي لا يستطيع أن يحرر ذاته من الثقافة التي ينتمي إليها سواء خضع للثقافة الرسمية أو للثقافة الشعبية. ومعنى ذلك أن كل الناس مهما كانت انتماءاتهم الطبقية فإنهم ليسوا مقطوعي الصلة بالثقافة الشعبية وبالعادات والتقاليد وبتراثهم الشعبي في بيئاتهم المحلية إذ لا أحد ينكر أنه لا يوجد إنسان يخضع خضوعا كاملا لسلطان العقل ولمقتضيات الثقافة المكتسبة وبالمثل لا يوجد في ميدان الاحساسات والعواطف إنسان يعرف كيف يحافظ على ذاتيته الفردية المتميزة دون تأثير بمعايير السلوك المعقدة التي تنص عليها

الثقافة المأثورة ولا يستطيع أكثر الناس استقلالا داخل إحدى الثقافات الزعم أنه بعيد ويمكنه الهروب من هذا التأثير أو تفاديه[33] ولذلك يستمر بقاء ودوام العادات والتقاليد على الرغم من الزخم الهائل من التطورات والتغيرات التي يعرفها المجتمع في كافة الميادين نتيجة لتعرضه لمختلف التأثيرات المتأتية من المجتمعات المتقدمة. وهذا ما يمكن استشفافه من خلال دراسة مقارنة للعادات والتقاليد التي تزخر بها ظاهرة الوعدة في القديم والحديث والتي وإن تأثرت في الجانب المادي عن طريق التطور الذي مس بعض العادات في جانبها المادي فإن الجانب الثقافي اللامادي لم يتأثر تأثرا كبيرا وبقيت الوعدة محافظة على الكثير من العادات والتقاليد الشعبية القديمة التي تتقاسمها مناطق كثيرة من الوطن.

يعد العامل الثقافي من العوامل المؤثرة في التغير الاجتماعي حيث أن انتشار وسائل الاتصال يساعد على انتشار الثقافات، وحيث أن معظم السمات الثقافية الجديدة تنتقل من خلال الانتشار فإن هذه المجتمعات الوثيقة الاتصال بغيرها من المجتمعات هي أكثر عرضة للتغير السريع.[34]

وتتغير الثقافة عندما تدخل عليها عناصر ثقافية أخري ويتم ذلك عن طريق الانتشار الثقافي وقبول بعض عناصر الثقافة لأن سمات ثقافة مجتمع معين لا تكون كلها مقبولة بالنسبة لمجتمع آخر. ومن ثم يقبل بعضها ويرفض بعضها وبوجه عام، فإن التكنولوجيا أو التقنيات المختلفة تكون أسرع انتشارا، في حين أن السمات الغير مادية من الثقافة، كالمعتقدات، والقيم، يمكن أن ترفض كلية، أو يؤخذ بعضها الذي لا يتعارض مع العقيدة الدينية بوجه خاص[35] وذلك لاختلاف قيم الحياة من مجتمع لآخر تبعا لاختلاف نظرة أفراد المجتمع لطبيعة الحياة التي يعيشونها.

وبصفة عامة، فقد تفقد العناصر القديمة أهميتها ووظيفتها أثناء التغير، وقد تستمر العناصر القديمة وتعيش مع العناصر الجديدة بصورة تختلف أو تتغير فيما مسألة التساند لأي منها[36] الأمر الذي يعني أن تواجد القديم مع الجديد يعكس نوعا من التغير التدريجي وهو الأكثر ملائمة للمجتمع.

إن التغير التدريجي يعبر عن التغير البطيء والغير ملاحظ غير أن عدم ملاحظته لا يعني أنه لا يحدث، فالتغير يتم في المجتمعات حتى ولو أنها لا تتصل بالعالم الخارجي وذلك استنادا على ثبات نسق الأفكار والاكتفاء الذاتي الاقتصادي الذي تعيشه. وبمرور الزمن تحدث التغيرات وإن كانت بطيئة. وبهذا فإن نطاق التغير في العالم الحديث ومعدله أسرع منه في الفترات السابقة، ولهذا فإنه من الحقائق التي يجب أن نعترف بها إن أية تغيرات بسيطة ربما تكون جزءا هاما للاستمرار.

وذا كنا نقر بوجود التغير سواء كان ثوريا أو تدريجا في البناء الاجتماعي، فإن هذا التغير قد يقبل من أفراد المجتمع في الجانب المادي وقد لا يقبلونه إذا كان يمس صميم الثقافة والقيم وهذا ما يسمى بالفجوة الثقافية. ومع مرور الوقت تتغير بعض الجوانب اللامادية للثقافة ويصبح التغير الثقافي متضمنا لتعديلات في المعايير الاجتماعية وأنظمة الاعتقاد ومنظومات الرموز والقيم التكنولوجيا.[37]

يبدأ التغير في قطاع معين من الثقافة. ويؤدي هذا إلى اضطراب واختلال في العناصر الثقافية. وهو ما يهدد التوازن العام للثقافة، بحيث يتحتم تجربة محاولات عديدة لخلق حالة من التكيف الجديد القديم، أو إعادة صياغة القديم بحيث يتلاءم مع التغيرات الجديدة[38] غير أن نجاح أو فشل هذه التعديلات مشروط بالقبول الاجتماعي لها. وسواء كان التجديد نابعا من المجتمع أو مستعارا فإن مجدده يبدأ باستخدامه في مجتمع كعادة فردية ولكي يصبح عنصرا ثقافيا يجب أن يحظى بالقبول الاجتماعي.

ويتحدد هذا القبول انطلاقا من امتلاك المجتمع لثقافة متجانسة ومتكاملة تقاوم التغيرات السلبية وتحتفظ بالقيم الإيجابية لأن هذه الأخيرة لا تتغير كليا ولا تختفي تماما بتغير الظروف المادية للمجتمع لأن كل مرحلة من مراحل المجتمع تطغى فيها أنساق معينة من القيم بفعل الظروف المادية التي تسودها دون محو للقيام السابقة عليها، وكل أنساق القيم في جميع مراحل التطور الاجتماعي في كل مجتمع تتسم بالتناقض أو الصراع بين الأضداد.[39]

- العادات والتقاليد الشعبية بين القديم والحديث.

لقد حافظت الوعدات على كثير من العادات والتقاليد والفنون الشعبية التي لا زالت تحتفظ بقيمتها وأهميتها في أعين الوافدين ولولاها لفقدت الاحتفالات خاصية هامة هي خاصية استقطاب العديد من الوافدين عليها. ومن هذه الألعاب التي لا تكاد تخلو منها أي تظاهرة هي لعبة الفروسية التي ينتظرها الناس بفارغ الصبر حيث تشرئب الأعناق لرؤيتها حين تنطلق مختلف " العلفات " كالريح وقد رمى الفرسان أسلحتهم في الهواء ليتم التقاطها وهم في سباقهم، وفي نفس الوقت الذي تكون الخيول تجري كالسهام يقوم الرجال بإطلاق النار في وقت واحد وفي تناسق بديع يظهر الانسجام في هذه اللعبة. وبمجرد الانتهاء من الطلقات تتوقف الخيول عن الجري، وكأنها تدرك هذه الحركة نظرا لما دأبت عليه من تكرار لهذه التجربة في مختلف تظاهرات الوعدات التي يشارك فيها أصحابها. وإلى جانب هذه اللعبة هناك الألعاب الغنائية التي تقوم بها النساء والرقصات الشعبية التي تتم على أنغام الدفوف وهي متنوعة كرقصة النهارية والعلاوية والبارودية وغيرها من الرقاصات ويضاف إلى ذلك مختلف الألعاب كألعاب المصارعة بالعصي وغيرها من الألعاب التي يلاحظها الوافد على هذه الاحتفالات. وهي ألعاب وفنون تصاحب مختلف التظاهرات وقد حافظ عليها الناس منذ زمن بعيد.

إن الجانب التجاري في الوعدة قد رافقها منذ وقت طويل حيث كانت تقتصر المنتوجات على الحلويات والمنتوجات التقليدية والفواكه المسمى، الرقيق، والمطلوع ومنتوجات أخرى لأن الطعام ككل الطقوس هو أيضا ذريعة للتجارة. وقد تغيرت المنتوجات لتحل محلها منتوجات مصنعة الكترونية وغيرها التي أصبحت تزاحم المنتوجات التقليدية حيث تفرد أجنحة خاصة ببيع السلع والمنتوجات المختلفة. وتنتصب الخيام الكبيرة التي تأوي مختلف الدواوير كل دوار يأخذ مساحة معينة يقيم فيها أفراده. وتتوسط هذه الدواوير خيمة شرفية لاستقبال السلطات حيث يجلس أمامها رجال يشتغلون بشواء الخرفان التي توضع فوق النار وتتزين بقضبان الملفوف. ويوجد على البساط صحن كبير يوضع فيه

الشواء الذي يكون قد خد بواسطة سكين قبل طهيه. يقوم سيد الخيمة الشرفية بأخذ قطعة لحم وتقديمها إلى الشخص الأكثر جاها من بين ضيوفه. وهذه العادة تدخل في إطار كرم الضيافة وهي عادة بقيت متواترة في كثير من المناطق حيث لا تخلو أي وعدة من رجال السلطة والجاه والتي يتوجب إكرامهم لم يشغلونه من مناصب إدارية أو سياسية. وقد سايرت هذه العادة مختلف الحقب الزمنية سواء ما تعلق بالمرحلة العثمانية أو الفرنسية أو مرحلة الاستقلال.

يتخلل الاحتفالات كما أسلفنا الفرق الغنائية كالشيوخ والبراحة الذين يعرفون كيف يجلبون الناس ويصلون إلى " الغرامة " أي تغريم بعض الأفراد نتيجة لتعاطيهم الرقص. كما تظلل أخرى لاعبي الحظ والقمار الذين يتحلقون للعب البطاقة وغيرها من ألعاب الحظ.

ومن العادات التي لا زالت سارية عادة إيواء الضيوف والغرباء في الخيام والبيوت وفي الملحقات التابعة للضريح كما ينام بعض الناس في العراء بعد استماعهم لتلاوة القرآن بواسطة حلقة الطلبة. وفي العالم العجيب فإن بعض الزوار يأتون خصيصا لزيارة الضريح وآخرون للألعاب وألعاب الفروسية وآخرون للسهرات الدينية وآخرون لموسيقى الشيوخ وهناك من يأتي من أجل الكسكسي وقطع اللحم المقدم مجانا طيلة أيام الوعدة للفقراء والمساكين على حد سواء.

– عادات تقديم الطعام:

هناك نوع من التراتبية في مجال تقديم الطعام حيث يرتكز على ثلاث مستويات: الرجال الكبار، الشباب والنساء والأطفال وإلى جانب هذه المجموعات هناك تصنيف آخر يعتمد في الكثير من الوعدات حيث يتم على مستويين: رجال السلطة والجاه وعامة الشعب وبالنسبة للفئة الأولى فإنها تحظى بالخروف المشوي الذي يصاحبه " المبسس الساخن " ثم يأتي بعد ذلك المرق الممزوج باللحم وأخير يعطى للحاضرين الكسكسي في قصع كبيرة من الخشب فوق الموائد. يؤكل اللحم باليد بدون السكاكين والشوكات أما بالنسبة للحساء تستعمل ملاعق من الخشب وغالبا واحدة تستعمل من قبل الجميع.

أما الكسكسي فإما بواسطة الملاعق وفي أغلب الحالات عند عدم توفرها بالأصابع ومن الأفضل أن تكون باليد اليمنى على شكل كرة صغيرة تقذف في الهواء من قبل الآكل لتبريدها ثم تبلع بسرعة. وهذه العادة تشبه إلى حد كبير عادة الأكل في المشرق العربي حيث يجمع الآكل الأرز بأصابعه ويعمل منه كتلة صغيرة قدر الليمونة ويقلبها في راحته حتى تستدير تماما ثم يغمسها بالمرق ويدفعها في فيه بالإبهام ويزدردها ولا يكاد يمضغها بأسنانه أما الملعقة والخاشوقة كما يسمونها فلا استعمال لها عندهم وقتئذ.(40)

أما ما يقدم للعامة فإنه يقتصر في كثير من الحالات على الكسكسي واللحم الذي يعتبر الوجبة المفضلة للطبقات الشعبية التي تفقده لفترات طويلة من السنة وتجد في هذه الاحتفالات فرصة ثمينة للحصول على مثل هذه الأكلات.

تتدخل الآداب الإسلامية في مجال الأكل حيث يتطلب الاستعمال الأمثل للصحن الأكل من الجانب الذي يليه وفقا للحديث الشريف الداعي إلى ذلك وحفر حفرة صغيرة وترك الوسط لأن هناك حكمة شعبية توصي بتركه لأن البركة تنزل عليه. وللشرب يستخدم مرجل يكون قد استعمل في حلب الأغنام أو جلب الماء. على أن الآكلين إذا أرادوا الشرب، يكرعون كلهم في إناء واحد ولا تعاف أنفسهم(41) ومن العادة أيضا أن ينفخ الشارب في الكوب الذي يشرب منه تجسدا للحديث الشريف الذي يمنع هذا الفعل ويجب أن يبعده عن فمه إذا أراد التنفس ثم يعود إلى الشرب.

ومن هنا يتضح أن الضيافة العربية تولي أهمية كبيرة إلى آداب الأكل، والضيافة تعني لديها أسلوبا للحياة والكرم وهي تعتبر من طرف المقيمين للوعدة كتوصية ربانية لكي يعامل المسافر بكل احترام وتقدير وفقا للحديث الشريف الذي يقول فيها لرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليسكت** ﴾. ومعاملة الضيف لا ترتكز على الاتفاقات وإنما على مبدئ ديني مقدس ينفذ بكل احترام وعن طواعية.

ومن آداب الضيافة أن يكون صاحب الضيافة واقفا أمام ضيوفه يخدمهم ويأتيهم مرة بعد أخرى بالمرق ويسكبه فوق الكسكسي حتى إذا انتهوا من الأكل وقف عند باب الخيمة وبيده إبريق يصب على أيدي الآكلين ماءا ليغتسلوا وعلى كتفيه منديل يمسح الأيدي[42] وهذه العادات لا زالت مسايرة لمختلف احتفالات الوعدات التي بالمحافظة عليها فإنما يحافظ الشعب على قيم الضيافة، الأخوة والتضامن بين مختلف أفراده.

يحظى رؤساء القبائل وشيخ ومقدمي الطريقة والإشراف بضيافة خاصة حيث تنصب لهم الخيام تليق بكرامتهم، وتقدم لهم أشهى الأطعمة المتمثلة غالبا في ما يسمى بالمصور ويتأتى ذلك عن طريق ذبح خروف وتنقيته وطلائه بالسمن ثم وضعه فوق نار بواسطة عمود من الخشب ليطهى اللحم، وبعد ذلك يتم شواؤه عن طريق إدارته فوق جمر متقد[43] ولا يقدم المشوي إلا في المناسبات الاستثنائية كقدوم ضيف عزيز أو كبير قوم. والناس في الغالب لا يذقون اللحم إلا حينما يذبحون لضيف أو لعرس أو لوفاة أو لإيفاء نذر وكثير ما يذبحون من الأنعام لطعامهم الخروف والماعز أما العجل والبقر فقليل ما يأكلونه.[44]

يلاحظ أن هناك نوع من التراتبية في احتفالات الوعدة ويعد انعكاسا للتراتبية داخل القبيلة والأسرة أو العائلة. حيث يتضح ذلك من خلال تقديم الطعام. فحينما يصبح الطعام جاهزا تأتي النساء بالأكل وتضعه أمام صاحب الخيمة ليأكل وحيدا. وتنتظر النساء والأطفال بفارغ الصبر الجملة العجيبة التي تصدر عن سيدهم وهي " تعالوا تأكلوا " بعد ذلك تؤخذ القصعة بعيد عن رب العائلة حيث تجتمع النساء حولها مع الأطفال ويسرع كل واحد لأكل ما تبقى[45] وحينما يكون هناك أبناء متزوجون يأكلون مع بعضهم البعض أما النساء فيأكلن دائما على حدة، فهن خادمات الخيمة وليس من المناسب أن تشتركن في طاولة السيد[46]

وإذا كان هذا الوضع قديما، فإن الوضع الحالي لا يشد عنه كثيرا ولاسيما في المناطق التي حافظت على تقاليدها و لم يدخلها التجديد بصفة جذرية كالمنطقة الصحراوية حيث لا

يسمح للنساء أثناء الوعدة بالتجول خارج الخيام وفي الأماكن التي تقام فيها الأسواق ويخصص لهن مكان معين للتفرج على ألعاب الفروسية.

إن الطعام السائد في مثل هذه المناسبات هو الكسكسي حيث يقدم إلى الوافدين على الوعدة بسخاء وكرم في أواني الحديد أو الفخار بعدما كانت قديما يقدم في قصاع أو أواني طينية وكان هذا مرتبطا بالظروف السائدة آنذاك حيث كانت الصناعة التقليدية مزدهرة وقد حلت محلها الصناعة الحديثة وبذلك حدث تغير في هذه الأواني.

أما إذا انتقلنا إلى الخيام فإننا نجد أنها كانت تصنع من شعر الماعز أو الإبل عل شكل سقف تخاط ثم ترفع عن طريق أعمدة وتقسم إلى قسمين: قسم خاص بالرجال وقسم خاص بالنساء والأطفال وتتميز خيمة الضيوف بكبرها واتساعها ولونها المميز. ومع تقدم المجتمع وظهور الصناعات الحديثة استعيض عن هذه الخيام بخيام مصنعة وحديثة تؤمن الرفاهية لساكينها. ولا يعني هذا أن الخيام القديمة قد اندثرت كليا بل أن هناك العديد منها لا زال ينصب غير أنه قد حلت محل الشقق الحصر التي كثيرا ما يستعملها الفقراء لبناء خيامهم أثناء الوعدة.

وإذا كانت هذه التجديدات تمس بالجانب المادي من الثقافة فإن الجانب اللامادي بما يحتويه من طقوس قديمة لم يطرأ عليه تغير كبير. وقد احتفظ الأحفاد بهذه الطقوس لأن الاحتفالات بدونها تصبح مجرد احتفالات لا قيمة لها. وعلى العموم فإن الوعدة قد احتفظت بجوهرها ولم تمس التغيرات إلا الجانب الشكلي وهذا ما يستطيع أن يلاحظه المعايش لتظاهراتها من بدايتها إلى نهايتها. وسيدرك أن النظام الطقسي يشكل الأساس الذي تبنى عليه هذه الاحتفالات والتي تعكس النظام الصارم الذي يتقيد به منظموها حتى لا تكون عرضة لأي خروج عن الإطار الذي رسمه لها الأقدمون والذي تتسم به العديد من الوعدات التي لم تعصف بها رياح التجديد.

لقد حاولنا الإشارة إلى مختلف الدوافع التي تؤدي بالأفراد إلى المشاركة المنتظمة لهم في احتفالات الوعدة وقد تختلف باختلاف الميول والرغبات التي تنطوي عليها نفوسهم. فمن

رام لتخفيف قلقه وحل مشاكله العويصة التي تتوج بالاستقرار النفسي إلى طلب مستمر للدوافع الاجتماعية والثقافية كما قد يلعب الجانب الاقتصادي والسياسي دورا كبيرا في هذه المشاركة التي تتوافق مع الوظائف العديدة التي تضمنها الوعدة في شتى المجالات الاقتصادية والتكافل الاجتماعي والمجال الثقافي والديني بحيث يصبح الرابط وثيقا بينها وبين الواقع التي أدت إليها. وهذا ما يشكل أحد الأسباب التي تضمن ديمومتها واستمرارها وبالتالي تحافظ على عاداتها وتقاليدها من أن تندثر أو تقل فاعليتها في الأوساط الشعبية ولعل هذا الأمر يفسر انتظام وقوعها باستمرار وتشبث العديد بإقامتها ولاسيما إذا تعلق الأفراد بالأوساط الريفية التي لا زالت تكتسي عاداتها طابعا محافظا يساهم في تأمين إعادة إنتاج طقوسها واحتفالاتها بما يتوافق مع قيم المجتمع المحلي المتوازنة منذ أمد بعيد.

الهـــوامـــش:

1. PIEREE BOURDIEU . opcit P. 102

2. أحمد أمين، " **ضحى الإسلام** "، الجزء الرابع، الطبعة الثالثـــة القـــاهرة: مكتبـــة النهضة المصرية، 1962، ص 99.

3. بلعربي خالد، " **ظاهرة زيارة الأولياء في المجتمع الجزائري** "، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان 1999، ص 65.

4. نور الدين طوالبي، " **الدين والطقوس والتغيرات** "، ص 138.

5. نور الدين طوالبي، " **في إشكالية المقدس** "، ص 42.

6. المرجع نفسه، ص 21.

7. غالي شكري، **العرب بين الدين والسياسة** "، مقال من كتاب " **الإسلام والسياسة** " الجزائر، درا موقم للنشر، ص 88.

8. محي الدين، مختار، " **محاضرات في علم النفس الاجتماعي** "، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، ص 119.

9. فوزية دياب، مرجع سابق، ص 138.

10. CHEIKH, BOUAMRANE ET LOUIS GARDET, " PANORAMA DE LA PENSEE ISLAMIQUE " Paris, 1984 P.143

11. فيلالي مختار الطاهر، مرجع سابق، ص 24.

12. ALFRED BEL. Opcit P. 334

13. آدم، متز، " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"، ترجمة الهادي أبـــو ريدة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 486.

14. حليم، بركات، " **المجتمع العربي المعاصر** "، بحث استطلاعي اجتماعي الطبعة الثالثة، دراسات الوحدة، 1986، ص 281.

15. إبراهيم بدران، وسلوى الخماش، مرجع سابق، ص 129.

16. سعاد محمد عبد العزيز، " **ظاهرة الاعتقاد في السحر في المجتمع المصري**"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس القاهرة، 1982، ص 116.
17. نفس المرجع، الصفحة.
18. مبارك بن محمد الميلي، " **رسالة الشرك ومظاهره** "، ص 259.
19. المزود، ج: مزاود: وعاء من الجلد يوضع فيه الدقيق.
20. البورابح: غطاء مصنوع من الصوف يستخدم في الفراش.
21. القوم: هي كلمة عامية تعني الفروسية.
22. أبو القاسم سعد الله، " **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (20/16م)** "، الجزء الأول، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 494.
23. المرجع نفسه، ص 495.
24. ع، بن بريك، " **بركة سيدي الهواري** "، المجاهد، عدد 1458 المؤرخ في: 1988/07/15.
25. هي فرقة الخيالة.
26. السيد سابق، " **فقه السنة** "، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، ص 638.
27. عبد الحميد، بورايو بن الطاهر، " **القصص الشعبي في منطقة بسكرة** "، دراسة ميدانية – الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 108.
28. مصطفى الخشاب، " **علم الاجتماع ومدارسه، المدخل إلى علم الاجتماع** "، الكتاب الثاني، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، 1998، ص 88.
29. محمد حسن العمايرة، " **أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية**"، الطبعة الأولى، عمان دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، 1999، ص 208.

30. أحمد الخشاب، " **التغير الاجتماعي** "، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971، ص 61.
31. محمد حسن العمايرة، مرجع سابق ذكره، ص 255.
32. أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص 53.
33. محمد لبيب النجيحي، " **الأسس والحياة الاجتماعية في مصر** "، القاهرة: 1980، ص 282.
34. محمد الجوهري، " **علم الفلكلور** " دراسة في الأنتروبولوجيا الثقافية، ص 101.
35. نعيمة عبد الله حسنين، " **التغير الاجتماعي والتباين القيمي في المجتمع القيمي** "، دراسة ميدانية لعينة من سكان مدينة الدولة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 1994، ص 34.
36. بث هين وآخرون، " **علم الاجتماع** " ترجمة محمد مصطفى الشعبيني، السعودية، دار المريخ 1989، ص 658.
37. ناصر ثابت، " **دراسات في علم الاجتماع التربوي** "، الطبعة الأولى، الكويت: مكتبة الفلاح، 1990، ص 188.
38. نعيمة عبد الله حسنين، مرجع سابق، ص 42.
39. محمد الجوهري، " **علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث** "، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف، 1985، ص 108.
40. سمير نعيم أحمد، " **الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي ومقالات في المشكلات الاجتماعية والانحراف الاجتماعي** "، القاهرة مكتب سعيد رأفت، ص 41. (بدون تاريخ).
41. الخوري بولس،سيور البولسي، " **عوائد العرب** "، بيروت: دار الرائد العربي، 1983، ص 18.

42. المرجع نفسه، نفس الصفحة.

43. المرجع نفسه، ص 20

44. Le Lieutenant-colonel Villot, ancien chef du Bureau Arabe. "Mœurs, Cotumes et Institutions des indigènes de l'Algérie ", 3ème édition, Librairie JOURDAN 1888 P121 ADOLPHE

45. لخوري سيور البولسي، مرجع سابق، ص 22.

46. Villot, opcit p 123.

47. IBID même page.

الفصل الرابع:

الوحدة، المسار التاريخي والنتائج

- تمهيد
- الحياة الدينية والثقافية في العهد العثماني
- المرابطون
- الزاوية
- الطرق الصوفية
- الأولياء والكرامات
- الوضع الديني والثقافي أثناء الاحتلال الفرنسي
- جمعية العلماء المسلمين والطرق
- الوحدة بعد الاستقلال

تمهيد

لقد عرفت الطرق انتشارا كبيرا بفعل رعاية الدولة العثمانية ومساهمتها في تدعيم الزوايا إذ قد عرف العثمانيون البكداشية والمولوية قبل قدومهم للجزائر. تدعم هذا الاتجاه بفعل الركود الثقافي الذي عرفه هذا العهد حيث شجعت الدروشة وقدس شيوخ الطرق لما شكلوه من مساندة لسيطرة الأتراك عن طريق جعل العامة لا تفكر في مقاومتهم لأنهم أولو الأمر والنهي تجب طاعتهم. ولم يشعر أناس بهذا الظلم إلا بعد أن قلت المغانم البحرية، فانقلب الشيوخ على النظام العثماني في أواخره. وورثت الدولة الاستعمارية هذا الوضع فشجعته وعملت على تفتيته بكيفية ضمنت لها السيطرة على الطرق والزوايا بطرق مختلفة وفيها تكثيف الإمدادات المالية لإقامة الاحتفالات الخاصة بالوعدة من أجل تأجيج بؤر النـــزاع بين القبائل للحيلولة دون قيام وعي وطني موحد يقف في طريق سيطرتها. غير أن الأمر لم يكن بهذه السهولة حيث لعبت هذه الظاهرة دورا كبيرا في المحافظة على هوية وشخصية المجتمع الجزائري بما تشكله من تمايز للثقافة الوطنية عبر الثقافة الاستعمارية الدخيلة التي لم تكن تنسجم أو توافق العادات والتقاليد العريقة للشعب الجزائري.

- الحياة الدينية والثقافية في العهد العثماني

لقد إنصهر الأتراك في الفتوحات وعنوا بالحرب أكثر مما مهروا في إقامة صرح العلم ومتابعة السير بالحضارة فزاد العالم الإسلامي تدهورا على مر الأزمان. وقد أغلقت على العالم الإسلامي ومنها الجزائر الأبواب منذ الحروب الصليبية. ولم يسمح بأي اقتباس في أي مجال من المجالات في الثقافة والعلم والصناعة ونظم الحكم. وقد اقتصر العلم عند الأتراك على ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية الصرفية ونحوها. وفي مجال الصناعة فقد بقيت متمسكة بما قدمه الأقدمون دون زيادة ولا إتقان ولا اختراع. وقد أبعد السكان عن الاشتراك في الشؤون السياسية والحربية. فلا تجدهم في قيادة الجيش أو في حكم أو إدارة. وإنما هم مزرعة الحكام ومشتغل الولاة والأمراء. كلما تفتحت شهواتهم، فعلى الرعية أن

يجدوا سبيلا لملئها بالمال يجمعونه من كد يمينهم وعرق جبينهم[1] أما العلم فيها كتاب ديني يقرأ، أو جملة تعرب أو متن يحفظ أو حاشية على شرح. أما علوم الدنيا فلا شيء منها إلا حساب بسيط يستعان به على معرفة المواريث، أو قبس من تلك قديم ستدل به على أوقات الصلاة.[2]

لقد تاثر العثمانيون بالطرق الصوفية قبل مجيئهم إلى الجزائر ومنها البكداشية والقادرية والمولوية حتى أصبحوا يدينون لرجالها بالولاء وقد شكل هذا أرضا خصبة لنمو وازدهار المرابطين والتصوف الطرقي. وأعانت سياستهم بدورها في نشر التصوف المنحرف والانحطاط الثقافي. ولم يهم الحكام التقدم الفكر بقدر ما كان يهمهم بناء المساجد وإيقاف الأوقاف عليها وتأدية الشعائر والتقرب من الأولياء والصالحين لضمان الاستقرار لحكمهم واستمرار سيطرتهم على الشعب. وقد تولد عن هذا انتشار الفوضى الدينية وكثرة الخرافات وحلول السحر محل العلم واستغلال المرابطين للعامة إتسع استغلال وإغراق عقول العامة في ظلام دامس حتى أن بعض مثقفي العصر وأصحاب التفكير والرأي كتبوا لعدد كبير من الأولياء وأظهروا كراماتهم ومكاشفاتهم ومنهم: ابن صعد (النجم الثاقب) وابن مريم (البستان) والبطيوي في مطلب الفوز والصباغ (في بستان الأزهار) وابن سليمان في كعبة الطائفين.[3]

- المرابطون:

لقد عرف المجتمع الجزائري شأنه شأن المجتمعات الإسلامية الأخرى المرابطين قبل دخول العثمانيين. إذ أن كلمة " مرابط تطلق على الرجل الذي يلازم الرباط في الثغور لمراقبة العدو من جهة وللعبادة من جهة أخرى غير أن مفهومها في المغرب الإسلامي تطور حيث صار كل من يثير إعجاب الناس لنسكه وورعه ينعت بالمرابط سواء كان حيا أو ميتا أو كل خارق يثير الدهشة ويذهل العقل.[4]

لقد حل المرابطون محل الدولة في الدفاع عن ثغور الإسلام ضد الهجمات الاسبانية لسواحل المغرب العربي بعد ما عجزت دوله وضعفت ولم تستطيع الذود عن أرض الإسلام.

واعتمد المرابطون على أنفسهم في الدفاع عن الأرض الإسلامية التي تعود إليهم. وهم الذين يتولون القيادة بأنفسهم ضد العدو أو يوجهونها روحيا بإصدار الأوامر إلى أهل المدن الساحلية ونحوها للدفاع عن أنفسهم[5] وقد انتشر المرابطون في الجزائر انتشارا واسعا ابتداءا من القرن الخامس عشر(م) ويعزى هذا الانتشار إلى بعض المعتقدات القديمة التي بقيت حية في ظل الإسلام. وكذا موجة التصوف التي عمت المغرب في القرن الخامس عشر الميلادي كما تعود إلى أن فكرة المرابط تتلاءم مع العقلية البسيطة للقبائل الذين يميلون إلى تمجيد أولئك الذين هم على اتصال بالقوة الإلهية، وان أفعالهم هي انعكاس لتلك القوة الإلهية[6] ويقول حمدان خوجة في هذا الصدد: " إن سطوة المرابطين الخارقة للعادة، قد أثرت في أفكار البرابرة الضيقة، إذ يبدو لهم، أن الله هو بذاته يسوق هؤلاء المرابطين ويأمرهم[7] وهناك سبب آخر لانتشار المرابطين وهو تسابق القبائل والعشائر ليكون منها مرابطها الخاص يعزز شوكتها ويدعم مركزها، ويسبغ عليها بركته التي تجلب لها المنافع وترد عنها المضار. ونتيجة لإقبال الناس عليهم والاعتقاد في ولايتهم. فقد استغل الدجالون سذاجة الناس، فادعوا الولاية وتظاهروا بالعبادة والزهد. وأطلقوا على أنفسهم اسم " المرابط" وبذلك كثر المرابطون وكثرت الرباطات في الجزائر.

وقد اقتصر كل مرابط على نطاق معين القبيلة أو العشيرة، ولكن مهما كانت شهرته فإنه لا يقوم بالدعوة الصوفية ولذلك ليس له أوراد كالطرق الصوفية ولا أتباع منتظمون ولا دعاة.

- الزاوية:

لقد كان لفظ " الزاوية " في بداية ظهورها في المغرب في القرن الثالث عشر الميلادي مرادف كلمة " رباط " وهو المكان الذي يعيش فيه المرابط مع تلاميذه وخدامه. وقد تطورت وظيفتها مكان للعبادة إلى محل لإطعام المسافرين وإيوائهم ثم ورثت وظائف الرباط الحربية وخاصة في وقت الخطر وكذا الوظيفة التعليمة. ثم تعددت وظائفها وتمت الصورة النهائية على أيدي المرابطين والطرق الصوفية.

والزاوية في العهد العثماني كان يؤسسها صاحبها بأمواله الخاصة أو يقيمها له مريدوه في حياته أو بعد مماته وهو الشائع. وذلك أن المرابط بعد موته يدفن تحت قبة، يلحق بها في الغالب مصلى وأحيانا سكنا للطلبة. ويطلقون على المكان اسم " الزاوية " وقد أخذت الزوايا تنمو في الجزائر في القرن الخامس عشر ثم انتشرت في أوائل القرن السادس عشر وكان ذلك كرد فعل لضياع الأندلس والغزو الأجنبي الذي تمثل في احتلال اسبانيا لثغور الجزائر.

والزاوية يديرها أحد ذرية المرابط المؤسس لها ويسمى" شيخ الزاوية " وهو الذي يتولى التعليم بها أو الإشراف على أساتذتها، يعاونه في إدارتها وكيل وعدد من الخدام. وتتمثل مواردها في الأملاك التي يوقفها الأتباع عليها ومن الزكاة والهدايا العينية (الزيادة) التي يتلقونها من أفراد القبيلة، كما تتمثل في النذور وفيما يجمعه لها تلاميذ الزاوية. وقد ارتكز العثمانيون على المرابطين لمحاربة الطرق الصوفية إذ لم يتمكنوا من مواجهة الطرق الثائرة إلا بعد أن ضمنوا هدوء القبائل بواسطة طائفة المرابطين مقابل تخفيض الضرائب أو منحهم إمتيازات، غير أن هذه السياسة أفقدت المرابطين سطوتهم ونفوذهم. وساعدت على انتشار الطرق الصوفية وانضمام القبائل إليها بل اندماج بعض المرابطين في الطرق حتى أصبح معظمهم يعتنقون الطرق الصوفية.

- الطرق الصوفية:

لقد مهدت عصمة الإمام التي أدخلها الفاطميون وفكرة المهدي الشيعية التي انتحلها ابن تومرت لظهور الطرق الصوفية وقد ازدهر التصوف في ظل الدولة الموحدية. وعرفت الجزائر إمدادات متزايدة لشيوخ المدارس الصوفية الذين توافدوا عليها من الأندلس: كأبي مدين شعيب والبطيوي وغيرهما. كما اشتغل بالتصوف في الجزائر العفيف التلمساني وأحمد البوني وعبد الكريم الفكون وقد كان تصوفهم فرديا يعتمد على التأليف في التصوف وعلى حياة الزهد والعزلة للتعبد.

وقد ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر في بداية القرن السادس ثم انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر. وقد تعايشت الطرق في بدايتها مع المرابطين مستغلة النفوذ الذي اكتسبوه ثم حلت محلها تدريجيا حتى أدمجتهم فيها كلية تقريبا. ويعزو الفرنسيون انتشار الطرق وحلولها محل المرابطين في القرن الثامن عشر إلى أن أبناء المرابطين اقتصر دورهم على التمتع بالموارد التي تركها لهم أجدادهم وأهملوا الإرشاد والدعوة إلى الله وتركوا جاه الزهد والتقشف وانغمسوا في حياة الترف(8)

ورغم أن الطرق تتبع طريقة التصوف إلا أن التنافس بينها كان على أشده لجذب الأتباع، حيث أن طريقة ضمنت استمرارها بل بقائها فنهت مريديها الانتقال إلى طريقة أخرى، وغالت التيجانية في الحكم على من ينتقل إلى طريقة أخرى من مريديها باعتباره مرتدا(9) وقد ربطت الطرق صحة عقيدة المريد بملازمته لها والخضوع لشيخها حتى يفارق الحياة وهذا يعتبر موتا أدبيا للمريد حيث يصبح مسلوب الإرادة كالعبد بين يدي سيده لا يحق له التصرف في ذات نفسه. وبهذا أصبح شيخ الطريقة هو الواسطة بينه وبين الله كما أصبح الانقياد والطاعة له هو الركن الأساسي للطريقة لأن ما يقدمه إنما يقدمه بدافع وجداني وخوف العقوبة في اليوم الآخر ومن غضب الشيخ في الدنيا.

وقد خضعت الطرق الصوفية لنظام إداري يشبه النظام الإداري لحكومة ذلك العهد ولاسيما فيما يتصل بالمناصب وجباية المال تسخير الأتباع في استغلال الأراضي والعقارات المحبوسة على زوايا الطريقة وكذا فيما يتصل برعاية الأتباع وتسيرهم أو حكمهم. -

- الأولياء والكرامات:

لقد حفل المغرب العربي بكرامات الأولياء وخوارق العادات. وقد ربط الناس الظواهر الطبيعية بكرامة ولي من الأولياء (كالكوارث الطبيعية، الجفاف، الفيضانات، السيول...الخ) كما فسرو كل حادث اجتماعي أو سياسي بتدخل الولي. أو بدعاء هذا أو ذاك. وقد سادت الخرافة الجزائر منذ القرن الثالث عشر الميلادي حيث كانت هي الطابع

الذي غلب على حياة الناس. وقد شملت هذه الظاهرة العامة والخاصة على حد سواء كالعلماء الذين لهم باع في العلوم الدينية والثقافية.

وفي هذا العصر كثر الأولياء وتنوعت كراماتهم وقدست أضرحتهم بحيث أصبحت ملاجئ آمنة لكل خائف أو هارب من السلطة. وترجع كثرة الأولياء إلى تنافس القبائل والعشائر على المجد. فقد كان ظهور الولي في القبيلة بمثابة شرف لها تباهي به القبائل الأخرى. ولم يقف التنافس عند هذا الحد بل تجاوزه إلى إثبات الكرامات وخوارق العادات. فكلما ازدادت كرامة ولي انتشر صيته خارج القبيلة. ومن هنا ندرك سر هذه الكثرة. وفي هذا الصدد يقول قونيالو: " يسود في هذا النوع من الاحتفالات، التفاخر والغيرة والحسد، فكل قبيلة تعمل كل ما في وسعها من أجل تجاوز جارتها، وهي بهاذ المعنى تعبر على الصراع الأصم للأنانية العائلية[10] وقد ساعد العثمانيون على نشر الخرافة ولم يكونوا يستهدفون من وراء ذلك أهدافا سياسية فحسب، وإنما كانوا يعتقدون في الخرافة ويؤمنون بالأولياء ويضاف إلى هذا أن كثيرا من الأعيان العثمانيين كانوا يوصونه بدفنهم في أضرحة الأولياء.

وقد تأثر العوام من الناس بهذه الخرافات، فاعتبر البعض أن قدرة الولي أقوى من قدرة الله. وفي هذا الشأن يقول الورتلاني: " ومنهم من بركاته كالأمواج، الولي ذو البركة الظاهرة والحواري الباهرة، الشيخ سيدي عيسى بن محمد قد انتفع به العامة والخاصة، وقد رد ببركاته عينا من ماء قطرانا لحيوانه وأصبح كل من أتى إليه. وقد مسح على عين الأعور فرجعت أحسن مما قبل، فقال من لا معرفة له. " عين عيسى خير من عين الله ويعلق الورتلاني على ذلك بقوله: " ولم يعلموا أن الكل من عند الله".[11]

إن تفسير هذه الظواهر ينبع من خلال المعتقدات التي يحملها العامة والتي رسخت بفعل الممارسة المستمرة والظروف التي يوجد فيها وقد أدت بالكثيرين إلى التصديق والاعتقاد في المعجزات والأعاجيب. ويضاف إلى ذلك أن الحياة حينما تكبل الإنسان بتكاليفها الصارمة لا تلبث أن تخلق في نفسه مقاومة لقوانين العقل وما يراه فيها من جفوة، لذا يستسلم لفتنة غير المعقول، بل إن عداء الإنسان للعلم والحكمة. وهما أثمن شيء أنجبه

ليبدو في صورة أشد خطورة من تلك إذ يتشوق إلى إيثار رجل المعجزات ويميل إلى نظريات الغيب ما دامت وقائعها المشهورة تعتبر خرقا للقواعد والقوانين[12] لذا فهو يحاول أن يعطل ملكة النقد ويزيف الإدراك ويعتمد على التأييد والتسليم دون مبررات حقيقية.

ومن المعلوم أن الظروف التي سادت العهد العثماني أدت انعكاساتها إلى التأثير على الوضع الثقافي للسكان حيث سيطر الركود والجمود والاعتقاد في الأولياء والأضرحة وتدعمت هذه الوضعية بقصد أو عن غير قصد بالسياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية بتشجيعها لإقامة الزوايا ونشر الطرق والحث على إقامة الولائم والوعدات فضلا عما كانت تقدمه من تسهيلات لشيوخ القبائل الطرق الذين كانوا يعيننها على السيطرة على الجماهير التي تقع تحت سيطرتهم.

ولقد منح الانتشار الواسع للطرقية والزوايا نفوذا هائلا على مجرى الحياة العامة حتى أن بعض الساسة والحكام انخرطوا في حركتها وتملقوا لها تفاديا للتصادم معها والاستفادة سياسيا من تأثيرها على الرأي العام. وأدرك الأتراك أهمية ودور شيوخ الطرق فتحالفوا معهم فكثرت بذلك الأضرحة والقباب وانتشرت الزوايا والأضرحة وهذا ابتداء من القرن 16م وأصبح الحكام يظهرون الاحترام لأهل التصوف ببناء الزوايا والوقف عليها وإعفاءها من الضرائب فقد أوقف الباي حسن سنة 1173هـ على زاوية مولاي الطيب الوزاني دار.....مثقالا ذهبا[13] يضاف إلى ذلك كثرة الهدايا والعطايا التي كانت تقدم للمرابطين إرضاء لهم وتقربا منهم. ونتيجة لهذا فقد انحرف المرابطون وتورطوا في الفساد والتحلل بفعل تحالفهم مع الحكام الذين كانوا يسعون إلى التحكم في رقاب الناس عن طريق هؤلاء المرابطين. وقد أغدقوا الهدايا والعطايا على شيوخ الطرق والزوايا بفضل غنائم الجهاد البحري التي كانت توفر دخل معتبر تكفي حاجة الجيش والموظفين وينفق في بعض الأحيان على رجال الدين وشيوخ الزوايا.[14]

وقد غض الولاة أعينهم عن التصرفات السيئة للمرابطين بفعل ما كان يقدمه هؤلاء من رشاوي لهم ليسكتوا عن ابتزازهم لأموال الناس والتعدي على الحرمات والأعراض علما

بأن هذا المرض طال كل مجال من مجالات الحياة وعم كامل الوطن ويقول الورتلاني في هذا الصدد: " إن القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم وإرشاء لهم وكذا في غيرها من عمالة الجزائر.(15)

وللدلالة على الوضع الذي آل إليه التصوف في هذا العهد، فقد أوضحها الفكون في انتشار البدع وسيادة الجاهل وكساد العالم وانحراف أهل الصوفية عن التصوف الحقيقي وتحالف هؤلاء مع الظلمة واللصوص والولاة الفاسدين.(16)

وفي هذا المجال يقول أحمد أمين: " فقد الدين روحه، وصار شعائر ظاهرية، لا تمس القلب ولا تحي الروح، سادت الخرافات، وانتشرت الأوهام، وأصبح التصوف ألعابا بهلونية، والدين مظاهر شكلية، ووسيلة النجاح في الحياة ليست الجد في العمل، ولكن التمسح بالقبور والتوسل بالأولياء، فهم الذين ينجحون في العمل، وهم الذين ينصرون في الحروب. والشوارع والحارات مملوءة بالدجالين والمشعوذين ويضيف في مكان آخر: " فما بال العالم الإسلامي...يشرك مع الله كثيرا من خلقه؟ فهؤلاء الأولياء يحج إليهم، وتقدم لهم النذور، ويعتقد أنهم قادرون على النفع والضر، وهذه الأضرحة لا عداد لها، تقام في جميع أقطاره، يشد الناس إليها الرحال، ويتمسحون بها، ويتذللون لها، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم. ففي كل بلدة ولي أو أولياء وفي كل بلدة ضريح أو أضرحة تشرك مع الله تعالى في تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير، كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين، يتقرب إليه بذوي الجاه عنده وأهل الزلفى لديه، ويرجون في إفساد القوانين وإبطال العدل.(17)

لقد بلغ التصوف في شكله أوجه في هذا العهد حيث أصبح كل درويش وليا وصاحب كرامات وكل مستغل للعامة باسم الدين ومتقرب من السلطة باسم الطريقة يعتبر قطبا تأتيه الجبايات ويقصده الناس بالقرابين والحكام بالعطايا والهدايا. وقد عمت الخرافة الجميع في عصر ساد فيه التخلف مكن أشخاصا يدعون دعوات ضالة ومع ذلك فقد سمح لهم بالنشاط لأن الحكام لم يعنيهم التقدم الفكري بقدر ما كان يعنيهم بناء المساجد وإيقاف

الأوقاف عليها وتأدية الشعائر والتقرب من الأولياء والصالحين لضمان الاستقرار لحكمهم واستمرار سيطرتهم على الشعب. وقد تولد عن هذا انتشار الفوضى الدينية وكثرة الخرافات وحلول السحر محل العلم، واستغلال المرابطين للعامة أشنع استغلال وإغراق عقول العامة في ظلام دامس حتى أن بعض مثقفي العصر وأصحاب التفكير والرأي كتبوا لعدد كبير من الأولياء وأظهروا كراماتهم ومكاشفاتهم ومنهم: ابن صعد (النجم الثاقب) وابن مريم (البستان) والبطيوي (مطلب الفوز) والصباغ (بستان الأزهار) وابن سليمان (كعبة الطائفين).[18]

ولا شك أن هؤلاء المرابطين كانوا يساهمون بصفة مباشرة أو غير مباشرة في تخدير السكان عن طريق ما كانوا يقيمونه من احتفالات وما كانوا يقدمونه من أفكار تدعو إلى عدم التدبر في الأمور واستقبال كل شيء على أنه قضاء وقدر وأن لا ينظروا إلى الحكام إلا بعين الرضا ولشيوخهم إلا بالتبجيل والاحترام وفق القاعدة الطرقية القائلة: " اعتقد ولا تنتقد ". وقد شكلت الوعدة كمؤسسة ثقافية بارتباطها بالزوايا والأولياء الصالحين وسيلة لدعم ونشر الاستقرار واستتباب الأمن للنظام التركي عن طريق الحث على مساعدة وعدم عداوة من يقوم بالدفاع عن الأراضي الإسلامية وطاعة ولاة الأمر. وقد عملت السلطة العثمانية بالمقابل على خطب ود القائمين عليها وتأييدهم بالعطايا السخية التي كانت تجلبها من الغنائم الجهادية البحرية إضافة إلى إعفائهم من الضرائب مما جعل التحالف يتوطد بين شيوخ الزوايا والسلطة وأدى هذا إلى انتشار الطرق وزيادة الاحتفالات سواء تعلق الأمر بولي صالح حي أو ميت حيث أصبحت الوعدات تقام على أضرحة الأولياء بمباركة من النظام القائم.

وإذا كانت الأحوال والظروف قد ساعدت الأتراك على تبني هذه السياسة فإن تغيرها قد أدى إلى الإخلال بهذا التحالف منذ بداية القرن الثامن عشر، فبدأ الحكام الأتراك يتحولون بأنظارهم إلى داخل البلاد لإيجاد مصادر دخل قارة بعد أن قلت مغانم الجهاد البحري الأمر الذي أحدث توترا في علاقة الحكام برجال الزوايا الذين ازداد التحاقهم بأهالي

الريف وأصبحوا المتكلمين باسمهم والمعبرين عن موقفهم والمرافعين عن مصالحهم. وقد توترت العلاقة حتى اتخذت صفة عداء سافر وصراع مع نهاية القرن الثامن عشر[19]. ومع بداية القرن التاسع عشر اتخذ عداء الطرق الدينية لسلطة البايلك شكل ثورات وطنية وانتفاضات شعبية منها ثورة درقاوة التي اندلعت في سنة 1213هـ الموافقة لسنة 1804م، وغطت مناطق واسعة، وهددت الوجود العثماني وأدت إلى هزيمة العثمانيين في معارك كثيرة وقد تزعم هذه الحركة في الشمال القسنطيني الشريف بن الأحرش الدرقاوي وانتهت بقتل الباي عصمان.

ونفس الأحداث عرفتها الجهات الغربية حيث تزعم الثورة محمد الشريف الدرقاوي ضد خلفاء محمد الكبير وقد استمرت مدة طويلة (1805-1817). ولم تنته هذه الثورة حتى أعلنت الطريقة التيجانية الثورة على الأتراك في الجنوب والغرب الجزائري ابتداء من عام 1818.

إن هذه الأسباب التي ذكرناها، جعلت الأهالي يثورون ضد الحكم وضد الابتزاز، وقد ساعدت الفوضى والاستبداد في أواخر العهد العثماني مما مهد الأرضية لعدم الاستقرار وأضعف الدولة وجعل البلاد عرضة للاحتلال الأجنبي المتمثل في الاحتلال الفرنسي الذي وقع سنة 1830 باستسلام الداي حسين ووقوع البلاد تحت الحكم الاستعماري الفرنسي الذي استولى على خيرات البلاد وجعلها في خدمة فرنسا.

- الوضع الديني والثقافي أثناء الاحتلال الفرنسي

لقد اتبع الاحتلال الفرنسي سياسة تدميرية للمؤسسات والبنى الموجودة، وركز اهتمامه على الجانب الديني للقضاء على الشخصية العربية الإسلامية للأهالي، وإبعاد أي خطر لمقاومة سياسية. وقد كانت المؤسسات الدينية أولى المؤسسات التي عمد إلى تحطيمها وقد ركز ضغطه على الدين الإسلامي معتبرا بأنه لا يمكن أن يكون هناك استقرار سياسي إلا بإجراء تحويل ديني، إذا لم يكن إلى المسيحية فليكن إلى الانحلال والتمييع. لذلك استولى

على معاهد الثقافة والمساجد وحول معظمها إلى كنائس وثكنات خشية أن يقف التماسك الديني عائقا أمام المطامع الفرنسية.

ولعل الدافع الأساسي لحملة فرنسا على الدين الإسلامي هو خوفها من تحول تعليماته ودروسه وعظاته إلى إيمان يملأ نفوس الأفراد والجماعات، وبالتالي تستيقظ هذه الروح النائمة فتهدد كيان وجودها بالجزائر.[20]

وتجسيدا لهذا اتبع الاستعمار الفرنسي سياسة واضحة للقضاء على الشخصية الدينية ظهرت في المجالات التالية: القضاء على المساجد أو تقليصها، الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية، السيطرة على القضاء الإسلامي، دعم التبشير المسيحي، تشجيع الخرافات والبدع.

فبالنسبة للمساجد فقد أقدمت فرنسا على هدم وتحويل المساجد إلى كنائس أو إسطبلات أو مستودعات عسكرية. ففي سنة 1830 أغلقت 13 مسجدا كبيرا و108 مسجدا صغيرا و32 جامعا و12 زاوية. وفي عام 1862 لم يكن مخصصا للمسلمين لإقامة شعائرهم الدينية سوى 04 مساجد كبيرة و 08 مساجد صغيرة وتسع جوامع فقط.[21]

أما بالنسبة للأوقاف الإسلامية، فقد أصدر دي بورمون أمرا بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية في 08 سبتمبر 1830 تبعه بأخر في 07 ديسمبر 1830 الذي يعطي للحاكم حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير أو الكراء. وبهذا أممت الحكومة الفرنسية في الجزائر الدين الإسلامي.[22]

وقد اتبع الاستعمار الفرنسي سياسة تحطيم لكثير من البنى والمؤسسات الدينية والثقافية الإسلامية بهدف القضاء على أي مقاومة لسياسته وهذا ما جعل شارل يشار يقول: " ومن الخطأ الفادح أن نستشيره (أي الشعب الجزائري) حول ما قد يحتاجه، إذ نحن المسؤولون عن اختيار المؤسسات التي تلائمه وعن تطبيقها مهما كان رأيه فيها "[23] ويضيف في موقع آخر فيقول: " فلا نرى مانعا في أن يكون مآل هذه المؤسسات (ويقصد بها المدارس العربية والمساجد) إلى الخراب وأن يرجع الشعب العربي إلى عهود الجهالة الأولى،

وعندئذ سوف يتأتى لنا أن نعلمه شيئا وأن نكسبه إلى صفنا عن طريق التربية "[24]. أما الجنرال " دو كرو " فقد جاء في تقريره الذي بعثه إلى نابليون الثالث ما يلي: " يجب علينا أن نضع العراقيل أمام المدارس الإسلامية والزوايا كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا... وبعبارة أخرى يجب أن يكون هدفنا هو تحطيم الشعب الجزائري ماديا ومعنويا.[25]

وقد كان الشعب الجزائري منطويا على نفسه قبل الاحتلال. مسلما الحكم لممثلي الخلافة العثمانية، يعش حياة شبه راكدة في ظل النظام القبلي السائد والتناقضات الطبقية والرضوخ الروحي للطرق الصوفية والمرابطين والأولياء. وقد فوجئ هذا الشعب بالاستعمار الفرنسي، الذي اجتاح بلاده وهدد كيانه وانتماءه القومي وبناه الاجتماعية، والذي سعى بمختلف الطرق إلى القضاء على كل ما يمت بصلة إلى دينه وتاريخه.

وقد مارست فرنسا سياسة للطرق كتقليد للسياسة التركية، فاستمالت بعض الطرق التي ساعدها في نشر هيمنتها وحاربت الأخرى التي تناصبها العداء كالقادرية. وعلى العموم فقد وجدت الأرض الخصبة بفعل تواجد الكثير من الطرق الصوفية خلال العهد العثماني التي شجعتها كوسيلة لنشر الخرافات والبدع، وحضت على زيارة الأضرحة ومقامات الأولياء وما استتبع ذلك من عادات وتفرقة بين أبناء الشعب بشتى الأساليب. ومنها تفطنها لدور الأموال في إدارة شؤون الطرق والزوايا (كالزيارات والصدقات والأوقاف التي كانت تلعب دورا أساسيا في حياة الزاوية والمريدين) فعمدت إلى مصادرة أوقاف المساجد والزوايا وأصبحت تتحكم في رقاب الشيوخ الموجودين على رأس الطرق، فتسمح بجمع الأموال للزوايا الحليفة لسياستها، وتمنع عن الأخرى كل مورد من شأنه أن يمكنها من ممارسة نشاطها بحجة كونها مناهضة لسياستها الاستيطانية. وفيه هذا الصدد يقول روبير أجيرون: " لقد كانت الإدارة الفرنسية تتدخل في كل تظاهرة خارجية للعبادة، فقد كانت الرخص ضرورية لكل احتفال ذي طابع ديني كالزيارة خصيصا تحت طابع جمع الأموال المطلوبة من طرف الأولياء والطرق[26]. ففي سنة 1880 منع الترخيص بالزيارة لكثير من الزوايا ما عدا

زويتي سيدي أحمد التيجاني وعلى بن عثمان شيخ الزاوية الرحمانية بالجنوب وكذلك بالنسبة لشيخين مغربيين حلفينا الشريف الوزان شيخ الطيبية وشيخ زاوية بن بوزيان بالقنادسة[27].

وقد استطاع الاستعمار الفرنسي تكبيل الكثير من الزوايا إن لم تكن أغلبها بمختلف الأغلال (العسكرية والقانونية) وصادر ممتلكاتها وأصبح يتحكم فيها، ونتيجة لهذه الأسباب حاولت مختلف الطرق تغيير هدفها بحيث أصبح دورها يتمثل في جمع المؤمنين وإعانتهم في الطريق السليم وتخفيف آلامهم. وأضحى المريدون مجبرين على التعاون فيما بينهم ومعاداة الطرق الأخرى المنافسة. ويتفاخرون على غيرهم بإتباع الطريق الصحيح الذي سنه لهم شيخهم، والذي يتطلب منهم الاجتماع للصلاة وترديد الذكر والغناء والرقص. واعتبار أن ما أصاب المسلمين إنما يرجع إلى ما اقترفوه من ذنوب.

وبهذا أسرفت الطرق في الحض على الإلتفات إلى النفس والعبادة والذكر والزهد في الدنيا، وصورت الاستبداد والظلم والاستغلال على أنه مجرد بلاء من الله جزاء فساد الجماهير وبعدها عن الدين. وإن العلاج الناجح هو تركية النفس والعودة إلى الله.[28]

وقد عبر عن هذا الوضع أحسن تعبير شارل ريشار حيث قال: "ونحن كذلك في حاجة إلى جماعة من الدراويش، ندفع لهم مكافآت شهرية، ونوعز إليهم بالتكلم في مختلف المناسبات ويكون كلامهم دائما في مصلحتنا.[29]

وقد انعكست هذه الأوضاع سلبا على حال الطرق حيث انتابها نوع من الضعف والانقسام وأصبحت مواقفها تخضع للظرفية والارتجال حيث ساهمت بعض الطرق التي كانت تظهر عداءها لفرنسا في تقدم جيوشها في الصحراء كالقادرية والزيانية وزاوية كرزاز في الساورة لاحتلال الواحات في سنتي 1900-1901.[30]

وبعد ما كان شيوخ الطرق يتعدون عن كل علاقة بالفرنسيين، أصبحوا يظهرون خضوعهم لهم على أمل الحصول على امتيازات رخص الزيارة وإغلاق زاوية منافسة. وأصبحوا يحصلون على مقابل الخدمات المقدمة لفرنسا على تنازلات من كل نوع، التتويج بالأوسمة، الحصول على الزيارات والصدقات والتصرف في التويزة من أجل استصلاح

أراضيهم. وقد تولد عن هذا الوضع قيام النزاعات والفتن بين الزوايا والطرق وامتد ليشمل القبائل التي تنتمي إليها وقد جسدت السياسة الفرنسية المعروفة " فرق تسد " وفي هذا المجال فقد سخر بيادقه وأعوانه كالقياد ورؤساء الدواوير والمداشر والأحياء من أجل الوصول إلى أهدافه والنيل من استقرار السكان والقبائل.

إن ما يعبر بدقة عن هذه الوضعية، هو ما وصل إليه الكسندر جولي في دراسته للزاوية الدينية الجزائرية حيث يقول: " والخلاصة، فإن الطرق الدينية للإسلام لا يظهر لنا عداؤها لبعضها البعض، ولكن تمزقها عن طريق خصوماتها الداخلية المستمرة والتي تجعل أحلامها وهمية...ويجب أن نريح ضميرنا من الخوف، وبدون شك لا يجب أن ننام في أمن مخادع. فقد يحدث في بعض الحالات أن تنسى الطرق خلافاتها من أجل قضية مشتركة ضد عدو مشترك. ويبقى على السياسة الحيلولة دون ظهور هذا الحدث عن طريق الاستعمال الدقيق للانقسامات الحالية، مع العمل عند الضرورة على حفظها وتأجيجها. "[31]

وقد أدرك المستعمر نفسية هؤلاء الشيوخ، فبعد أن قهرهم عسكريا، استمالهم عن طريق إغداق المال عليهم ليقيموا الحفلات والولائم، مسيطرا بواسطتهم على جموع المريدين البسطاء، وأخذ أعلام المستعمر يصور حلقات الذكر التي يقيمها هؤلاء على أنها من شعائر الإسلام، وأن هؤلاء المشايخ الواصلين إلى الله، هو رجال الإسلام وحماته.[32]

وشجع الاستعمار الخرافات والبدع مستغلا تعلق الأهالي بالأولياء الذين لم تكن تخلو مدينة أو قرية أو دوار من قبابهم ومقاماتهم. وقد شجعت الإدارة الفرنسية الوعدات التي تقام موسميا لكل ولي على حدى. وكانت هذه الولائم مركزا هاما لنشر الخرافات والبدع وإبعاد الناس عن مقاومة المستعمر وتكوين وعي وطني من شأنه أن يشكل خطرا على الاستعمار الفرنسي وعلى سياسته في الجزائر. ولذلك سمح وشجع إقامة الوعدات على مستوى القبائل والأعراش حيث اختص كل ولي بقبائل معينة. وهذا ما خدم بطريقة أو بأخرى أهداف الاستعمار الفرنسي من حيث التمكن من تأجيج الصراعات بين مختلف القبائل عن طريق زرع الفتن بين قيادة هذه القبائل والدواوير وبين مختلف الأولياء التي تنتمي

إليها الأعراش. إذ أصبح لا يرخص لإقامة هذه الاحتفالات الموسمية إلى بعد التأكد من أنها تصب في سياسته وتخدم مآربه حيث لا تخلو وعدة من حضور ممثل الإدارة الفرنسية والقياد والأعوان مما يجعلها بوقا من أبواق الدعاية الفرنسية. وشجع الخرافات والبدع مستغلا سذاجة المريدين والأتباع والجهل الذي كانت تتخبط فيه الجماهير. وقد توسعت الطرق وانتشرت الزوايا والقباب والأضرحة فوق الربى وفي الدواوير والقرى والمدن. وكثيرا من القباب تجدها خالية لأنها مقامات للشيخ عبد القادر الجيلاني وهي تزار وتقام فيها الولائم (الوعدات) ولذلك اختصت كل قبيلة بإقامة وعدة معينة ودأبت على إقامتها في وقتها المحدد بإيعاز من القائمين على القبيلة واستغلت من قبل السلطات الفرنسية في تثبيط كل مقاومة وتكوين فكر وطني مناوئ للاستعمار الفرنسي. وخضعت بدورها لموافقة الفرنسيين الذين كانوا يشترطون الولاء لتقديم رخص إقامتها ويجنون من ورائها خضوع الشعب لسياستهم إذ أن أغلبية شيوخ الطرق والقبائل كانوا يتنافسون لنيل رضى الحاكم الفرنسي مع ما يترتب عن ذلك من نيل امتيازات وقوة تستخدم لمقاومة ومنافسة القبائل الأخرى. وقد انخرطت العديد من الزوايا في هذا المجال وأصبح شيوخ الطرق يتقربون من السلطات الفرنسية وينظيمون المواسم السنوية (الوعدات) لتقديم الولاء والطاعة والحصول على الامتيازات وجر الأتباع إلى مزيد من الطاعة والخنوع للسلطة الاستعمارية واعتباره قضاء وقدرا حل بالبلاد جراء فساد الجماهير وأن هذا الأمر لن لا يزول إلا برجوعهم إلا جادة الصواب وإلى الطريق المستقيم الكفيل بإخراجهم من هذا المأزق الذي تورطوا فيه. وقد سخر لهذه الغاية شيوخ الزوايا ومقاديمها ورؤساء الدواوير والقياد وكان لا يتم أي احتفال أو وليمة إلا بمصادقة الحاكم الفرنسي وحاشيته من القياد وغيرهم ولا يستقيم أمر الوليمة إلا بحضورهم وتكريمهم أحسن الكرم من قبل القائمين على الوعدة حتى إذا انتهت الاحتفالات وأقيم المعروف دعي لهم بالخير والصلاح.

وقصد التصدي لهذه الممارسات التي كانت تطيل عمر الاحتلال للبلاد وتقف في وجه أي فكر توحيدي وتحرري بتركيزها على النزعة القبلية والتنافس القبلي حتى ظهر هذا

التنازع في ميدان الولائم حيث عملت كل قبيلة على إحياء وعدها بنفسها وكأنه كيان منفصل ومستقل عن كيان المجتمع الذي توجد فيه. لذا بزغت جمعية العلماء المسلمين بقيادة عبد الحميد بن باديس لتبين للناس خطورة هذه الممارسات على المجتمع في جميع مجالاته ولاسيما الاجتماعية والثقافية والدينية واعتبارها كبدع يجب محاربتها بكل الوسائل والطرق.

- جمعية العلماء المسلمين والطرق:

لقد أدركت جمعية العلماء المسلمين الدور السلبي للطرق الذي كان يصب في تدعيم الاستعمار الفرنسي عن طريق بث الخرافات والبدع والمساهمة في سياسة التجهيل. وقد اعتبرت أن الطرقية قد أحدثت في الإسلام وثنية لاعتمادها على بعض الطقوس الغريبة عن الدين الإسلامي مثل: الخلوة والتوسل بغير الله، والبركة[33]. وإن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام وما يتبعها من إقامة لطقوس الوعدات إنما تشكل سببا من أسباب تفرق المسلمين وأنها السبب في ضلالهم في الدين والدنيا. وأن هذه الطرق هي أظهر آثارا وأشنع صورة في القطر الجزائري لذلك يجب محاربتها. ونعلم أننا حين نقاومها، إنما نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها إن شاء الله نقضي على كل باطل ومنكر وضلال. ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان ومع ما فيها من فساد للعقول وقتل للمواهب.[34]

وقد تمثلت غاية الجمعية في محاربة البدع المرتبطة بالمساجد والجنائز والمقابر والحج والاستسقاء والنذور والتي أصبحت تشوه هذه المظاهر المقدسة لدى المسلمين وقد سعت الجمعية بكل ما أتيت إلى محاربة هذه الطرق ونفض الغبار والشوائب عن ما علق بالدين الإسلامي اعتمادا على الكتاب والسنة ونشر التعاليم الدين الصحيحة في أوساط الشعب وإظهار المفاسد التي تقوم عليها هذه الطرق. وقد توالت هجمات ابن باديس على تصرفات هؤلاء المتأخرين من الصوفية وعلى مختلف التظاهرات التي كانت تقام على شرفهم وعلى زواياهم التي كانوا يديرونها والتي كانت تصب بقصد أو دون قصد في خدمة سياسة الاستعمار الفرنسي عن طريق ما كانت تشكله من جمود ونشر للبدع والخرافات في أوساط

الأهالي حتى أصبحوا وسيلة طيعة في أيدي شيوخ ومقادم الطرق يشكلونهم كيفما أرادوا وغالبا ما كان هذا التشكيل يتخذ جانبا سلبيا بواسطة إقناع الشعب بأن الاستعمار يعد عقابا سلط عليه نتيجة لخروجه عن الدين واقترافه للآثام، وأن الحل الوحيد للتخلص هو الرجوع إلى جادة الصواب وإتباع الطريق المستقيم. وقد عمد أعضاء الجمعية إلى محاربة الطرق والمرابطين، وسخروا أفكارهم وأقلامهم في هذا المجال من أجل انتزاع الشعب من براثين هؤلاء الشيوخ الذين ساهموا بأفكارهم في نشر الجمود والخمول ومحاولة جعل الأهالي يتقبلون مصيرهم المحتوم بدون البحث عن الوسائل الكفيلة بإخراجهم من وضعية الاحتلال. وقد نشرت مقالاتهم في جرائد الجمعية كالشهاب والبصائر ورسالة الشرك وبدعة الطرائق في الإسلام وغيرها.

وقد أدرك ابن باديس بأن العنصر الديني الذي كان أساسا في إصلاح هذه الأمة، بل في دفعها إلى المقدمة في كثير من عصور التاريخ ولعدة قرون، وفي فترات متفاوتة، هو السبيل في شحذ الهمم لإنقاذ الأمة ودفعها مرة جديدة في طريق الحضارة. ولكن بشرط أن يطهر الإسلام من الأوهام والخرافات التي لحقت به في عصر التدهور ولكي يطهر من الأوهام والخرافات لا بد من مجابهة الطرقية الفاسدة ومحاربتها. وقد هاجمها ابن باديس بقوله: " إن الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كل مبني على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ، وأولاد الشيخ إلى ما هناك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم، وغير ذلك من تلك الشرور. (35)

وقد أثمرت جهود ابن باديس في محاربة الطرق الصوفية عن طريق نشر العلم والدعوة للإصلاح وأصبح القطر الجزائري سنة 1936م " يكاد لا يخلو بيت من بيوته ممن يدعو إلى الإصلاح وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولي والعملي، وأصبحت البدع والضلالات تجد في عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها ".

لقد انتقد علماء الجمعية تنظيم الطرق الذي وضع على أساس نظام هرمي، فنجد في قاعدة الهرم الإخوان وفي أعلاه شيخ الطريقة وبينهما مجموعة من رجال الطريقة يقومون بوظائف دينية خاصة ثم تعينهم من قبل الشيخ صاحب السلطتين الدينية والدنيوية. ونتج عن هذا الوضع انقسام المجتمع إلى مشايخ ومقدمين وإخوان وتدعيم التعصب والتحزب لطريقة على حساب طرق أخرى. فهناك من يناصر القادريين. وهناك من يناصر غيرهم، وأصبحت إخوة الطريقة تفرض عليهم أن يبغضوا كل من لم يتصل معهم بحبل الشيخ وينابذه، ولا يجتمعون معه ولو في العبادات الشرعية.

ومن جملة البدع التي شجبها العلماء على الطرق بدعة الزيارات والهدايا التي تتطلب واجبات مالية وعينية وبهذا استجلبوا الزكاة لأنفسهم. وسخروا لمصالحهم الخاصة بعض العادات الاجتماعية كالتويزة والمعونة، فكان حق الشيخ كما يقول الإبراهيمي قبل الزوجة والأولاد والآباء والأجداد. وحق الشيخ في المال قبل حق الفقير المسكين.

ولا شك أن الصراح بين أهل الحقيقة وأهل الشريعة ليس وليد عصر الاحتلال وإنما يعود إلى ظهور التصوف وانتشار الطرق حيث أشار إلى هذا الجانب الشيخ عبد الحميد بن باديس بإيراده لمجموعة من العلماء انتقدوا الطرق الصوفية على مر الزمان كأبي بكر الطرطوشي من أهل القرن الخامس والسادس الهجري في كتابه " إنكار البدع والمحدثات " وأبي حيان الأندلسي في تفسيره الكبير وغيرهما من العلماء[36] الذين هاجموا الصوفية وطقوسها التي اعتبروها بدعا وانحرافا عن تعاليم الشريعة الإسلامية. وقد ساهمت البعض منها من دعم للسياسة الاستعمارية عن طريق ما وفرته من ظروف ساعدت على الركود والجمود مقاومة بذلك كل حركة للتقدم والتطور مشتتا مجهودات العلماء الشرفاء بوقوفها أمام بزوغ وعي وطني بفعل تناحرها مع الزوايا الأخرى كما بالغ شيوخها في استغلال مشاعر العامة حيث خلقوا نوعا من الرهبانية التي تتولى توزيع صكوك الغفران لمن تريد وتضعه عمن تريد. وقد مالت الطرق إلى القضايا التافهة بدل القضايا الجوهرية كإبعاد قضايا الجهاد واعتبار الاستعمار قضاءا وقدرا نجم بفعل عدم ابتعاد الناس عن الشريعة. وقد دعم

مكتبة الكلية

الاستعمار هذه النظرة بعد أن أدرك النفوذ القوي الذي يتمتع به هؤلاء الشيوخ، فأغدق عليهم الأموال وساهم في نشر الطقوس البدعية والتقاليد المنحرفة، وكل ما من شأنه أن يجعل الناس أكثر جهلا وأمية ليتمكن من بث روح الخضوع وبذلك شجع العادات بتأمين التمويل والحماية هادفا إلى نشر الانحلال الاجتماعي ليتسنى له التحكم في رقاب الناس.

وقد أدرك الاستعمار أهمية إقامة الاحتفالات والولائم والزردات والوعدات، فأوكل إلى القياد وشيوخ القبائل ورؤساء المداشر ومقدمي الطرق تنظيم الولائم على شرف الشيوخ. وشجع إقامة الوعدات على الأضرحة والقباب، وتشكلت بفعل هذه السياسة ممارسات ركزت على احتفال كل قبيلة بصاحب ضريح خاص بها، تحتفل به سنويا ولا تحيد عنه وبذلك ازداد التفاخر والتباهي بين القبائل وأدى في الكثير من الأحيان إلى الإسراف في الإنفاق قصد إبراز نفوذ القبيلة وسيطرتها. ولكن هل ننظر إلى الوعدة كطقس سلبي أم كطقس إيجابي ساهم في تماسك الأمة والحفاظ على مقوماتها؟

لقد شكل طقس الوعدة سدا منيعا أمام محاولات التغير وتذويب الثقافة الوطنية بحيث أن إقامتها سنويا واندماج السكان في احتفالاتها أدى إلى التماسك القبلي والمحافظة على العادات والتقاليد التي تحويها كالتآزر والتآلف بين الأفراد والتكافل وفض الخلافات أمام الجماعة دون اللجوء إلى المحاكم الفرنسية ولاسيما ما تعلق بالأحوال الشخصية مما ميز ثقافة الشعب عن ثقافة المحتل وأنهم بطريقة غير مباشرة في توفير الظروف المناسبة لمقاومة هذا الاستعمار.

- الوعدة بعد الاستقلال

لقد فرضت الظروف التي عاشتها الجزائر خلال فترة الاحتلال وما تركته من دمار في كافة المجالات وما كابدته الجماهير العريضة بين ظلم واستبداد على القيادة الخارجة من رحم الحرب أن تتبنى الطريقة الاشتراكية في التنمية التي كانت لها إيجابياتها وسلبياتها على المسار التنموي للمجتمع. وكسائر القطاعات، تأثر القطاع الفلاحي بأسلوب التنمية حيث طبق التسيير الذاتي في القطاع العام القطاع الخاص فقد ترك لحاله إلى غاية صدور قانون

الثورة الزراعية في سنة 1971 حيث ركز على التغيير الجذري لعلاقات الإنتاج في الوسط الريفي وقام بتحديد الملكية ومصادرة أراض الملاكين الكبار ومن هذه الأراضي الأراضي التي كانت تابعة للزوايا والموقوفة عليها. وتحت هذا الغطاء صودرت أراضيها وتم القضاء على مصدر أساسي في مصادر دخلها لأنها كانت تشكل عرقلة للتنمية في الوسط الريفي حسب أصحاب القرار وترجع بأصلها غلى العهد البائد وتهيئ الظروف المناسبة لقوى اجتماعية رجعية لا تتلاءم مصالحها مع مصالح الجماهير العريضة من السكان. بل تتفق مع مصالح الإقطاع والعلاقات البالية ويتعارض وجودها مع التقدم والتنمية. ونتيجة لهذه السياسة فقد تم القضاء على البنى التحتية لكثير من الزوايا وأصبح اعتمادها على المريدين والأتباع سواء في إدارة شؤونها أو إحياء حفلاتها. وعلى الرغم من تضاءل نفوذها فإن تشبث أتباعها مكنها من الاستمرار في السير والقيام بوظائفها بصفة عادية وإحياء تظاهراتها السنوية لو يخفت لهيبها إلا خلال فترة الإرهاب لتعود من جديد في الفترة الحالية مشجعة من قبل الدولة وفق أهداف سياسية معينة.

ومما يلاحظ خلال فترة الاستقلال أن السلطة لم تعارض أبدا إقامة الوعدات، لكون هذه الأخيرة كانت المتنفس الوحيد الثقافي ولاسيما في الأرياف لملايين الأشخاص. ولأنها عادة قديمة لا يمكن القضاء عليها بسهولة فضلا أنها نابعة من التراث الشعبي الجزائري الشيء الذي مكنها من الاستمرار والديمومة والعودة من جديد في مختلف مناطق الوطن ولاسيما في الجهة الغربية حيث لا تكاد تخلو منطقة منها.

لقد شكلت ظاهرة الوعدة نوعا من الطابو بالنسبة للباحثين حيث لم تتطرق إليها الدراسات بصفة معمقة وحتى بالنسبة للطرق والزوايا واكتفت بإصدار أحكام قيمية حولها بالتوافق مع نظرة السلطة السائدة آنذاك و لم يعاد لها الاعتبار إلا مع فترة الانفتاح ومع ذلك لم تعط الأهمية اللازمة، ولا زالت في حاجة ماسة إلى مزيد من البحث والدراسة.

ولقد استخدمت من قبل الإسلام الرسمي لمباركة الواقع ومساندة الحكم القائم عن طريق توجيهها لمحاربة التطرف لذلك لم تهاجم من قبل الخطاب الرسمي على الرغم من أنها لم

تتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي ولاسيما مع نظرة الفقهاء التي تعتبرها نوعا من الشرك والبدع والسبب في ذلك أنها تساهم في استقرار المجتمع و.....النظام القائم. وهذا ما جعل السلطة تتبنى العديد منها وتحولها إلى تظاهرات وطنية تشرف عليها وتقدم إليها الدعم المالي والإعلامي وهذا يشكل نوعا من مقاومة الفكر المتطرف.

وقد وجد هذا النوع من الخطاب أرضية خصبة من قبل المجتمع الريفي الذي يرى تجانسا بين الطقوس البدعية والطقوس الدينية التقليدية وهذا بسبب التصور التوافقي التقليدي لما هو ديني. إن التدين الشعبي يساهم بطريقة أو بأخرى في إرساء دعائم النظام القائم ويشكل في بعض الحالات سندا قويا للسلطة. أما الخطاب غير الرسمي فإنه يعمل على إدانة هذه الممارسات باعتبارها تشكل نوعا من الانحراف للطقوس الدينية. ولذلك ويوجه نقده الحاد إلى محركي ومستهلكي هذا النوع من الطقوس التي لا تتوافق مع تعاليم الدين مؤكدين على أن هناك نصوصا صريحة تحرم مثل هذه الممارسات. ويعد هذا الموقف امتدادا للموقف الذي اتخذته جمعية العلماء المسلمين اتجاه هذه الطقوس التي اعتبرتها نوعا من الوثنية القديمة برزت من جديد ضمن التدين الشعبي. وهذا يجعلني أتساءل عن مدى استمرار الوثنية في طقس الوعدة على الرغم من أن ممارسيها يعتنقون دينا لا يتوافق تعاليمه مع هذا الطقس. وبعبارة أخرى ما هي أسباب بقايا الوثنية في طقس الوعدة. وهذا الأمر يجرني إلى إجراء الشق الميداني لأرى مدى تطابق التصورات النظرية مع الواقع الميداني لظاهرة الوعدة التي تعتبر ظاهرة عامة تمس جميع مناطق الجزائر.

الهـــــوامش

[1] أحمد أمين، " **زعماء الإصلاح في العصر الحديث** "، بيروت: دار الكتاب العربي، ص 06.

[2] المرجع نفسه، ص 07.

[3] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 482.

[4] العيد مسعود سعيد، " **المجتمع الجزائري في العهد العثماني** " رسالة ماجستير في التاريخ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ص 309.

[5] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 465

[6] العيد مسعود سعيد، مرجع سابق ص 309.

[7] المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[8] المرجع نفسه، ص 312.

[9] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 61.

[10] GOGNALOUS L. "FETES PRINCIPALES D'OURGLA ", Revue Africaine N° 53 Année 1909 – ALGER OPU. 1986 P 89.

[11] العيد مسعود سعيد، مرجع سابق ص 328.

[12] سيجموند فرويد، " **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي** "، ترجمة أحمد عزت راجح، مكتبة مصر، الفجالة، بدون تاريخ، ص 141.

[13] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 265.

[14] ناصر الدين سعيدوني، " **العوامل المتحكمة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني** "، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982، ص 36.

[15] فيلالي مختار بن الطاهر، " **رحلة الورتيلاني** "، عرض ودراسة، باتنة، دار الشهاب، ص 104.

[16] أحمد أمين، مرجع سابق، ص 8.

[17] المرجع نفسه، ص 11.

[18] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 482.

[19] ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 39.

[20] أحمد الخطيب، " **جمعية العلماء المسلمين وأثرها على الإصلاحي في الجزائر** "، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 48.

[21] نفس المرجع، ص 49.

[22] نفس المرجع، ص 51.

[23] مصطفى الأشرف، " **الجزائر الأمة والمجتمع** "، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص 338.

[24] المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[25] أ/ع خزار، " **جذور الحركة التنصيرية في الجزائر** "، الشروق الثقافي العدد: 06 من 1993/07/29 إلى 1993/08/11.

[26] CHARLES-ROBERT, AGERON " LES ALGERIENS MUSULMANS ET LA France (1871-1919)" Tome II PUF P 262

[27] IDEM P 309

[28] عبد الحليم محمد أحمد، أبو شقة، " **حول أزمة خلق المسلم المعاصر** "، تونس: الزيتونة للإعلام والنشر، 1989، ص 23.

[29] مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص 340.

[30] C.R AGERON – OPCIT P 901.

[31] ALFRED BEL OPCIT P 372

[32] أحمد الخطيب، مرجع سابق، ص 60.

[33] المرجع نفسه، ص 94.

[34] المرجع نفسه، ص 115.

[35] المرجع نفسه، ص 192.

[36] للمزيد من الإطلاع، أنظر عمار طالبي، " **ابن باديس، حياة وآثاره** "، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، 1983.

الباب الثـــانى
البعد الميدانى لمشكلة البحث

الباب الثـــــاني: البعد الميداني لمشكلة البحث

تتكامل النظرية والتطبيق في بنية العلوم الاجتماعية ويعتبر أي منهما عقيما دون الآخر. ويعتبر التطبيق وسيلة لاختبار تصوراتنا النظرية. لقد درسنا في الفصول السابقة الشق النظري للوعدة وسنقوم بإعطاء صورة حية لها عن طريق وصف ودراسة وعدة سيدي أحمد المجدوب الواقعة في إحدى مناطق الغرب الجزائري وبالتحديد ببلدية عسلة ولاية النعامة مقدمين نبذة تاريخية عن الولي الصالح ووصف لها. ثم نتطرق إلى الإجراءات المنهجية للدراسة من إشكالية ومنهجية البحث وفرضياته وأهدافه والمنهج المستخدم لنعرج على مجال الدراسة الجغرافي والبشري والوسائل المستخدمة لجمع المعطيات لنصل إلى تحليل وتفسير البيانات ونتوج كل هذا العمل بعرض ومناقشة النتائج العامة. وبهذا سنتمكن من معرفة مدى تطابق التصورات النظرية مع الواقع الميداني لمشكلة البحث التي أثرناها سابقا.

فصل الأول

معروف سيدي أحمد المجدوب من تراث للأجداد إلى حماية الأحفاد

- نبذة تاريخية حول حياة سيدي أحمد المجدوب
- تحضير وسير المعروف
- تنظيم وسير الحفل

- نبذة عن تاريخية حول حياة سيدي أحمد المجدوب

هو أحمد بن سليمان بن أبي سماحة بن أبي ليلى بن بلحيا بن عيسى بن معمر بن سليمان بن سعد بن عقيل بن حفيظ بن أحمد بن عيسى بن محمد بن عيسى بن زيدان بزيد بن طفيل بن المدى بن زغوان بن صفوان بن محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه(1) وقد ولد في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (1490) بداية القرن العاشر الهجري، وهي سنة سقوط غرناطة. وتوفي في المنتصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، العاشر الهجري. وكان والده رجل دين وتصوف وفقه تشهد على ذلك المخطوطات التي تزخر بها زاويته ببني ونيف. أمه هي عائشة بنت أحمد بن عبد الجبار من عائلة مثقفة وشريفة معروفة في فجيج، أنجبت أدباء ينحدرون من الشرفاء الأدارسة. وبهذا يكون سيدي أحمد المجدوب بوبكريا من جهة أبيه وشريفا من جهة أمه.

ويعد صاحب كتاب " كعبة الطائفين " أخا له وهو سيدي محمد بن سليمان دفين بلدية الشلالة الظهرانية ووالد القطب المعروف " سيدي عبد القادر " الذي اشتهر بسيدي الشيخ دفين مدينة الأبيض سيدي الشيخ. وإليه ينتسب أولاد سيدي الشيخ الذين قاموا بالثورة ضد الاحتلال الفرنسي في سنة 1864 وكذلك بوعمامة إلى غاية 1904 وشقيقته هي " لا لا صفية " أم أولاد نهار، وقد أنجبت " يحي بن صفية " الذي يعود إليه أولاد نهار الموجودون بسبدو ولاية تلمسان وقد توفيت ودفنت بقرية تيوت ولاية نعامة. زوجته هي السيدة " أم كلثوم " بنت سيدي بوتخيل وهي دفينة عين الصفراء. جده لأمه هو الشيخ بن عبد الجبار الفجيجي، وهو شاعر ومتصوف أسس زاوية بتسالا، أشتهر في المغرب الأقصى والأوسط(2) وقد توفي في سنة 950هـ/ 1543م سنة دخول الإسبان تلمسان وقد أنجب منها ابنين وبنتا: سيدي سليمان، سيدي التومي، ذهبية.

نشأ سيدي أحمد المجدوب في بيت علم وتلقى تعليمه على يد والده سيدي سليمان بن أبي سماحة وجده لأمه السابق الذكر. وتلقى مبادئ التصوف على يد سيدي أحمد بن يوسف الملياني حينما زار الجنوب الغربي ودخل أبوه طريقته وانخرط في الجماعة الصوفية،

الشاذلية واطلع فيما بعد على أصول المذهب الصوفي وارتقى إلى درجة عليا في الرتب الصوفية " المجذوب " ومعناها كما أوردها محمد المهدي الفاسي في كتابه " ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجذوب جاء فيه ما يلي: " ليس معنى المجذوب بفاقد الحس والتمييز كما يفهمه كثير من الناس. فلم يكن مغلوبا على نفسه منقطعا عن الدنيا بل كان شأنه شأن المكمل من إقامة الوظائف الدينية والرسوم الشرعية وتأدية الحقوق وعدم الإخلال بشيء منها "(3) وتعني أيضا " الانجذاب والمسلوب من الله المنجذب إليه، صاحب الرؤية فوق الطبيعية الذي وصل إلى الأسرار التي تتجاوز العالم المادي ".(4)

لم يخلف سيدي أحمد المجذوب أي أثر مكتوب يمكن أن يلقى الضوء على ظروف حياته وثقافته. غير أن المأثورات والروايات التي تم تناقلها عبر الأزمة المتتالية تفيد بأنه كان رجل دين وتصوف بحيث كان يؤم المصلين ويسدي النصيحة التي تقترب من الإفتاء الأمر الذي أكسبه نفوذا روحيا في المنطقة تعزز بفعل استناده عند العامة والخاصة على نسبه البوبكري (نسبة إلى الصحابي الجليل أبي بكر الصديق رضي الله عنه). وقد اشتهر عنه أنه كان وزوجته حسب الروايات الشعبية أنهما كانا كثيري الاعتكاف بالكهوف المحاذية لضريحه خلف وادي عسلة، ويشهد عليه الكهف الذي يحمل اسمه بحمام ورقة الذي كان يتعبد به هاربا من زخرف الدنيا وزينتها معتزلا الناس بحيث أنه كان يهجر الأماكن الآهلة إلى الجبال والسهوب حاملا معه ما يقتات به من خبز وتمر يابس لقضاء ليالي كاملة في الصلاة والتأمل غير مكترث بالمال والجاه مفضلا عليها حياة الزهد والتقشف، منتقلا من مكان إلى مكان ممتطيا حماره حتى لقب بـــ " بوحمير ". وقد أنجب ابنين وبنتا مثله مثل أبيه الذي تناقلت الروايات الشعبية قوله المأثور: " خير الفناية طيرين وعارم أي ولدين وبنتا واحدة " وهم:

سيدي سليمان بن المجذوب جد فرقة أولاد الحسين دفين بلدية عسلة.

سيدي التومي جد بقية أولاد سيدي أحمد المجذوب دفين بلدية عسلة.

السيدة ذهبية زوجة القطب سيدي الشيخ وأم سيدي بحوص الحاج وسيدي عبد الرحمان.

وقبل أن نتحدث عن ضريح هذا الولي الصالح نشير في البداية إلى التشابه الذي تتسم به أضرحة الأولياء الصالحين، ولاسيما المكان الذي تقع فيه حيث يذكر دوفيقو " أن ضريح سيدي سلطان في واحة تونسية يقع على يمين القرية، أين وجد نبع ماء، على اليسار أرضية رملية ثم المقبرة ثم المدرسة(5) وهذا ما ينطبق على ضريح سيدي أحمد المجذوب ويرمز اليمين إلى الإيمان في الديانة الإسلامية، منبع الماء على الخصوبة المقبرة إلى البعث، المدرسة رمز العلم والمعرفة العلمية، أما الشكل الهندسي للقبة فهو رمز " الكون المتناغم والمستدير ".

يقع هذا الضريح ببلدية عسلة ولاية نعامة. وتعد هذه الأخيرة في الأزمنة الماضية ملتقى طرق ما بين الجنوب الغربي والشمال الغربي. وقد اختلفت في تسميتها: فهناك من يرجعها إلى الأصل الأمازيغي " أصلا " وتعني الحجر الأصم أو " الصفاح " بالتعبير المحلي، وهناك من يرجع تسميتها إلى توفر خلايا النحل أو العسل بكهوفها آنذاك، في حين يرى البعض أن التسمية ترجع في أصلها إلى توفر منابع الماء بالمنطقة. وقد اشتهر سكان القصر وهي التسمية التي شاعت في القرن 15م الموافق للقرن 10هـ بخدمتهم للولي الصالح. وامتهنوا نشاط الفلاحة والخضر المعتمدين على الري انطلاقا من واديها المشهور كما اعتمدوا على تربية المواشي والنسيج وجلب التمور.

لقد أدى النفوذ الروحي الذي امتاز به سيدي أحمد المجذوب في هذه المنطقة وتعلق الأعراش به وقصد تخليد ذكراه إلى أن قام ابنه سيدي أحمد التومي بعد وفاته بتأسيس زاوية لتعليم القرآن، تستقبل الزوار وتكرم الضيوف وتمثل ملجأ للغرباء وأبناء السبيل سيما وأن المنطقة كانت تتسم في ذلك الوقت بصعوبة المسالك وخطورة التنقل فيها وقلة بضاعتها. وقد تطورت هذه الزاوية مع مرور الزمن إلى أن أخذت شكلها الحالي.

وقصد تعزيز هذه الذكرى وجعلها ذكرى متواترة عبر الأجيال حتى لا يلفها النسيان تم التفكير في إقامة المعروف أو الوعدة للترحم على الجد الصالح في لقاء خريفي يضم

أبناءه وأحفاده من أجل تنظيم شؤون القبيلة الداخلية والخارجية. والمعروف هو ما يعرف عند العامة: " الوعدة " ويشتمل هذا المفهوم على مضامين دينية واجتماعية: تتمثل الدينية في الدعاء والذكر والصلاة والمديح الديني، أما الاجتماعية فهي تمتين العلاقات بين الأفراد والعائلات والتعارف مع القبائل الأخرى وفض النزاعات والإحسان إلى الفقراء والمساكين وقد يتعدى هذين الجانبين إلى الجانب الاقتصادي بتنظيم حملات التويزة أو التطوع لبناء السدود الصغيرة أو شق الطرق أو غيرها من الأعمال التي تعود على القبيلة بالفائدة. وقد اتسم هذه الأمر في بدايته بعدم الانتظام على أساس موعد يتم الاتفاق عليه من قبل الجميع، وبذلك كان يخضع للعفوية وعدم الانتظام. وقد كانت تحضر كل خيمة من كل شرائح أولاد سيدي أحمد المجذوب قرب ضريح ابنه سيدي التومي فتقوم بالمعروف تبركا بالولي الصالح.

ولتفادي كثيرا من المشاكل التي كانت تطرح نظرا لبعد المسافة بين الأعراش والدواوير ولاسيما فيما يتعلق بأبناء الدواوير الذين يقطنون بعيدا عن مكان إقامة المعروف فكر الأعيان ورؤساء الأعراش في ضبط تاريخ محدد للمعروف وقد تم هذا الأمر في سنة 1904 حيث بدأ ينظم في بداية أكتوبر الفلاحي أي الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر الميلادي.

لم يختر هذا التاريخ بصفة اعتباطية بل خضع لظروف واعتبارات معينة فرضتها الحياة المعيشية والواقع الموضوعي في ذلك الزمان ومنها:

توزع وانتشار الأحفاد في مناطق متفرقة من الوطن وبعد المسافة جعلهم يتفقون على موعد المعروف في الصحراء وذلك لانعدام وسائل الاتصال آنذاك.

عودة العائلات من الشمال والتي غادرت الصحراء لأسباب اقتصادية في الصيف (الحصاد أو التشوال بالعامية)

انطلاق القوافل نحو الصحراء بعد الأسبوع الأول من أكتوبر الفلاحي لجلب التمور، ويتم التحضير لهذا السفر أثناء المعروف وإعداد العدة له.

تنطلق عملية الحرث بعد انتهاء المعروف ويحتاج الناس إلى مساعدة بعضهم البعض نظرا، لقلة الوسائل وهذا اللقاء يكفله هذا التجمع السنوي لجميع الأحفاد.

يشكل المعروف موعدا لبيع وشراء مختلف أنواع الخضر والفواكه التي تنتجها القصور والتي تنضج في الخريف كالتمور والرمان وبقية الخضر التي يحتاج لها الإنسان في الشتاء.

يشكل فصل الخريف فرصة لإعداد الألبسة الصوفية (البرنوس، الجلابيب) لمجابهة الشتاء وهي ملابس تنتج محليا إلى جانب الزرابي والأفرشة من قبل البدو لتباع في الوعدة.

- نقطة التقاء بين العائلات والأفراد بعد طول فراق وأداة اتصال وتواصل في وقت انعدمت فيه وسائل الاتصال كما تعد مكان مفضلا لتوطيد العلاقات وفض النزاعات.
- تشكل وسيلة من وسائل الاستسقاء قد تنوب عن الصلاة الشرعية في اعتقاد العامة.

- تحضير وسير المعروف

يحمل هذا المصطلح نفس المعنى في المجتمعات المغاربية ولاسيما الجزائر والمغرب. وتظهر بعض المصطلحات المرادفة له تستعمل من قبل السكان المحليين كالوعدة والزردة. ولذلك يمكن استخدامها في مكان بعضها البعض على أساس أن هذه المفاهيم غير ثابتة وغير دقيقة. وقد ساهم في بلورتها التراث بأبعاده الثلاثة: الدين الإسلامي، الموروث الشعبي والعقائد البربرية القديمة. لهذا يمكن القول بأن الظاهرة تشكلت من خلال الحركة التاريخية لمخيالين متمايزين: عربي وبربري في شكل يعكس العوامل التقليدية والبدعية في كل متجانس، ويبقى القاسم المشترك بين مختلف شعوب المغرب العربي في هذا المجال وجود الجد المشترك للقبيلة المؤسس الذي يعطي للاحتفال طابعه الخاص. وهذا الأمر يختص بالمجتمعات القبلية ويمكنها من عملية التلاحم بين أفرادها ويعيد إنتاج القبيلة على مستوى وعي الأفراد على الرغم من أن العديد من الأسباب أصبحت تعمل على تلاشيها كوحدة بفعل

اضمحلال الظروف التي أنتجتها في الماضي (تناقص أهمية الرابطة الدموية لصالح رابطة المصلحة بفعل الظروف الصعبة التي يواجهها المجتمع ككل).

لقد تم الحفاظ على الأعراف والعادات في المجتمعات التقليدية من خلال إعادة تثبيت العلاقات العميقة. بذلك أصبح هذا الطقس يحوي عادات وتقاليد ترجع في أصلها إلى سنين بعيدة (تقديم الطعام، الرقص، التسلية...الخ).

يتم الإعلان عن المعروف بواسطة أحفاد الولي المنتشرين في جميع أنحاء الوطن خاصة في الغرب أما من يعرفون موعدها الثابت فإنهم يأتون دون إبلاغ.

يبدأ التحضير للوعدة ابتدءا من يوم السبت حيث تنصب العائلات خيمها في الساحة المخصصة لذلك (أي في المكان المخصص لكل عرش أو دوار) وتفرش وتحضر أواني الطبخ والأضحية وتدوم الوعدة غالبا ثلاثة أيام من يوم الأربعاء إلى يوم الجمعة بعد الصلاة.

ويحظى الضيوف بكل الاحترام والتبجيل تطبيقا لمبدأ كرم الضيافة الذي ينص عليه الدين الإسلامي وفقا للحديث الشريف المعروف (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) وبذلك تعطى الأولوية في نصب الخيام لاستقبال الضيوف حيث تنصب على هيئة هلال بداية من الحد الأيمن إلى الحد الأيسر حسب المكان المخصص للتخييم:

أولاد سيدي محمد+ أولاد بن عيسى (البناعسة).

أولاد سيدي بوبكر+ أولاد سيدي بالشيخ (الشويخات).

أولاد مقران (المقارنة).

أولاد بن عبد الله (العبادلة).

أولاد الحسين.

أولاد سيدي لحسن.

أولاد سيدي الماحي + " بني عقبة " من قبيلة حميان.

كل شريحة من هذه الشرائح تخصص أربع خيام لاستقبال الضيوف (قيطون بالتعبير المحلي) أما الخيام اليدوية فتخصص لطهي الطعام من قبل النساء وتستعمل للمبيت ليلا لأفراد

العائلة وتقدم الوجبات الأساسية طيلة أيام الوعدة (الغذاء والعشاء) وهي عبارة عن طبق الكسكسي واللحم، وهذا لجميع الوافدين والمقيمين على حد سواء دون تمييز.

أما في الصباح فيقدم الحساء والخبز والشاي الذي يقدم كلما جاء وافد. وفي كثير من الحالات تستخدم المنازل لتقديم الطعام والمبيت حيث يعتبر الضيف كأحد أفراد العائلة لا يسأل عن هويته طيلة أيام الوعدة وهذا تماشيا مع العرف الشعبي الذي ينص على عدم سؤال الضيف إلا بعد ثلاثة أيام. ويفد على هذا المكان البعيد والقريب يحلمون بالتغذية فبعضهم جياع، إنهم يرغبون في ملء بطونهم، لذلك هذه مناسبة لا يمكن تكرارها فهي زردة لا ينبغي تفويت فرصتها.(6)

ما يمكن الإشارة إليه في هذا المعروف هو الفصل التام بين الرجال والنساء حيث لا يسمح بالاختلاط. فهناك سوق للرجال تعرض فيه مختلف البضائع التقليدية والحديثة كما أن هناك سوق أخرى بالنساء تقع أعلى الهضبة حيث تستطيع النسوة رؤية الفرسان في الساحة وهم يستعرضون فنون الفروسية ويطلقون البارود بشكل متناسق. وهم من أعراش مختلفة (أولاد سيدي أحمد المجذوب، أولاد نهار، أولاد سيدي الشيخ...)

في وصف الفرسان والفرس يقول أحد الشعراء المحليين:

راكبين شهبة وشهب بالقرسون يلعب

هذا نهار الملعب والناس حايرة فيه

راكبين دهمة ودهم ياذاك الليل مظلم

هذا نهار الملعب والناس حايرة فيه

يا المولى سيدي المجذوب أنت ترضيه

إلى جانب هذه الألعاب تحـــي الرقصات التقليدية كالعلاوي والنهاري وألعاب المبارزة بالعصي كما يلقى الشعر الملحون في الخيام ليلا وتنشد الأوراد.

وفي هذه الأيام تفتح الزاوية نهارا لتقديم الزيارات وليلا لقراءة القرآن وإقامة الحضرة. إنهم يدخلون في هاته الوفرة الصوفية (التوكل) الذي يقربهم من التأمل في الواحد

الأحد. فالمرابط أو الولي الوسيط هو أداة الوصول إلى هذا التوكل المجرد خارج اللقاء مع صورته الخيالية المفردة.(7)

تتوزع أنشطة الوعدة على الأمكنة والمجالات بتنظيم محكم يبرز تناسقها بحيث يتطابق كل نشاط مع مجاله الخاص: وتتم هذه النشاطات في الجزء الشمالي المحاذي للقصر وتنقسم إلى الأمكنة التالية:

كسائر الوعدات في الغرب الجزائري تنصب الخيام حسب شكل الهلال ويرمز هذا إلى الهلال القمري رمز السنة الهجرية والعلم الجزائري ويتم هذا في الجزء السفلي من الساحة.

في الوسط تقع السوق المخصصة للرجال وهي سوق كبيرة تباع فيها مختلف البضائع التقليدية والحديثة يؤمها التجار والزبائن من مختلف أنحاء الوطن. وبجانب السوق يوجد ملعب الفروسية الذي يمتد من رأس الهلال إلى أسفل الهضبة التي تشرف على الملعب.

في أعلى الهضبة، توجد النساء اللواتي يتفرجن على الفرسان وخلفها سوق النساء التي تباع فيها الحلي وأدوات الزينة والألبسة ويلاحظ أن هناك حراسا متطوعين يسهرون على عدم الاختلاط بين الرجال والنساء.

ويوجد مكان آخر أكثر أهمية من هذه المجالات وهو ضريح سيدي أحمد المجذوب الموجود خلف الوادي فوق هضبة صغيرة بمحاذاة الزاوية. كما يوجد مزار زوجته لالا أم كلثوم ومقام سيدي عبد القادر الجيلاني.

في أعلى الهضبة التي تشرف على القصر من الشمال وهذا يدل على سموه بالنسبة لكافة الأولياء كما يوجد في هذا المكان أضرحة الأبناء المباشرين لسيدي أحمد المجذوب كسيدي التومي، سيدي سليمان، سيدي بو لنوار...الخ في المقبرة العتيقة.

- تنظيم وسير الحفل

يدوم الحفل كما ذكرنا سابقا من يوم الأربعاء إلى الجمعة وتتجسد نشاطات الحفل على الأمكنة والمجالات السابقة وهي تمس ميادين مختلفة: اقتصادية واجتماعية وثقافية وتبدأ

بتوافد العديد من الناس على الوعدة من مختلف الولايات والمناطق للتبرك بالولي الصالح أما الذين ينتمون إلى سيدي أحمد المجذوب أو من أعراض وقبائل أخرى أو من غرباء عن البلدية يأتون أفرادا وجماعات مما يعطي لهذا القصر أهمية بالغة في هذا الموسم حيث تزدحم الشوارع والأزقة بالسيارات من كل مناطق الوطن وبذلك أصبحت الوعدة تأخذ طابعا وطنيا بعد أن كانت تظاهرة جهوية. وعلى خلاف كثير من الوعدات فإن وعدة سيدي أحمد المجذوب تختلف عنها في أن الطبقات الاجتماعية تذوب حيث الإشراف على الوعدة يعني أن جميع أبناء سيدي أحمد المجذوب دون استثناء. في حين أن كثيرا من الوعدات تخضع لأشراف الفئات الارستوقراطية والأعيان والأغنياء ولا يحق للطبقات الفقيرة التدخل في شؤون التنظيم بل يعطى إليها دورا ثانوي. أما الاحتفاء بالضيوف في هذه الوعدة فلا يخضع للتمييز بين الفئات الاجتماعية وإنما تعامل كل الفئات على قدم المساواة وهي ميزة تختص بها هذه الوعدة دون الوعدات الأخرى حسب ما أعلم. وبذلك فلا نرى آثارا للتراتبية بل الكل يحظى بنفس الاهتمام والاحترام والتقدير.

فكل يتناول طعاما واحد والكل ينام في خيمة واحدة دون أن يعطى الاهتمام لشخص على حساب شخص آخر. ولا يسأل عن هوية أ ي شخص بل يعامل الأشخاص كأنهم أفراد عائلة واحدة. ويحتفى بالكل دون استثناء.

في اليوم الثاني (الخميس) يعرف الحفل أوجه بلعبة الفروسية حيث تحتل الساحة المخصصة لذلك جماعات الفرسان التي توافدت من مناطق مختلفة للتسابق (تسمى جماعة الفروسية بالتعبير المحلي – العلفة –) وتتنوع ألبسة فرسانها حسب القبائل والأعراش أو شرائح سيدي أحمد المجذوب (برانس سوداء – زرقاء – بيضاء...الخ) وهي تقوم بالتسابق في نظام وانسجام يدل عليه إطلاق البارود في تناسق مرة واحدة. ويلاحظ أن هذه اللعبة تحظى باهتمام كثير من الناس النساء والرجال على حد سواء وقد سيجت الساحة المخصصة لهذه الألعاب قصد منع حدوث حوادث قد تكون آثارها وخيمة.

وبجانب هذه الساحة تقام حلقات الرقص من قبل فرق مختلفة كرقصات " العلاوي" التي تؤديها فرق من الشباب يتحلق الكثير حولها للفرجة. وقد تكون هذه الفرق تنتمي إلى العرش كأولاد نهار، أولاد سيدي الشيخ...الخ التي تؤدي النهارية أوقد تكون تابعة لمناطق أخرى. وهناك فرق مختلفة كفرقة قناوة وألعاب المبارزة بالعصي التي كثيرا ما تؤدي إلى حوادث ومع ذلك فهي تحترف من طرف كثير من الشباب.

وتشكل الوعدة فرصة لكثير من المداحين (القوال بالتعبير المحلي) الذين ينتشرون في أرجائها. يبدأ المداح بذكر الأولياء الصالحين وخاصة سيدي عبد القادر الجيلاني ثم قصة من ألف ليلة وليلة أو جحا أو جازية أو هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي وكل قصة تتخللها مقاطع شعرية أو آيات قرآنية أو أحاديث نبوية ثم يقوم بدعوة الحاضرين إلى تقديم النقود، ويدعو لهم بالخير والسعادة والهناء[8] وكثيرا ما يتخصص بعض المداحين في سرد قصص تاريخية أو دينية بينما يتخصص آخرون في ديوان الصالحين. ويجد كثير من الناس متعة في الإنصات إلى المداح لأنه كثيرا ما يعبر بصدق عن هموم وآمال وطموحات الفئات الشعبية كما تحوي الاحتفالات ترويض الثعابين أو ما يسمى بفرق عيساوة وهي فرق تأتي من المغرب الأقصى أو من مناطق من الوطن تمتهن هذه الحرفة وتقوم ببيع الحروز والتمائم التي تقي من سم الثعابين في اعتقادهم. وينتمي هؤلاء إلى الطريقة الدينية العيساوية وهي فرع من الطريقة الكبيرة القادرية.[9]

تقع السوق (أو السويقة بالتعبير المحلي) بجانب الساحة المخصصة للملعب. وتتألف من العديد من الخيام التي تتخذ كمتاجر لعرض السلع والبضائع الحديثة والتقليدية. وتلاقي منتجاتها إقبالا كبيرا من قبل المستهلكين الذين تدعوهم مكبرات الصوت للتسوق عن طريق ترغيبهم فيها. ونفس الأمر يمكن قوله بالنسبة للسوق النسوية.

وفي الليل أن تخرق المدائح الدينية والأوراد هدوء وسكون المكان بحيث تسمح في خيام كل الشرائح التابعة لسيدي أحمد المجذوب مع ترديد التهليل والتكبير إلى وقت متأخر

من الليل أن لم تكن إلى الصبح. ولقد عشنا هذه الجو خلال وعدة سنة 2002 في إحدى الخيام حيث ظل المقيمون بالخيمة يرددون المدائح والأوراد إلى غاية بزوغ الفجر.

أما في النهار، فإن العديد من الناس يقومون بزيارة ضريح الولي سيدي أحمد المجذوب للتبرك. وقصد منع الاختلاط والفصل بين الرجال والنساء، فقد تقرر تخصيص الصبيحة للنساء والمساء للرجال. وقد عين أبناء القرية الذين زودوا بالعصي لمراقبة تنفيذ هذا الأمر وهم يتولون مهمة الشرطة القروية. كما تكثر الزيارات إلى الزاوية وإلى سكن الولي الصالح وإلى أضرحة أبنائه في المقبرة العتيقة.

يختتم الحفل في اليوم الأخير من الوعدة أي بعد صلاة الجمعة في ساحة الوعدة حيث يرفع علم الزاوية من قبل الشريحة المشرفة على الزاوية. وهذا الإشراف ينتقل من شريحة إلى أخرى بعد عدد من السنين. ويمسك كل ممثل بشريحة من الشرائح بالعصا دلالة على الأخوة ثم تشكل دائرة من طرف الموجودين يتوسطها كبار السن وأعيان القبيلة يتقدمهم إمام القرية أو مقدم الزاوية ليقوم بقراءة الفاتحة والدعاء بالخير للعباد والبلاد داعيا الله أن يعيدها في ظروف حسنة ثم يفترق الجميع وهم متفقون على نفس الموعد في السنة المقبلة.

الهوامش:

[1] أنظر CHEIKH, SI HAMZA BOUBEKEUR "UN SOUFI ALGERIEN SIDI CHEIKH " Paris1990

[2] أنظر ابن مريم، " **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** "، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1986، ص 287-288.

[3] نور الدين، عبد القادر، " **القول المأثور من كلام عبد الرحمان المجذوب** "، الجزائر: مطبعة رودوسي قدور، ص 51.

[4] بن عمار، خليفة، " **البوبكرية، تاريخ ومسيرة الصالحين: سيدي أحمد المجذوب وأبيه سيدي سليمان** "، (ترجمة قندوسي محمد) غير منشور

[5] J. DUVIGAUD " Le don du rien Essai d'anthropologie dela fête " ED/STOCK France 1977 p 49

[6] IBID 149 et suite

[7] IDEM P67.

[8] ACHILLE, ROBERT, " Jeux et divertissements des indigènes d'Algérie (Région de Bordj-Bouarriridj) " R.A N°62 Alger: OPU 1986 p. 78.

[9] مؤسسها محمد بن عيسى دفين مدينة مكناس المتوفى بالمغرب في سنة 1524.

الفصل الثاني

الإجراءات المنهجية للدراسة

1- إشكالية البحث ومنهجيته

2- فرضيات البحث

3- الأهداف والأهمية

4- منهج البحث المستخدم

5- المجال الجغرافي والبشري للدراسة

أ- المجال الجغرافي

ب- المجال البشري

6- وسائل جمع البيانات

7- استمارة البحث

8- تقنيات تحليل البيانات

1- إشكالية البحث ومنهجيته

يرى موريس انجرز " MAURICE ANGERS" بأن " مشكلة البحث هي كل ما من شأنه أن يثير تساؤلا، أي كل ما يبدو عليه أنه يتطلب الدراسة... وأن صياغة المشكلة تؤدي إلى طرح تساؤل حول واقع نريد معرفته في إطار يسمح ببحثه امبريقيا.[1]

والإشكالية أو سؤال الانطلاق كما يسميه كويفي وكامبنهود يواجه الباحث ولديه جواب ما، لكنه على ليس يقين من صحته: فقد يكون صائبا أو خاطئا والدراسة الميدانية هي التي تثبت. ويكون شأنه شأن الفرضية غير أن الاختلاف يكمن في كون الإشكالية تمهيد للفرضية ولا تحل محلها.

إذن يتوجب علينا طرح السؤال التالي: ما هي إشكالية هذا البحث؟

يعتبر طقس الوعدة ممارسة شعبية تندرج في إطار التدين الشعبي الذي عرفها المجتمع الجزائري منذ القدم، واتخذ أشكالا مختلفة تأثرت مع مرور الزمن بمختلف إسهامات الشعوب الغازية. وقد اتخذت مظهرا من مظاهر عبادة الأولياء مع ظهور الطرق الصوفية حيث أصبحت الدعوات والابتهالات توجه إليهم بعد أن تستوفي الطقوس المطلوبة. ويتم هذا الأمر عن طريق الاحتفال السنوي الذي تقيمه الطبقات الشعبية إكراما للولي الصالح. وليس المقصود بالدعاء الولي بحد ذاته وإنما يتخذ كواسطة بين الداعين والله سبحانه وتعالى وغالبا ما يعمد إلى ذلك عن طريق التوسل إلى الله بجاه الولي الصالح. وهذا ما يذهب إليه الباحث " بيار بورديو " حيث يقول: " يشعر الرجل من الشعب بحاجة إلى الاقتراب من الربوبية عن طريق إبرازه للوسطاء، فالرجل أو المرأة الذي يجهل الكل عن الدين الحقيقي يطلب تلبية حاجاته من هؤلاء الأولياء الذين يعتبرون أناسا خارقين للعادة والذين يتوارث الناس معجزاتهم ويتحدثون عن بركاتهم المتمثلة في قدرتهم على علاج الأمراض، معرفة الغيب أو منح الخصوبة... فالمرابطون وشيوخ الطرق يقترحون دينا يكلم القلب والخيال، وبفضل قوتهم المادية والأخلاقية فإنهم يمارسون تأثيرات عظيمة على حياة الأرياف ".[2]

وفي اعتقاد الطبقات الشعبية أن الله سبحانه وتعالىا يضع أسرار شفاء الأمراض في الأشخاص الصالحين أو في الأماكن. وهم يؤكدون على أن الله هو الشافي وأن هذا الشفاء يتم عن طريق هؤلاء الوسطاء، وهم يؤمنون بهذا الاعتقاد بدون أي تهيؤ أو تحضير. ولذلك يقدمون الولاء والطاعة عن طريق الزيارات والصدقات والذبائح التي تقدم إليهم، والتضرعات التي ترفع باسمهم إلى الله سبحانه وتعالى. وهذا ما يجعلهم يشكلون إعادة انبعاث الوثنية القديمة وفق أشكال جديدة تصحبها مظاهر احتفالية كالتي كانت تقام سابقا في العهود السابقة.

إن هذه الممارسات ترفضها تعاليم الدين الرسمي وتعتبرها نوعا من الشرك والوثنية وبدعة أضيفت إلى الإسلام والإسلام منها برئ. ولذلك كان الصراع بين علماء الدين والصوفية. واحتدم هذا الصراع بظهور الطرق الصوفية والزوايا الدينية والتي اعتمدت طقوسا في احتفالاتها (الوعدات) وهي الطقوس التي يعتبرها الدين الرسمي غريبة ويحاربها ولا أدل على ذلك من السجال الذي قام بين جمعية العلماء المسلمين والطرق ولاسيما العليوية في النصف الأول من القرن العشرين.[3]

وإذا كان الأتباع ومريدو الطرق والزوايا يؤكدون على الطابع الإسلامي لهذه الممارسات وأنها نابعة منه بحيث تعتبر نوعا من تكريم الأولياء الصالحين عن طريق التذكير بكراماتهم ومناقبهم وصفاتهم وفقا كما يعتقدون للحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا، فقد آذنته بالحرب..."[4] إن هذه الممارسات تشكل نبراسا للناس في مجال التشبه بهم لما عرف عنهم من صلاح أثناء حياتهم يجب أن يقتدى به. فعلى العكس من ذلك يرى الفقهاء أنها استمرار للوثنية كالخلوة والتوسل بغير الله والكرامة. وهي طقوس تعتبرها الطرق أساسية لا بد لكل مريد أن يتقيد بها. وعلى الرغم من هذا التعارض بين الفئتين إلا أن طقس الوعدة لا زال يمارس في كل مناطق الغرب الجزائري بشكل واسع دون أن تؤثر عليها فتاوى

العلماء ولا آراء التيار السلفي. وهنا يمكن طرح السؤال الإشكالية التالية: ما هي أسباب استمرار الوثنية في الوعدة رغم معارضة الدين الذي يعتنقه ممارسو هذا الطقس؟

تتفرع الإشكالية إلى الإشكاليات الجزئية التالية:

1) هل تماثل الممارسة الطقوسية الحالية عبادة الأسلاف القديمة؟

2) هل يعتبر التنظيم السنوي للوعدة تجديدا للحلف مع الولي؟

3) ما هي الأسباب التي تضمن بقاء وديمومة الوعدة؟

2- فرضيات البحث

لمعالجة هذه الإشكالية نحن مطالبون بصياغة الفرضيات المناسبة التي تجيب عنها. والفرض عبارة عن قضية احتمالية تقرر علاقة بين المتغيرات. فهو نوع من الحدس بالقانون أو هو تفسير مؤقت للظواهر، لأنه متى ثبت صدقه أصبح قانونا عاما يمكن الرجوع إليه في تفسير جميع الظواهر التي تشبه تلك التي أوحت بوضعه أما إذا ثبت بطلانه فيجب التخلي عنه.

لذلك فإن فرضيتنا العامة يمكن أن تصاغ بالشكل التالي:

يبرز الطابع الوثني للوعدة من خلال ممارسة طقوسها.

وتتفرع عنها الفرضيات التالية:

- الفرضية الأولى:

تمثل الممارسة الطقوسية نوعا من عبادة الأسلاف القديمة إن هذه العبادة هي عبادة عرفها سكان الجزائر القدماء باحتكاكهم بالاحتلال الروماني الذي كان يقدس الأسلاف حيث كانت الذبائح تقدم من قبل كل فصيلة تنتمي إلى جد معين كل أربع سنوات في احتفالات تقيمها تكفيرا عن بعض الأخطاء المرتكبة في حقه. ولا شك أن هذه الاحتفالات كانت تتخللها طقوس الدعاء والتضرع والابتهال إلى الجد الأول كمحاولة لاسترضائه واستعطافه ليتجاوز عن السقطات التي كانت تقع من أحفاده. ولذلك فإننا حاولنا معرفة

التماثل بين الطقوس القديمة والحالية بمعنى هل هناك تشابه بين هذه الطقوس والطقوس القديمة أو على الأقل هل تعد الطقوس الحالية بقايا الطقوس القديمة؟

– الفرضية الثانية:

التنظيم السنوي للوعدة تجديد للحلف مع الولي، يوجد نوع من التحالف مع الولي الصالح وبموجب هذا التحالف يقوم هذا الأخير بتأمين مصالح الجماعة والمحافظة على ازدهارها ومقابل هذه الخدمات تجدد القبيلة الوفاء له كل سنة بتقديم الزيارات والأضاحي التي تذبح إكراما له، وتؤكل في وجبة جماعية، ويتجسد هذا الحلف أيضا من خلال الاحتفالات التي تخضع لطقوس معينة (تقديم الأطعمة كصدقات، إقامة الحضرات، تلاوة القرآن غيرها) كما تقام زيارات خاصة إلى الزاوية من قبل الزوار تؤدى طواعية ودون إكراه يفصل فيها بين النساء والرجال عن طريق تخصيص فترة الصباح للزائرات والفترة المسائية للرجال ولاسيما في زاوية سيدي أحمد المجذوب بعسلة.

إن اعتمادنا على بعض الطقوس كالمشاركة الطقوسية في الوعدة سنويا والتنظيم التراتبي لها والهدف من إقامتها سيمكننا من التحقق من هذه الفرضية بالإيجاب أو السلب.

الفرضية الثالثة:

تتكيف الوعدة مع الأوضاع الجديدة وتضمن شروط بقائها عبر الأجيال. إن المتتبع لظاهرة الوعدة يلاحظ بأن وقوعها يتجدد باستمرار، وعلى الرغم من اندثار الظروف التي أوجدتها فلا زالت متواترة. ولا شك أن هناك أسبابا أدت إلى هذه النتيجة علما بأن العادات والتقاليد من أقوى السلوكات التي تقف أمام التجديد وهي ترتبط بالجانب الروحي. وهو الجانب الذي يقاوم التغيير خلافا للجانب المادي الذي لا يجد مقاومة لدى الناس مما يجعل الناس أكثر محافظة على التراث الشعبي على الرغم من وجود عوامل التغيير التي تعمل على دحر كل ما كان قديما.

وقد حاولنا من خلال هذه الفرضية الوصول إلى اكتشاف الأسباب الكامنة وراء تشبث الناس بهذه الظاهرة والمحافظة عليها من الاضمحلال سيما في عالم متغير باستمرار.

3- أهداف البحث وأهميته

بعد تحديد إشكالية البحث وصياغة الفرضيات يمكن أن نضع أهدافا للبحث كما يلي:

1- محاولة معرفة مدى تواجد بقايا الوثنية في طقس الوعدة.

إن نفي الطابع الوثني للوعدة بإيعاز من الذين يعتقدون أن معجزات الأنبياء قد تحولت إلى كرامات الأولياء الصالحين بفعل صلاحهم وقداسة روحهم وأعمالهم. إن هذا الاعتقاد لا ينفي بأي حال من الأحوال وجود بقايا قديمة أشرنا إليها سابقا انصهرت مع هذا الطقس حتى أن الكثير أصبح يظن أنها تتماشى مع التعاليم الدينية. ولذلك فإن الدراسة المعمقة لهذا الطقس تكشف أنه لم يتخلص من هذه المؤثرات القديمة التي لازمتها طوال الحقب السابقة.

2- التعرف على الظروف والأسباب التي تؤدي إلى التنظيم المتواتر لهذا الطقس بصفة منتظمة واستمراره على الرغم من تغير الظروف التي أوجدت هذا الطقس.

3- التعرف على موقف التدين الشعبي من طقس الوعدة ومدى توافقه مع الدين الرسمي، وذلك لكون الكثير من الناس من يرى أنه لا تناقض بين الوعدة والدين إذ أن الأولى تقوم بكثير من الأعمال التي ينادي بها الثاني كالصدقة وإصلاح ذات البين والقيام بالأعمال الخيرة التي يدعو إليها مما يجعلها وجهين لعملة واحدة.

أما بالنسبة لأهمية البحث فإن هذا الأخير يكتسي طابعا هاما في كونه يعد من البحوث الجديدة التي تتطرق إلى هذا الموضوع الذي أعتبر ولا زال يعتبر من الطابوهات التي لا يجب مقاربتها لما لها من حساسية كونها ترتبط بقسم واسع من فئات الشعب بموروثاته

الثقافية إن لم نقل بتدينه ومعتقداته. ولا شك أن هذا السبب الذي صعب تناول مثل هذا الموضوع من قبل الباحثين ولاسيما في الحقب السابقة اللهم إلا بعض الشذرات التي تمت أثناء الاستعمار الفرنسي والتي كان الهدف منها إيديولوجيا في محاولة لمعرفة عادات وتقاليد الشعوب المستعمرة لإحكام السيطرة عليها ولم تكن تهدف إلى المعرفة العلمية. وحتى الدراسات التي تمت أثناء غرة الاستقلال هي دراسات سطحية وصحفية لم تصل إلى عمق الموضوع وهدفت إلى إبراز الجانب الفلكلوري لهذه العادات وتشجيع توسيعها خدمة لأغراض سياسية واضحة. ولم تتم دراسات علمية بمعنى الكلمة على حسب ما أعرف.

ويضاف إلى هذه الأسباب التي أدت بنا إلى إعطاء أهمية لهذا الموضوع افتقار المكتبة الجزائرية إلى مثل هذه الدراسات وهو ما سيجعل من هذا البحث لبنة ستضاف إليها لبنات أخرى تتأتى عن دراسات مستقبلية تتناول هذا المجال من زاويا مختلفة يكون لها عظيم الأثر على إثراء الثقافة الشعبية وعلى الصرح الثقافي ككل.

4- منهج البحث المستخدم

يعرف المنهج أنه: " الكيفية التي يتم بها تنفيذ شيء ما حسب نظام معين انطلاقا من جملة مبادئ من أجل الوصول إلى هدف معين".[5]

ويعرف كذلك بأنه " مجموعة من الخطوات المنظمة والمنسقة التي يسير فيها الباحث وصولا إلى الأهداف العلمية لبحثة.[6]

ويصفه محمد أحمد بيومي بأنه: " مجموعة الخطوات التي يعتمد عليها الباحث من أجل تنظيم العمل الذي يقوم به قصد التمحيص وتقصي الحقائق. إنه أسلوب يسير عليه الباحث لكي يحقق الهدف من بحثه"[7] أما مناهج البحث فهي الطرق التي يسير عليها الباحث في دراسته للظواهر قصد الوصول إلى نتائج يقينية حول الأسباب التي تخضع لها. والمناهج ليست كومة يختار منها الباحث ما يشاء لدراسة الموضوع الذي يريده وإنما هناك علاقة بين المنهج وموضوع البحث. فلا يصلح أي منهج لأي موضوع، بل أن طبيعة

الموضوع هي التي تحدد في آخر المطاف المنهج المستخدم. فإذا كانت دراسة الاتجاهات تتطلب طرح أسئلة محددة لمعرفتها فأن دراسة إنجاز عمل ما تتم بالملاحظة لهذا العمل. وهذا ما يؤدي إلى اختلاف المناهج باختلاف المواضيع المدروسة.

إن موضوعنا يختص بدراسة ظاهرة الوعدة في الغرب الجزائري أصولها وتطورها، دراسة اجتماعية ثقافية. فما هو المنهج الصالح لدراسة هذا الموضوع؟

إن هذا الموضع يتطلب تصويرا للموضوع الراهن وتحديد العلاقات بين الظواهر والاتجاهات التي تسير في طريق النمو والتطور والتغير. وهذا ما ينطبق تمام الانطباق على منهج الوصفي الذي لا يعني مجرد وصف لما هو ظاهر للعيان بل يتضمن التعمق والتقصي ومعرفة الأسباب والمسببات كما هو ظاهر للعيان. وبهذا يصبح المنهج الوصفي التحليلي يقتضي جمع المعطيات من الواقع ومن التاريخية قصد الربط بينهما والتدقيق فيها. أو بمعنى آخر دراسة الظاهرة نظريا من خلال الدراسة التاريخي لتطورها والتوصل إلى الاستنتاجات النظرية التي قد تشكل إرهاصات لفرضيات يتم التأكد منها عن طريق الميدان بعد دراسة المعطيات التي قام بجمعها الباحث. وهذا ما يؤكده قول أحد الباحثين بقوله: " يقطع عالم الاجتماع في الغالب أثناء دراسته لأية ظاهرة اجتماعية مرحلتين...وصفية بتعقب فيها الظاهرة في أوضاعها الحاضرة والغابرة، وما شابها من تطور واختلاف باختلاف المجتمعات والعصور...وشرحية يعمد فيها عالم الاجتماع إلى المواد التي جمعها في المرحلة السابقة ليحللها ويوازن بعضها ببعض. ويتأمل سيرها وعلاقاتها المتبادلة ويلاحظ...وجوه تطورها واختلافها...ليصل من وراء ذلك إلى شرح الظواهر بالكشف عن طبيعتها وما تخضع له في مختلف وجوهها من قوانين"[8] ومعنى هذا أن الباحث يمر بمرحلتين أثناء استخدامه للمنهج الوصفي التحليلي: تتمثل المرحلة الأولى في تقصي الحقائق نظريا عبر الأزمنة والحاضر لمعرفة مختلف التغيرات التي طالت الظاهرة المدروسة، أما المرحلة الثانية فتتعلق بتحليل وموازنة المعلومات التي تحصل عليها ليتم التعرف على العلاقات المتبادلة وكيفية سيرها أي تفسيرها وهذا هو المنهج الذي يناسب موضوعنا لكونه يمكن من وصف الظاهرة ويربطها مع غيرها

من الظواهر ليفسرها تفسيرا مقنعا. و" ينبغي على الباحث ألا يقوم بمجرد الوصف بل عليه أن يستخلص الدلالات والمعاني المختلفة التي تنطوي عليها البيانات والمعلومات التي أمكن الحصول عليها وهذا بالطبع يدفعه إلى ربط بعض الظواهر ببعضها واكتشاف العلاقة بين المتغيرات، وإعطاء ذلك كله التفسير الملائم".[9]

ونشير إلى أن الدراسات الوصفية ترتكز على الواقع للوصول إلى الفرضيات وهذا ما حاولنا القيام به من خلال الدراسة النظرية كما تستعين بأدوات الحصول على المعلومات: كالملاحظة والمقابلة استمارة البحث. وقد ارتكزنا على هذه الأدوات لجمع المعطيات الخاصة بهذا البحث.

وخلاصة القول فقد اعتمدنا على هذا المنهج وعلى أدوات جمع البيانات لاعتقادنا أنه الأسلوب الأمثل في مثل هذه الدراسات التي تمكن الباحث من الدراسة الموضوعية التي تتطابق مع طبيعة الموضوع المدروس وبالتالي توفر الإجراءات المنهجية الكفيلة ببلوغ الهدف.

5- مجال الدراسة

أ- المجال الجغرافي

أجريت هذه الدراسة حول وعدة سيدي أحمد المجذوب الواقعة ببلدية عسلة وهذه الأخيرة تعد إحدى بلديات الجنوب الغربي الجزائري، يحدها:

شمالا: بلدية النعامة.

شرقا: بلدية الشلالة: المحرة (البيض).

جنوبا: بلدية مغرار وبوسمغون.

غربا: بلدية تيوت.

وتبلغ مساحتها 207كلم2 تشغلها الجبال والمناطق السهبية حيث تحتل الأراضي السهبية 60% بينما تحتل الجبال 40% أما عدد سكانها فيبلغ 9433 نسمة حسب إحصاء 1998 منهم 65% حضريون والباقي بدو ورحل[10] ويقوم اقتصادها على الفلاحة وتربية

الماشية وتفتقد إلى النسيج الصناعي القادر على استيعاب القادرين على العمل مما يشكل سببا أساسيا في انتشار البطالة بين شبابها.

يوجد ضريح الولي الصالح سيدي أحمد المجذوب بالمقبرة القديمة بمقر البلدية عسلة وقد حل هذا الولي بهذه المنطقة منذ أكثر من سبعة قرون وإلى جانب ضريحه يوجد العديد من الأضرحة لأولياء الله الصالحين كأحفاده وغيره من الأولياء الصالحين. وتجدر الإشارة إلى الساحة التي تقع بها احتفالات الوعدة كل سنة وهي بطحاء فسيحة تقع بمقر البلدية الرئيسي تتوزع على مجالات مختلفة كل مجال يختص بأنشطة معينة أثناء قيام طقوس الوعدة الذي ينظم بصفة منتظمة كل سنة.

ب- المجال البشري (العينة)

تعتبر عملية اختيار العينة من الأمور الصعبة التي يتلقاها الباحث بسبب صعوبة تمثليها تمثيلا صادقا للمجتمع الأصلي. إن العينة وسيلة لها أسسها المنطقية ومبرراتها الإحصائية للتغلب على صعوبة دراسة جمهور البحث كله دراسة شاملة وطالما أنه من الصعب القيام بدراسة كل مفردات المجتمع الأصلي، يستطيع الباحث أن يكتفي بدراسة عدد محدود من المفردات التي تعتبر بديلا لطريقة الحصر الشامل. وقد يطرح الإشكال عند اختيار عينة البحث المرغوب فيها. ومعروف أن ما يحدد حجم العينة التجانس والتباين بين مفرداتها. فكلما كان هناك تجانس كلما أمكن اختيار عينة صغيرة. أما إذا كان هناك تباين فيعني هذا أن العينة ستكون كبيرة. وهناك عدة أنواع من العينات كل واحدة تناسب نوعا معينا من المجتمعات، وتخضع لقواعد منهجية معينة.

وقبل أن نحدد نوعية العينة التي تم استخدامها في هذا البحث لا بأس أن نعطي نظرة وجيزة حول مجتمع البحث الأصلي الذي يتكون من مجموع الوافدين على معروف سيدي أحمد المجذوب الواقع ببلدية عسلة ولاية النعامة التي تدوم احتفالاتها ثلاثة أيام. إذ يقبل عليها إضافة إلى أحفاد الولي الصالح أعدادا غفيرة من مختلف مناطق الوطن، وبالنظر على اقتصارنا

على أيام الاحتفالات لسنوات 2002، 2003، 2004. فقد أدت بنا طبيعة المجتمع الأصلي نظرا لأن هذه الظاهرة لا تتكرر إلا مرة في السنة إضافة إلى كوننا حاولنا عدم الاقتصار على أهالي البلدية بل على آراء الوافدين إليها كل هذا دفع بنا إلى اختيار العينة العرضية " Echantillon Accidentel " التي تناسب هذا النوع من المجتمعات الأصلية. وقد حصلنا على عدد 120 مفردة تم استجوابها وفق ما حددنا من أسئلة في الاستمارة المعدة لهذا الشأن. وهذا النوع من العينات " لا يمثل المجتمع الأصلي تمثيلا صحيحا وإنما تمثل العينة فقط " والباحث في هذه الحالة يأخذ العينات بطريقة الصدفة أي يحصل على المعلومات من الذين يصادفهم.(11)

6 - وسائل جمع البيانات

لقد قمنا بدراسة استطلاعية لمعروف سيدي أحمد المجذوب الذي يقام في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر لكل سنة وذلك في سنة 2002 وذلك من أجل الإطلاع على طريقة إجرائها. واغتنمنا الفرص للالتقاء مع أعيانها وبعض سلطاتها المحلية وقد مكننا هذا اللقاء من أخذ فكرة واضحة حول هذا الموضوع ولاسيما في جانبه التاريخي. كما أدت بنا إلى تطوير وتعديل بعض أسئلة الاستمارة بعد ما تم عرضها على عينة مكونة من 30 مبحوثا، وساعدنا هذا الإجراء على تقنين استمارة البحث وبنائها بناءا يتوافق مع غرض البحث الذي أجريناه.

ولقد حاولنا من وراء بناء هذه الاستمارة اختبار مدى صحة أو عدم صحة التصورات. وقد وضعت الأسئلة بأسلوب سلس مكن المبحوثين من الإجابة عليها بكل يسر، كما أن عدم مطالبتنا لهم بإظهار هويتهم جعلهم يدلون بإجاباتهم بكل حرية وهذا ما جعلنا نطمئن إليها. وقد كانت ثقتهم كبيرة بعد أن قمنا بشرح المغزى من إجراء البحث وتعاونوا تعاونا إيجابيا ومثمرا بعد أن علموا بأن الموضوع يتعلق بسيدي أحمد المجذوب الجد المؤسس لزاويتهم وأن هذا البحث سيشكل وثيقة هامة لهذا الولي الصالح مما يؤدي إلى وضع لبنة لدراسات مستقبلية حوله علما بأن معروفه اتخذ طابعا وطنيا وقد أصبح محط رحال

العديد من الوافدين من كل أنحاء الوطن ومن كل الفئات الاجتماعية بما فيها السلطات العليا إذ لا تخلو المناسبة من زيارة وزير أو من يقوم مقامه.

لقد استخدمنا الملاحظة البسيطة والملاحظة المشاركة واستمارة البحث لجمع المعلومات حول هذا الطقس. وتعتبر " الملاحظة خطوة أساسية من خطوات المنهج العلمي، فكونت "CONTE " اعتبرها واحدة من الخطوات الأربع للمنهج العلمي مع المقارنة والتحليل التاريخي والتجريب "[12] وتشكل مشاهدة دقيقة للظاهرة عن طريق وسائل وتسجيلات بهدف تحقيق الأغراض العلمية وهي تتكون من جميع الانطباعات التي نتخذها حول العالم الذي يحيط بنا. ويلجأ الباحث في إطارها إلى دراسة المعطيات وقت المشاهدة أو عن طريق الصور وآلات التسجيل أو الفيديو. وهي التي من جرائها نحتفظ بالحيادية اللطيفة ودون أن نشارك في هذه الملاحظة[13] وقد حاولنا من خلال هذه الأداة رصد المعطيات حول هذه الظاهرة وقد أفادتنا أيما إفادة سيما أنها تشكل في كثير من الحالات أداة أساسية من أدوات جمع البيانات.

أما الملاحظة بالمشاركة فقد استخدمناها اعتقادا منا أن مثل هذه المواضيع تتطلب استعمال هذه الأداة وهي التي يكون الباحث فيها جزءا من الجماعة التي ينوي دراستها وذلك من خلال المشاركة في حياة الناس الذين يقوم بملاحظتهم، و " تقتضي من الباحث أن يقيم فترة كافية من الزمان في المجتمع موضوع الدراسة، يستطيع أن يتعرف على الوظائف المختلفة – الظاهرة والكامنة التي تؤديها النظم الاجتماعية في هذا المجتمع[14] وتكون المشاركة بهدف التعرف على عاداتهم وتقاليدهم من خلال ممارساتهم اليومية حسبما تتم في المجتمع الطبيعي. وتطبيقا لهذا الطرح فقد اندمجنا في حياة الجماعة المنظمة لهذا المعروف (الوعدة) وهذا ما مكننا من استقاء المعلومات المطلوبة كما أن دراستنا السابقة حول نفس الموضوع (الوعدة) ومعايشتنا لمختلف الوعدات على مستوى الوطن قد أمدنا ببيانات سهلت مهمتنا في هذه دراسة هذا كما شكلت أساسا لبناء استمارتنا التي حاولنا من ورائها

جمع المعطيات المطلوبة حول هذا الموضوع وساعدتنا أيضا في كشف الغموض حول بعض العادات وتفسير بعض المتغيرات للخروج بنتائج حول هذا الموضوع.

7- استمارة البحث

تحتوي الاستمارة على 36 سؤالا منها 35 سؤالا مغلقا و سؤال مفتوح وتتوزع أسئلتها كما يلي:

أ- البيانات الشخصية وتغطيها 03 أسئلة.

ب- المؤشر الأول: الاعتقاد في الولي من خلال الطقوس. ويغطي هذا المؤشر 15 سؤالا (من سؤال 4 إلى سؤال 18).

ج- التنظيم السنوي للوعدة تحدد لها ويغطي هذا المؤشر 11 سؤالا (من السؤال 16 إلى 27).

د- استمرارية الوعدة: يغطي هذا المؤشر 07 أسئلة (من السؤال 27 إلى 33).

وسنحاول من خلال هذه المؤشرات دراسة العلاقة بين المتغيرات والوصول في آخر المطاف إلى إثبات أو نفي الفرضيات المقدمة.

لقد استعنا ببعض الأفراد في عملية توزيع الاستمارات على أفراد العينة. وتمت تعبئة الاستمارات من قبل المبحوثين الذين يحوزون على مستوى ثقافي معين في حين أوكلت مهمة التعبئة إلى المتعونين في حالة وجود الأمي. وقد كان تجاوب المبحوثين تلقائيا نظرا لأن البحث يرتبط بدراسة تظاهرة ترتبط بولي صالح يتصلون به عن طريق النسب حيث يعد جدهم الأول وبذلك زوجنا بين المقابلة المباشرة وغير المباشرة وذلك تماشيا مع طبيعة العينة المدروسة.

8- تقنيات تحليل البيانات

بعد تفريغ الاستمارات وتبويبها في جداول حسب المؤشرات المذكورة تم حساب النسبة المئوية عن طريق جمع التكرارات وقسمتها على عدد الأفراد العينة وفق القاعدة التالية:

$$\text{النسبة المئوية} = \frac{\text{مجموع التكرارات} \times 100}{\text{عدد أفراد العينة}}$$

الهوامش:

[1] سفاري ميلود: " **الإشكالية في العلوم الاجتماعية** "، مجلة العلوم الاجتماعية، قسنطينة: جامعة منتوري، 1999، ص 73.

[2] PIERRE BOURDIEUR OPCIT P 102.

[3] أنظر أحمد حماني، " **صراع بين السنة البدعة أو القصة الكاملة للسطو على الإمام عبد الحميد بن باديس** "، قسنطينة: دار البعث للطباعة والنشر، 1984.

[4] أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي – رياض الصالحين. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980، ص 139.

[5] زعيمي مراد، " **التكامل المنهجي في البحث** "، **مجلة دراسات في المنهجية** "، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص 67.

[6] محمد ياسر الخواجة، " **البحث الاجتماعي، أسس منهجية وتطبيقات علمية** "، دار المصطفى للطباعة والكمبيوتر، الطبعة الأولى 2001، ص 32.

[7] محمد أحمد البيومي، " **علم الاجتماع** " دار الجامعية، مصر، ص 33.

[8] علي عبد الواحد وافي، " **مناهج البحث** "، معجم العلوم الاجتماعية، ص 75.

[9] عبد الوهاب، إبراهيم، " **أسس البحث الاجتماعي**"، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1985، ص 40.

[10] معلومات مستقاة من تقرير أعدته بلدية عسلة، ولاية نعامة.

[11] عامر إبراهيم قنديلجي، " **البحث العلمي** "، بغداد: مطبعة عصام 1979، ص61.

[12] محمد ياسر خواجة، مرجع سابق، ص 350.

[13] كنونة مسعود، " **ملاحظات حول الاستخدام الميداني لبعض تقنيات البحث السوسيولوجي**" ، مجلة العلوم الاجتماعية، قسنطينة: 1999، ص 189.

[14] عبد الوهاب إبراهيم، مرجع سابق، ص 54

الفصل الثالث

تحليل وتفسير البيانات

- الخلفية الاجتماعية والاقتصادية للعينة

- عرض البيانات

- الخلفية الاجتماعية والاقتصادية للعينة

وهي عبارة عن العوامل التي قد تلعب دورا غير مباشر في التأثير على سلوك الأفراد، وغالبا ما تشكل نوعا من المتغيرات الفرعية التي تتمثل في الجنس والسن، والمستوى التعليمي والمستوى الاقتصادي وتسمى هذه المتغيرات بالمتغيرات الرائزة[1] ومن شأنها أن تفيد في التعرف على الخصائص العامة للمبحوثين وتؤثر بدورها على المتغيرات الرئيسية. وسنحصر هذه الخلفية في دراسة العناصر التالية: السن، المستوى التعليمي، المهنة دون التطرق إلى الجنس على اعتباراتنا بصدد دراسة مجتمع محافظ، لذلك اقتصرت دراستنا على دراسة الذكور دون الإناث. وسنبين دراسة هذه العناصر مدى التأثير الذي تمارسه على متغيرات الدراسة كالسن لأن سيادة عنصر الشباب من شأنه أن يؤثر على نظرة أفراد العينة إلى موضوع البحث والشيء نفسه يقال بالنسبة للمستوى التعليمي وللجانب المهني وهذا ما سنستشفه من خلال دراسة هذه المتغيرات.

- عرض البيانات

1- السن:

يتسم سكان الجزائر بسيادة العنصر الشبابي إذ أن أكثر من نصف السكان من الشباب وبناءا على ذلك نتوقع أن تعكس العينة هذه الخاصية وهذا ما يدعونا إلى اختبار هذا الافتراض:

جدول رقم : 1 توزيع السن حسب العينة[2]

العمـــــر	التكرارات	النسبة المئـــوية
30 – 20	48	%40
40 – 31	26	%21
50 – 41	18	%15
60 – 51	16	%13
أكثر من 60	12	%10
المجموع	**120**	**%100**

يتضح من خلال الجدول أن عنصر الشباب يمثل 61% أي أكثر من نصف العينة أي بمجموع 74 فردا وهذا من عدد أفراد العينة البالغين 120 فردا وهذا يتوافق مع الافتراض الذي قدمناه. ويشكل الأفراد (من 41 سنة إلى 60) 28% أي بمجموع 34 فردا من عدد العينة في حين لا يشكل البالغين أكثر من 60 سنة نسبة 10%.

إن القراءة الأولية لهذا الجدول تبين سيادة عنصر الشباب وهذا ستكون له انعكاسات على نتائج الدراسة بحيث أن هذا يؤدي إلى تغيير الكثير من المعطيات القديمة ولاسيما ما تعلق بالأفكار اتجاه موضوع الدراسة إذ أننا نعلم بأن العادات والتقاليد تتغير ببطء شديد عكس الجانب المادي الذي يتغير بسرعة. وعلى الرغم من ذلك فإن تغير الأجيال يؤدي إلى تغير في هذه العادات بحيث يعدل كل جيل منها حسب ما يتوافق مع معرفته ومصالحه وحسب تأثير عوامل كثيرة كالبيئة والعامل التكنولوجي والثقافي وغيره من العوامل. وكلما ازداد عنصر الشباب كلما أدى هذا إلى تغير نظرة الجيل الجديد إلى هذا الطقس ونعني به الوعدة وسنستشف هذا من خلال دراسة الجداول اللاحقة.

أن تركيز على دراسة عامل السن سيمكننا من معرفة نظرة الجيل الصاعد وبالتالي مدى تغير بعض وجهات النظر اتجاه الولي الصالح أو الاعتقاد في قداسته إذ أنه كلما تقدم

سن الشخص كلما أدى هذا إلى ترسخ الأفكار القديمة والعكس صحيح. وإضافة إلى هذا الجانب سنركز على جوانب أخرى من أجل تحديد العوامل المؤثرة في الظاهرة المدروسة ومدى تطابقها لما استنتجناه من الدراسة النظرية أو على العكس من ذلك فإن الاستنتاجات الميدانية لا تتطابق بتاتا مع الاستنتاجات النظرية.

إن هذا الأمر سيجرنا إلى دراسة عناصر ومؤشرات أخرى تبدو ذات أهمية في تحديد مسار هذه الدراسة.

2- المهنة:

تلعب المهنة دورا أساسيا في التأثير على توجيه الفرد ونظرة اتجاه ما يحيط به وقد تختلف وجهات النظر تبعا للمهنة التي يمارسها الشخص. فنظرة الفلاح غير نظرة الموظف أو العامل لذلك أفردنا لهذا الجانب حيزا حتى نتمكن من حصر أثر هذا العنصر على رأي المبحوث اتجاه الموضوع المدروس.

جدول رقم : 2 يبين مهنة أفراد العينة

المهنة	التكرارات	النسبة المئـــوية
عامل	30	%25
موظف	20	%16
فلاح	36	%30
موال	24	%20
مهن حرة	10	%09
المجموع	**120**	**%100**

يحتل العمال والموظفون نسبة 41% من مجموع أفراد العينة ويمثل الفلاحون والموالون نسبة 50% منها ولاشك أن نظرة كل من هاتين الفئتين تختلفان عن بعضهما

البعض وستؤثر هذه المهنة على نظرة كل طرف إلى طقس الوعدة والولي الصالح الذي أقيمت من أجله علما بأن الغالبية من أفراد العينة تعتقد أنها تنسب إليه وتنحدر منه وتعتبره جدها الأول وقد بينا ذلك من خلال الشجرة العائلية لعروش وأحفاد سيدي أحمد المجذوب. وإذا كان من المستحيل نفي تأثيرات العوامل الأخرى فمن غير المعقول أن نعزل هذا العامل الذي نعتقد بأن له دخل في بلورة رأي الأشخاص اتجاه هذا المعتقد أي تقديس الولي الصالح.

3-المستوي التعليمي:

جدول رقم : 3 يبين المستوى التعليمي لإفراد العينة

المستوى التعليمي	التكرارات	النسبة المئـــوية
أمي	30	%25
ابتدائي	40	%35
متوسط	24	%20
ثانوي	18	%15
جامعي	08	%06
المجموع	**120**	**%100**

يختلف رأي الإنسان اتجاه موضوع معين باختلاف المستوى الثقافي الذي بلغه. فالذي حاز على ثقافة بسيطة أو مستوى تعليمي متدن ستكون نظرته تبعا لهذا المستوى. وفي موضوعنا هذا لا حظنا بأن آراء الكثيرين تميل إلى تمجيد كل ما هو قديم وقد تعتمد في ذلك على ما تناقلته الأجيال السابقة من تراث بدون إعمال العقل في ذلك في حين أن نظرة من حصل على مستوى ثقافي أرقى قد يجد تفسيرا لما يلاحظه ولا يتقبل بسهولة كل ما يروى له وقد يذهب الأمر ببعض الأشخاص إلى محاولة نفي طابع القداسة على الولي الصالح وأن القداسة يجب أن يتصف بها الله عز وجل. ويبين الجدول المذكور أعلاه نسبة 60% تتشكل من الأميين ومن أصحاب المستوى الابتدائي، في حين يحوز المستوى المتوسط على نسبة

20% بينما تبلغ حصة الثانويين والجامعين نسبة 21% فقط وهذا له دلالته في النتائج التي تم التوصل إليها بحيث انعكس ذلك على نظرة هذه الفئات حول موضوع الدراسة.

- المؤشر الأول: الاعتقاد في الولي من خلال الطقوس

جدول رقم : 4 يبين نوع العلاقة التي تربط بالولي

نوع العلاقة	التكرارات	النسبة المئـــوية
نسب	66	%55
ولاء	24	%20
وفاء	18	%15
لا علاقة	12	%10
المجموع	**120**	**%100**

نلاحظ من خلال الجدول أن كل العلاقات (نسب، ولاء، وفاء) تصب في توثيق الرابطة مع الولي سيدي أحمد المحدوب إذ تبلغ نسبتها 90% في حين أن من لا تربطهم علاقة به لا تتجاوز نسبتهم 10% وإن دل على شيء فإنما يدل على نفوذ الشيخ في الأوساط الشعبية التي لا زالت تكن له الاحترام والتقدير على الرغم من مرور عدة قرون على وفاته. إضافة إلى اعترافهم بانتسابـــهم إليه كجد أكبر. ويعتبر هذا الاعتقاد قديما وقد استمده قدماء الجزائر ونعني بهم البربر من الاحتلال الروماني الذي كان يقدس الأجداد ويقيم له احتفالات تليق بمقامهم كل أربع سنوات من أجل طلب العفو عن الأخطاء التي تكون ارتكبت من قبل فصائل القبيلة.

جدول رقم : 5 يبين تقديم الزيارة والصدقة للولي

الزيارة والصدقة	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	90	%75
لا	30	%25
المجموع	**120**	**%100**

يظهر الجدول أن أغلبية المبحوثين 75% يقدمون الزيارة والصدقة للولي الصالح أو من يقوم مقامه وهو مقدم الطريقة اعتقادا منهم بأن هذه الصدقات تعد فرض عين على كل زائر عليه أن يقدمها طالبا تقبلها والثواب من ورائها. إذ غالبا ما تنفق على القائمين على الزاوية وأبناء السبيل والغرباء وطالبي العلم وفي كل هذا أجر كبير للمحسنين، ويظن الكثير منهم أن الصدقة التي تقدم إلى الزاوية تعتبر من الأولويات قد تفوق الصدقة التي تقدم للمساجد. وهذا الوضع يأخذ أصله في كون الزاوية لعبت دورا كبيرا في لم شمل الفئات العريضة من الجماهير ومكنتهم من تحصين شخصيتهم ومقاومة الأفكار الدخيلة ولاسيما في الفترة الاستعمارية مما جعلها تستقطب اهتمام جميع الوافدين ولاسيما أبناء المنطقة الذين يشعرون بهذا الترابط الوثيق والمقدس بينهم وبين وليهم الصالح. ويرجعونه إلى حقب زمنية قديمة صهرت هذه العلاقة وأمدتها حافظت على جذوتها حتى أصبحت من الاعتقادات الراسخة في النفوس قلما تتاح إمكانية الابتعاد على الرغم من تقدم العلم وانتشار الدين الرسمي في الأوساط الشعبية والذي لا يتساهل مع هذه المعتقدات القديمة ويعتبرها شركا.

جدول رقم : 6 يبين هدف المشاركة في الوعدة

سبب المشاركة	التكرارات	النسبة المئـــوية
إكرام الولي	72	%60
عادة قديمة	36	%30
الوفاء بالنذر	12	%10
المجموع	**120**	**%100**

يتضح من خلال هذا الجدول أن 60% من أفراد العينة يشاركون في الوعدة إكراما للولي يضاف إليها نسبة 10% من يشاركون وفاءا للنذر. في حين أن نسبة 30% من المتبقين يعتبرونها عادة قديمة. ويرجع سبب الإقبال على الوعدة والمشاركة فيها إلى كون الغالبية من المشاركين يعتبرون أنفسهم منحدرين من الولي ووفاءا له فإنهم يقيمون هذا الطقس الذي أصبح عادة منتظمة تحافظ عليها الأجيال دون أن تكل أو تمل حتى أصبح لكل دوار مساحته الخاصة بها يحل كل موسم للوعدة. وهذا ما يجسد تعلق الكثير بممارسة هذا الطقس الذي أصبح عادة متوارثة. أما النسبة التي تعتقد بأن هذه الظاهرة عادة قديمة فإنها تحاول أن تنـــزع عنها طابع القداسة وتعتبرها عادة كأي عادة من العادات الشعبية أو احتفال يقام في وقت محدد دأب الناس على إحيائه منذ القديم ولا يستطيعون أن يتخلوا عنه علما بأنهم يجدون فيه متنفسا لهم لانعدام التظاهرات الثقافية في الأوساط الريفية طوال السنة.

جدول رقم : 7 يبين قبول النذر من قبل الولي

قبول النذر	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	60	%50
لا	42	%35
بدون رأي	18	%15
المجموع	**120**	**%100**

يعتقد 50% من المبحوثين بأن الولي الصالح يقبل النذر بمعنى أنهم إذا نذروا أمرا ووفوا به فإن الولي يقبله ولا يجب أن يستهينوا بما عقدوا العزم عليه اتجاهه وإلا حلت بهم نقمته ويستشهدون ببعض الحوادث التي وقعت لبعض المخالفين. وعلى هذا الأساس يصبح من الأهمية بمكان عدم الاستخفاف بالنذر ويضاف إلى هذا بعض القصص والروايات التي حيكت حول هذا الجانب ولاسيما حينما يتعلق الأمر بأصحاب المستويات المتدنية في الميدان الثقافي أو التعليمي. في حين أن نسبة 35% ترى عدم جدوى هذا الاعتقاد ولا ترى أي

خير في عدم الوفاء بالنذر علما بأنهم يرون بأن النذر يجب أن يكون إلا لله سبحانه وتعالى، وأن من قضوا ليس بيدهم لا يجب أن يكون أي قوة في جلب المنفعة أو المضرة. ولذلك فإنهم لا يعيرون الأمر أي اهتمام. تبقى 15% لم تحدد موقفها و لم تبدي برأيها إما لأنها لا تأبه لهذا الجانب أو لا ترى أهمية في الإجابة عليه أو نتيجة لأسباب أخرى غير معروفة.

جدول رقم : 8 يبين الوفاء بالنذر.

الوفاء بالنذر	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	66	%55
لا	30	%25
بدون رأي	24	%20
المجموع	120	%100

يتضح من خلال الجدول أن 55% من المبحوثين يوفون بالنذر اتجاه الولي. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على المكانة الرفيعة الذي يحظى بها عند أحفاده وموردي الزاوية. وقد تبلغ في بعض الحالات درجة القداسة مما يؤكد أن الكثير من المنذرين يخشون أن يصيبه مكروه من جراء عدم الوفاء. كما يعتقد الكثير أن عدم تجسيد وعودهم من شأنه أن يعتبر انتقاصا من مروءتهم ورجولتهم. ولذلك تجدهم يهبون للوفاء بالنذر ولاسيما إذا تحقق فيصبح لزاما على المنذر الالتزام بما تعهد به يضاف إلى ذلك أن عدم تأثر العادات والتقاليد بالريف بالتجديد واتسامها بالنقاء كل هذا يصب في مجال تجسيد الوعود المقطوعة. ويقابل النسبة المذكورة 25% ممن لا يعتقدون بالنذر ولذلك لا ينذرون للولي ولا يترتب عليه الوفاء بالنذر وفي بعض الحالات عدم الوفاء بالنذر نظرا لأنهم يظنون أن النذر لا يكون إلا لله. أما النسبة المتبقية فإنها لم تبد رأيها و لم تفصح عن الأسباب الكامنة وراء هذا الموقف.

جدول رقم : 9 يبين الاعتقاد في نفع وضرر وانتقام الولي

نوع المهمة	نعم	النسبة	لا	النسبة	بدون رأي	النسبة
يضر	42	%35	60	%50	18	%15
ينفع	36	%30	54	%45	30	%25
ينتقم	52	%45	54	%45	14	%10

نلاحظ في هذا الجدول أن نسبة 35% يعتقدون أن الولي يضر وربما يرجع هذا الاعتقاد إلى تناقل حكايات وقصص حول ما ألت إليه حالة بعض الأشخاص نتيجة عدم اعترافهم بالقدرة الخارقة للولي الصالح. وقد تقع بعض الأمور بالصدفة ثم تنسب إليه، وفي هذا ردع لكل مخالف عن أمره. وقد تفطن الاستعمار الفرنسي إلى هذا الجانب حيث بنى المعمرون قبابا فوق أراضيهم الزراعية لمنع الأهالي من الاقتراب منها لأن هؤلاء الآخرين كانوا يخشونها ويحسبون لها ألف حساب ونلاحظ أن نسبة الذين لا يعتقدون في ضرر الولي قد وصلت إلى 50% وهي نسبة معتبرة ترجع في الأساس إلى ارتفاع المستوى الثقافي للسكان وإلى التفقه الديني الصحيح إذ أصبح العديد من الناس لا يخافون الضرر إلا من الله سبحانه وتعالى مما عكس ارتفاع هذه النسبة.

وينسحب الأمر كذلك على النفع حيث أن نسبتهم قد بلغت 30% ممن يوكلون النفع إلى الولي في حين أن نسبة 45% لا تقر بذاك.

أما إذا عدنا إلى الانتقام فإن نسبة 45% تؤكد أن الولي ينتقم إذا ما تجاوز الشخص حدودا معينة. في حين أن 45% لا يأخذون هذا الاعتقاد مأخذ الجد. ولعل ما يزيد في رصيد سيدي أحمد المجدوب من نفوذ في أوساط الشعب هي تلك الرواية الشعبية المتناقلة عبر الأجيال، وقد تضمنت ذلك قصته المشهورة وقهره لعبد الحق رئيس قبيلة بني عامر وطردهم من الجنوب الغربي الذي كانوا يلجؤون إليه حينما تهزمهم السلطة الزيانية أو حتى المرينية.

وتروى الرواية عن عبد الحق قائد بني عامر، قد أقام خيامه في مكان يسمى " الكدية " وهو يحمل الآن اسم " كدية عبد الحق " وقد كان قويا جائرا. وقد وظف فقيها لتدريس أبنائه. وقد دعا في يوم من الأيام هذا الفقيه وزوجته لمأدبة. ولما انتهى الزوجان من الغذاء حجز عبد الحق الزوجة وصرف الزوج بالقوة محتفظا بالزوجة كخليلة. غير أن الزوج طلب من الوسطاء التوسط لتحرير زوجته الشيء الذي رفضه عبد الحق. وقد كان لسيدي أحمد المجدوب حمار ينتقل على ظهره في الأرض والسماء كما يفعل أولياء الله الصالحون " يطوي به الأرض ". ولما لم يجد الضغط على عبد الحق، توجه الفقيه إلى سيدي سليمان بن أبي سماحة والد سيدي أحمد المجدوب. فبعث برسالة إلى ابنه يوصيه بهذا الرجل. فذهب ابنه لمقابلة عبد الحق ولما وصل قال له: " يا عبد الحق، رد هذه الزوجة، لزوجها" فأجابه: " لم أعر الاهتمام لكل هذه الوفود، وأنت جئتني راكبا حمارك لتضغط على كي أرد هذه المرأة، اذهب وإلا قبضت عليك". تركه سيدي أحمد المجدوب وفي وقت الصلاة دخل المحراب وأمسك بعصاه وقال: " يا الحق، خذ الحق من عبد الحق " غرز عصاه في الأرض ثم جذبها فتفجر الدم من حفرة التي تركتها الحفرة في الأرض. في نفس الوقت سال الدم من عبد الحق وهو في الكدية. فأخذ يصرخ " بو حمير " ثم سقط صريعا وتبع هذه الواقعة رحيل بني عامر عن المنطقة إلى مناطق التل تاسلا بسيدي بلعباس. وإذا كانت الرواية الشعبية تقدم هذه القصة ببساطة فإن الاختلاف أعمق من ذلك وتعود إلى أسباب سياسية دفعت قبيلة بني عامر إلى الهجرة إلى الصحراء كما يفسرها العلامة ابن خلدون[3] وهذا يوضح الدوافع التي جعلت سيدي أحمد المجدوب يجابه قبيلة بني عامر التي عاصرت الزيانيين واشتهرت بموقفها السياسي والعسكري المتأرجح بين تأييد الزيانيين والمرنيين. وقد ساندت السلطان المريني أبي عنان في معركة وادي القصب 749هـ ضد السلطان الزياني أبي سعيد. وهو الموقف الذي يشتهر به المؤرخ ابن خلدون في مقدمته. وقد أدى هذا إلى انهزام الزيانيين والقضاء على دولتهم مما سهل احتلال تلمسان، ونتيجة لهذا انتقلت قبيلة بني عامر إلى الصحراء لتمكين النفوذ لبني

مرين عن طريق العودة إلى سياسة الاستسلام في وجهه. ولذلك لم ير سيدي أحمد المجدوب بدا من طردها ومحاربة نفوذها السياسي الذي يشكل في نظره غزوا أجنبيا.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى التبجيل والاحترام الذي لقيته أسرة سيدي أحمد المجدوب منذ حلول جده سيدي معمر بن أبي العالية بتلمسان في القرن الخامس الهجري. وقد لاقى احترام الدولة الزيانية وانتقل هذا التبجيل إلى ذريته ومنهم سيدي أحمد المجدوب. وهذا الارتباط شكل عداوة للمرنيين ولحلفائهم بني عامر. لهذا تحمل الرواية الشعبية شخصية عبد الحق كزعيم لبني عامر في حين أن المقصود هو أبو يحي عبد الحق مؤسس الدولة المرينية. ولعل ما أراده السكان هو نظرة استخفاف نحو هذه القبيلة لإبرازها كحليفة للغازي الأجنبي بني مرين.

جدول رقم : 10 يبين الشعور بالخوف اتجاه الولي

الشعور بالخوف	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	52	%45
لا	60	%50
بدون رأي	18	%15
المجموع	**120**	**%100**

يوضح الجدول أن هناك نسبة معتبرة (45%) تشعر بالخوف اتجاه الولي ومعنى ذلك أنها تخشى انتقامه ولا تأتي بأي سلوك يمكن أن يؤدي إلى غضبه. وفي بعض الحالات تقر بأن الولي يستطيع الإطلاع على تصرفاتها ومن ثم تزداد خشيتها منه في حين أن نسبة 50% لا تشعر بأي خوف أو وجل اتجاهه ويرجع هذا السبب إلى تشبع الكثير من الفئات بالثقافة الدينية الصحيحة بحيث حل الاحترام للولي مقام القداسة التي كان يكنها له الناس ولاسيما إذا ما تعلق الأمر بالشباب.

جدول رقم : 11 يبين أثر الاحتفال على الاستقرار النفسي

التخفيف من القلق	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	106	%88
لا	09	%08
بدون رأي	05	%04
المجموع	**120**	**%100**

يوضح الجدول أن نسبة 88% يعزون التخفيف من القلق إلى الاحتفال وبالتالي إلى الولي الصالح الذي يقام من أجله الاحتفال. وقد تساهم مختلف مظاهر الاحتفالات في هذا التخفيف وبذلك يحس الشخص بنوع من الاستقرار النفسي ولاسيما إذا كان يعاني من ضغوط المجتمع إذ أنه يعتقد أن دعواته تستجاب إن آجلا أو عاجلا وذلك لاعتقاده الراسخ في أن ما استعصى عليه من حلول للمشاكل التي يتخبط فيها يجد متنفسا لها في هذا المكان المقدس. ويعد هذا حسبه آخر ملاذ يطرقه لتجاوز محنته. وهذا ما يجعله يركن إلى الولي الصالح من أجل قضاء حاجته ولو بعد حين. في حين أن من لا يحسون بالاستقرار لا يتجاوز نسبتهم نسبة 8% من مجموع المستجوبين وهي ضئيلة مقارنة بنسبة الداعمين لا يزال الاحتفال على الاستقرار النفسي.

جدول رقم : 12 يبين الشعور بتلبية الدعاء

تلبية الدعاء	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	76	%63
لا	24	%20
بدون رأي	20	%17
المجموع	**120**	**%100**

عند سؤالنا لأفراد العينة هل يلبى دعاؤك؟ أجاب 63% منهم بنعم. وهذا يعكس اعتقادهم الراسخ في أن دعاؤهم سيستجاب لأن الدعاء في هذا الاحتفال المبارك مستجاب ولا يمكن أن يظن الشخص غير ذلك. وهذا ما يفسر تعلقهم الكبير بالولي الصالح الذي يشكل جدهم الأكبر ولاسيما بالنسبة لكبار السن الذين يعتقدون في قواه الخارقة للعادة أو يتوسلون به كرجل صالح مقبول الدعاء عند الله سبحانه وتعالى. أما فيما يتعلق بالشباب فإنهم سلكوا نفس مسلك آبائهم ويظهر هذا من خلال النسبة الكبيرة التي أجابت بنعم. في حين لم تجب بـــ لا إلا نسبة 17% وغالبا ما تمثل هذه النسبة الوافدين الذين لا يحضرون هذه الاحتفالات إلا في المناسبات.

جدول رقم : 13 يبين رد الفعل بعد الاستجابة للدعاء

رد الفعل	التكرارات	النسبة المئـــوية
تقديم الصدقة للزاوية	66	%55
زيارة الضريح	36	%30
بدون رأي	18	%15
المجموع	**120**	**%100**

يلجأ 55% من أفراد العينة إلى تقديم الصدقة للزاوية كعرفان على تلبية الدعوة وحصول الغرض المطلوب وكمقابل على هذه الاستجابة. وقد يعزى حصولها إلى بركة الولي الصالح أو إلى جاهه. ولهذا تكون الصدقة بمثابة اعتراف بالجميل على الحر والوفاء به. في حين يعمد البعض إلى زيارة ضريح الولي الصالح لتقديم الشكر والولاء على قضاء الحاجة وقد يقدم الزيارة إلى مقدم الزاوية لتصرف في شؤونها أي في أبواب الخير وهو ما يعد واجبا على المانح لقاء ما انتفع به من تلبية دعوته. أما النسبة المتبقية فتتشكل من بعض الشباب الذين قد لا يتفقون مع النسب المذكورة لأسباب مختلفة.

جدول رقم : 14 يبين كيفية الدعاء

بجاه الولي الصالح	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	47	%39
لا	31	%26
بدون	42	%35
المجموع	120	%100

لقد بلغت نسبة الذين يقومون بالدعاء بجاه الولي الصالح أي الذين يتخذونه كواسطة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى نسبة 39%. وهم حينما يدعون يقرنون دعائهم بالولي الصالح. وهناك من يعتقد اعتقادا راسخا بوجوب هذا الاقتران بينما هناك من يؤكد على أنه عادة متوارثة بين الأجيال دأب عليها دون معرفة الأسباب التي دعته إلى ذلك. علما بأن نسبة 61% بين ممتنع عن الإجابة أو غير معترف بهذه الكيفية. ويعزى هذا إلى ارتفاع الوعي الديني في أوساط الشباب وتأثير مختلف العوامل على عادات وتقاليد السكان ولاسيما مع انتشار وسائل الاتصال الحديثة حتى غدت الكرة الأرضية مجرد قرية واحدة.

جدول رقم : 15 يبين علاقة مكان الاحتفال بالدعاء

علاقة المكان بالاستجابة	التكرارات	النسبة المئـــوية
نعم	72	%60
لا	24	%20
بدون رأي	24	%20
المجموع	**120**	**%100**

صرحت نسبة 60% من أفراد العينة على أن الدعاء مستجاب فوق الأرض التي يقام عليها الاحتفال. وهم يربطون الدعاء بما يسمى عند العامة بالفاتحة. وهذا الدعاء يقام

عند اختتام الاحتفالات وغالبا ما يكون يوم الجمعة التي يستجاب فيها الدعاء. حيث يقوم الإمام بهذه العملية بينما يؤمن الحاضرون وكلهم اعتقاد في أن هذا الدعاء مستجاب ولذلك يلجأ العديد من الناس إلى اغتنام هذه الفرصة للاستزادة من الدعاء وطلب الخير والعافية للجميع. في حين أن النسبة المتبقية لا ترى جدوى من تخصيص المكان بأي قدسية قد تؤثر على عملية الدعاء فلديها أن الدعاء المستجاب بغض النظر عن المكان الذي يوجد فيه الشخص الداعي.

– المؤشر الثاني: التنظيم السنوي للوعدة تجديد الحلف مع الولي.

ترتبط القبيلة بوليها عن طريق الاحتفال التي تقيمه سنويا والذي يعبر عن مدى التعلق به والاحترام الذي يكنه جميع الأفراد على اختلاف فئاتهم فيما تتمثل مهمة الولي في الذود عن القبيلة وتأمين وسائل الخير والسعادة لها. والاحتفال عادة جماعية تمارس في مناسبة معينة وترتبط بعواطف الجماعة وتتمحور حول قيمها ومعتقداتها. ولا يمكن لأي فرد أن يعزل أفكاره ومشاعره عنها. وهذا ما يجعله يتذكرها في مناسبات دورية. وغالبا ما تكون سنوية صيفا أو خريفا وهذا لارتباطها بموسم الغلة وجني الثمار. وسنحاول من خلال بعض الأسئلة الإلمام بمدى تعلق الوافدين بطقس الوعدة وبالتالي بمن يقام له الاحتفال.

جدول رقم : 16 يبين صفة المشاركة في الوعدة

صفة المشاركة	التكرارات	النسبة المئـــوية
دائمة	94	%78
متقطعة	24	%20
أحرى	02	02
المجموع	**120**	**%100**

يعبر أغلبية أفراد العينة (78%) عن مشاركتهم الدائمة في احتفالات الوعدة ويتوافد العديد من الدواوير المحلية وغير المحلية المتمركزة في ولايات أخرى (البيض، الأبيض سيدي الشيخ، أولاد نهار...الخ) بصفة منتظمة للمشاركة الفعلية عن طريق إقامة الخيام أو يحلون ضيوفا على أبناء عمومتهم ويظلون في وعدة سيدي أحمد المجدوب إلى غاية انتهاء الاحتفالات كما قد يأتي الغرباء والأجانب إلى قرية عسلة فتكرم وفادتهم وتقدم إليهم الخدمات كضيوف سيدي أحمد المجدوب في الخيام أو في المنازل وقد عايش الباحث هذا الكرم حتى يحس الوافد أنه أحد أحفاد الولي، إذ لا يوجد أي تميز ولا فرق بين الناس في هذا المكان المضياف، أما ما تبقى من النسبة يعبر عن المشاركة في الاحتفال بصفة مؤقتة وهو غالبا ما يتعلق بالوافدين والغرباء الذي لا يعدون من أحفاد الولي ويأتون الاحتفال للتنزه والترفيه، ولا يمكثون طويلا. وحضورهم غير منتظم.

جدول رقم : 17 يبين سبب المشاركة في الاحتفالات

السبب	التكرارات	النسبة المئـــوية
الزيارة	21	%17,5
حل المشاكل	18	%15
الولاء للجد	69	%57,5
بدون رأي	12	%10
المجموع	**120**	**%100**

يصرح أكثر من نصف أفراد العينة بأن الهدف من مشاركتهم ينبع من تعلقهم بالولي الصالح الذي يعتبرونه جدهم الأكبر. ولذلك تنسب هذه الوعدة إلى اسمه ولا تعرف إلا به. وهم حينما يحيون هذه الاحتفالات إنما يحافظون على ديمومة واستمرار صيت جدهم عبر مختلف المناطق كما يدعمون بالمناسبة ذلك الرباط المقدس الذي يربطهم بوليهم ويرفعون بالتالي شأنهم بين الناس لاسيما أن الوعدة يشد إليها الرحال من كل مناطق الوطن إضافة إلى

كونها ذات طابع وطني مما يجعل الاهتمام بها يتعدى في الغالب المجال الاحتفالي إلى مجالات أخرى اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية.

جدول رقم : 18 يبين سبب القيام بالاحتفال

سبب القيام بالاحتفال	التكرارات	النسبة المئـــوية
الاستسقاء	18	%15
رفع البلاء	24	%20
إكرام الولي	53	%45
بدون رأي	25	%20
المجموع	**120**	**%100**

يجمع 45% من المستجوبين إلى أن قيام الاحتفال بانتظام يعود إلى إكرام الولي حيث أن منظمي الاحتفال يرجع نسبهم إليه كجد أكبر ولذلك لا يجدون بدا من إقامته بانتظام ولا يستطيع أي دوار أن يتخلف عنه لأن ذلك يعد إخلالا بالعهد اتجاه الولي الصالح. إن الزائر للوعدة يلاحظ أن هناك أمكنة قد عينت للدواوير يلجؤون إليها كل سنة وقلما تجد فراغا يعكس تغيب أي منهم. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على المشاركة الدائمة التي تعكس الإكرام والتبجيل الذي يحظى به صاحب المقام. وقد أشارت النسب المتبقية إلى الاستسقاء كسبب مساعد على إقامة الاحتفال وكذا رفع البلاء وغالبا ما يتمثل هذا البلاء في الكوارث الطبيعية ولاسيما الجفاف الذي يؤدي إلى نقص الغلال والإضرار بالزراعة المورد الأساسي لأهل المنطقة إذ أنها فلاحية ورعوية تعتمد على ما تجود به السماء من أمطار لإنعاش الاقتصاد المحلي.

جدول رقم : 19 يبين كيفية تنظيم الخيام

تنصيب الخيام	نعم	النسبة	لا	النسبة
خيام خاصة بالأعيان ورؤساء الدواوير	36	%30	84	%70

حاولنا من خلال معرفة تنظيم الخيام أن نكتشف هل هناك تفاوت طبقي بين منظمي الاحتفالات. وقد أشارت نسبة 70% أنه لا يوجد أي تميز بين مختلف الفئات وذلك بسبب انتمائهم إلى الولي الصالح سيدي أحمد المجدوب حيث يعتبرون أنفسهم أحفاده ولذلك فلا فرق بين دوار وآخر أو شخص وآخر إذ هم في نظر الجميع إخوة. وقد مكنتنا متابعتنا المستمرة لهذه الاحتفالات إلى التأكد من أن الجميع لا يحبذون حتى التفكير في هذا الأمر. وهم يساهمون بفعالية في تنظيم وإنجاح الاحتفالات. أما النسبة المتبقية فلعلها تعود إلى الوافدين الجدد الذين لم يطلعوا بعد على خبايا وعدة سيدي أحمد المجدوب ولذلك يعتقدون أن هذه الوعدة تشبه مثيلاتها على المستوى الوطني وهذا ما يجعلهم يحكمون مسبقا عليها انطلاق من هذا المنظار.

جدول رقم : 20 يبين تنظيم الاحتفال

كيفية التنظيم	نعم	النسبة	لا	النسبة
الفصل بين النساء والرجال	120	%100	--	--
الاختلاط بينهما	--	--	--	--

يتضح من خلال الجدول أن غالبية أفراد العينة صرحوا بأن هناك فصل بين النساء والرجال ولاسيما في الاحتفالات حيث خصصت منطقة أعلى لفائدة النساء حتى يتمكن من مشاهدة ما يجري في الوعدة ولاسيما ألعاب الفروسية والألعاب الفلكلورية. ولا يسمح لأي امرأة

التجول بين الخيام وساحات الاحتفال ولا يجب أن يقبعن إلا في خيامهن بالنسبة لنساء الدواوير المشاركة في الاحتفال. وهذا يبين مدى قوة العادات والتقاليد الريفية التي تمنع الاختلاط بين الذكور والإناث وما ينجر عن ذلك من مشاكل عويصة. وهذا ما جعل المنظمين يحرصون على احترام هذه القاعدة وهو الشيء الذي لا نجده في وعدات أخرى ولاسيما إذا ما تعلق الأمر بالشمال الغربي حيث قلما تحترم هذه القاعدة. ويعمل المنظمون على تكليف حراس بمنع أي رجل يتجه نحو المنطقة المخصصة للنساء.

جدول رقم : 21 يبين نوعية الذبائح

نوعية الذبائح	التكرارات	النسبة المئـــوية
أغنام	96	%80
ماعز	24	%20
أبقار	--	--
جمال	--	--
المجموع	**120**	**%100**

يبين الجدول بأن 80% يقدمون الأغنام كذبائح ولاسيما الضأن. وهذا يعكس اعتقادهم بأن خير الذبائح هي الأغنام وهو ما يتلاقى مع تعاليم الدين الإسلامي الذي يؤكد على أن أفضل الأضحيات في عيد الأضحى هي ما كان من الأغنام ثم تليها الأنواع الأخرى وهذا تأسيا بسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي فدى ابنه بذبح عظيم. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل الغالبية من المشاركين في احتفالات الوعدة يلجؤون إلى هذا الاختيار اعتقادا منهم أن ما يجب أن يقدم في هذه الاحتفالات هو أفضل الأضحيات أو القرابين التي تقدم إكراما للولي الصالح. أما النسبة المتبقية التي تعتمد على الماعز فإن ضعف المداخيل وغلاء الماشية يضطرهم إلى تفضيل هذه الحيوانات نظرا لرخص ثمنها مما يتوافق مع قدراتهم الشرائية ويسمح لهم بالمشاركة في الاحتفالات.

جدول رقم : 22 يبين نوعية الأطعمة المستهلكة في الوعدة.

نوع الطعـــام	التكرارات	النسبة المئـــوية
كسكسي	120	%100
مشوي	--	--
أخرى	--	--

لقد حاولنا من خلال تساؤلنا عن نوعية الطعام أن نكتشف هل هناك تنوع في الطعام بحسب الطبقات بمعنى هل يتفاوت الأفراد في تناول الطعام وهل تخصص الأطعمة الفاخرة للأعيان ورؤساء الدواوير كما هو معهود في كثير من وعدات الوطن حيث تخصص خيام خاصة للسلطات المحلية ورجال الدولة ليتناولوا أفخر الأطعمة ولاسيما اللحم المشوي وأشهى الفواكه في حين يقدم لعامة الناس الكسكسي كما كان يفعل قديما أثناء الاحتلال الفرنسي حيث كانت تقدم أشهى الأطعمة إلى الحاكم العسكري والقياد ومن يدور في فلكهم. غير أننا لمسنا من خلال الجدول أن الطعام المشترك بالنسبة لكل الفئات والطبقات هو الكسكسي الذي يقدم لكل وافد ومقيم مهما كانت درجته ووضعيته الاجتماعية ويرجع العديد من المنظمين هذا الأمر إلى التواتر بين الأجيال في اعتبار الكسكسي أهم طعام يقدم للضيف منذ القدم وهو دأب الجميع على اتخاذه كطعام مشترك لأن الناس في نظرهم سواسية سيما وأن الكثير من المشاركين يعتبرون أنفسهم أحفاد الشيخ بمعنى إخوة في انتسابهم لصاحب الاحتفال ولا يجوز التميز أو التفريق بين الإخوة.

جدول رقم : 23 يبين تنظيم الأكل في الاحتفال

شكل التنظيم	نعم	النسبة	لا	النسبة
بشكل تراتبي كبار، نساء وأطفال	120	%100	--	--
مختلـــــط	--	--	--	--

يؤكد الجدول التراتبية في تناول الأكل بين الفئات حيث يتناول الكبار طعامهم في خيام معينة بينما يتناول الأطفال والنساء طعامهم على حدى على منوال التراتبية التي كانت ولا تزال في بعض الأرياف وغالبا ما تأثرت بالتراتبية الموجودة في الزوايا وفي المجتمعات الزراعية حيث يقوم الجد وأبناؤه الكبار في العائلة الموسعة بتناول طعامهم على حدى بينما تتناول النساء وأطفالهن أكلهم على حدى. وقد عاينا هذا الوضع بأنفسهن حيث كانت النساء والصغار ينتظرون فراغ الأب من الأكل ليأكلوا ما تبقى وهذا تحت طائلة احترام القائم على البيت وهذا من التقاليد الموروثة التي كان يخضع لها الناس في هذه المجتمعات والتي لا زالت تحترم في المجتمعات المحافظة والتقليدية بينما اضمحلت في المجتمعات الحضرية الحديثة.

جدول رقم : 24 يبين أهمية الوعدة بالنسبة للمشارك

أهمية الوعدة	التكرارات	النسبة المئـــوية
التقاء الأقارب	66	%55
التقاء الدواوير	24	%20
التماسك القبلي	27	%22,5
بدون رأي	03	%02,5
المجموع	**120**	**%100**

يجمع 55% من المستجوبين على أن الهدف من إقامة الوعدة والمشاركة في احتفالاتها يعني التقاء الأقارب والإخوة والأحباب الذين فرقت بينهم سبل العيش والمسافة الجغرافية. وهذا يعكس حنين أفراد القبيلة إلى تلك المؤسسة الاجتماعية التي كانت تجمعهم سابقا بنسب الدم في الماضي وهذا ما يعيد للوعي القبلي وللانتماء القبلي بريقه ولو لحين. وهذا لا يكفله إلا احتفال الوعدة حيث يتوافد العديد من الدواوير والأحفاد الموزعين على مستوى مناطق الغرب الجزائري وذلك من أجل المشاركة في هذه التظاهرة التي تمجد الجد

الأكبر. ويضاف إلى هذه النسبة أن الوعدة تمثل محل استقطاب لكافة أفراد القبيلة بحيث تعيد إنتاج لروابط التماسك القبلي من جديد كما يؤدي التقاء الدواوير إلى جمع الأحفاد المكونين للقبيلة. ومن شأن هذا الوضع أن يؤدي إلى توطيد الروابط والعلاقات من خلال هذه التظاهرة وما تسمح به اللقاءات بين الافراد والأقارب الذين يتدارسون أوضاع الدواوير وأحوال الأهل والأقارب الذين يأتون من أماكن بعيدة ليشاركوا باستمرار في احتفالات الوعدة.

جدول رقم : 25 يبين دور الوعدة في حل المشاكل

حل المشـــــاكل	التكرارات	النسبة المئـــــوية
حل المشاكل بين الأفراد وبين الدواوير	120	%100

تعمل الوعدة على حل المشاكل التي يمكن أن يقع فيها الأفراد والدواوير على حد سواء. وهي تلعب دورا أساسيا في فض النزاعات بما تمثله من هياكل مقابل الهياكل الحكومية الخاصة بالعدالة. إذ كثيرا ما كانت تقضي في الجرائم والمواريث وفي الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق وغيره أثناء الاحتلال الفرنسي إذ كان العديد من الناس يلجؤون إلى الجماعة لحل مشاكلهم في حين كانوا لا يعترفون بأحكام السلطات الفرنسية لأنها تتناقض مع أحكامهم المبنية على الشريعة الإسلامية في اعتقادهم فقد خصصت للفرنسيين. وباستقلال البلاد فقد تحولت مهمة الجماعة إلى إصلاح ذات البين بين المتخاصمين سواء كانوا أفرادا أو جماعات ولاسيما حينما يتعلق الأمر بتنظيم المراعي أو الرعي أو في ميدان قد ينتج فيه صراع بين الدواوير التي تنتمي في آخر المطاف إلى سيدي أحمد المجدوب. وقد تفعل كلمة جاه سيدي أحمد المجدوب فعلها العجيب بين المتنازعين ويرضى كل واحدا تنازل عن بعض حقه لحل المشا

كل المطروحة. وتعد الوعدة فرصة ذهبية تلتقي فيها الدواوير والقبائل لحل المشاكل المستعصية لوجود الأعيان ورؤساء الدواوير.

جدول رقم : 26 يبين أسباب تمسك الناس بالوعدة

الأسبـــاب	التكرارات	النسبة المئـــوية
تقربا للولي	78	%65
الانتماء إلى الطريقة	12	%10
عادة قديمة	15	%12,5
بدون رأي	15	%12,5
المجموع	**120**	**%100**

حسب الجدول المبين أعلاه يصرح 65% من المستجوبين إلى أن سبب تمسكهم بالوعدة يتعلق بالتقرب إلى الولي الصالح سيدي أحمد المجدوب. وينبع هذا التمسك من خلال اعتقادهم الراسخ بضرورة تنظيمها كل سنة كما دأب على فعله الأجداد على مر القرون ويضاف إلى ذلك أنهم لا يعرفون إلا به وهم ينحدرون منه. وهذا واجب الابن نحو أبيه أما الإقلاع عن الاحتفال به فيعتبر نوعا من عقوق الوالدين. وهذا يبين المكانة العظيمة التي يحظى بها في نفوس السكان ولا أدل على ذلك من السيل المتواصل والذي لا يكاد ينقطع إلى ضريحه للزيارة سواء تعلق الأمر بالسكان المحلين أو الوافدين حتى تم تخصيص العديد من الأشخاص لتنظيم الزيارات، وقد خصصت الفترة الصباحية للنساء والمسائية للرجال. وهناك نسب ضعيفة تتعلق بالانتماء إلى الطريقة أو اعتبار الوعدة عادة قديمة وكثيرا ما تنسجم هذه الأفكار الأخيرة مع ذوي الأفكار المتأثرين بالأفكار المتفتحة أو الذين بلغوا مستوى من التعليم الديني الذين يعتبرونها نوعا من البدع والشرك. وفي حين أن الغالبية العظمى لا ترى فيها إلا نوعا من التدين الشعبي الذي يتوافق مع الدين الإسلامي الذي يبجل الأولياء الصالحين ولا يمكن أن يتناقض مع تكريمهم ولهذا فإنهم لا يرون مانعا في الاستمرار في تأديتها كل سنة دون انقطاع.

- المؤشر الثالث: استمرار الوعدة.

يبين هذا المؤشر أسباب استمرار الوعدة وتنظيمها المتواتر عبر الأجيال وحتى في الظروف العصيبة التي يمر بها المجتمع وكيف تستطيع الوعدة أن تتكيف مع الأوضاع الجديدة والعادات الجديدة لاسيما في زمن وسائل الاتصال المكثفة والتي بفضلها أصبح العالم مجرد قرية صغيرة وكل الناس معرضون لتأثيرات هذه الوسائل. هذا ما ستبينه الإجابات المتضمنة في الجداول التالية:

جدول رقم : 27 يبين تأثير العادات الجديدة على الوعدة

التـــــأثير	التكرارات	النسبة المئـــــوية
تؤثـــــــر	72	%60
لا تؤثـــــــر	36	%30
بدون رأي	12	%10
المجموع	**120**	**%100**

يبين الجدول أن نسبة 60% يقرون بتأثير العادات الجديدة على الوعدة وذلك أن الأجيال ترث العادات من الأجيال السابقة ولكنها تعدلها وتضيف لها ما يتناسب مع المرحلة التي وصلت إليها من التطور وبما أن سكان المنطقة والوافدين لا يعيشون في برج عاجي ويتعرضون باستمرار لمختلف الأفكار والتكنولوجيات الجديدة فإن هذا يؤثر لا محالة على نظرهم إلى هذه العادات ومنها الوعدة التي يعتقد البعض أنها تتأثر تأثرا كبيرا بما يقع من عادات جديدة تعتبر عادات دخيلة عليها سواء تعلق الأمر بالجانب المادي أو المعنوي في حين أن نسبة 30% تعتقد أنها لا توثر في جوهر الوعدة ويرجع السبب في هذا الاعتقاد إلى أن هؤلاء الأفراد ينتمون في غالبيتهم إلى كبار السن أو على الذين لا يرون الوعدة إلا بعيون الماضي وفقا للأفكار التي تلقوها سابقا.

جدول رقم : 28 يبين تكيف الوعدة مع العادات الجديدة

التكيـــف	التكرارات	النسبة المئـــوية
تتكيف	75	%62,5
لا تتكيف	36	%30
بدون رأي	09	%7,5
المجموع	**120**	**%100**

يتبين من خلال الجدول أن الوعدة تتكيف مع العادات الجديدة. وقد أدلى بذلك 62,5% وهي نسبة عالية تدل على قدرة هذا الطقس على مجابهة كل العادات الدخيلة والجديدة بدليل أنها قاومت مختلف الهجمات التي تعرضت لها ولاسيما حينما انتزعت أراضي الزوايا التي كانت تقام من أجلها سواء وقت الاحتلال أو أثناء تطبيق الثورة الزراعية في السبعينات إضافة إلى مختلف التحديات التي اعترضت لها ولا زالت تعترض لها من قبل علماء الدين الرسمي الذين يعتبرونها بدعة تجب محاربتها ناهيك عن العادات الناتجة عن الغزو الفكري وإن تم هذا التجديد فإنما يتم غالبا في الجانب المادي دون أن يمس جوهر الجانب المعنوي الذي بقي يقاوم كل جديد على مر القرون وعلى الرغم من أن الوعدة قد تعرضت إلى العديد من الضغوط أثناء الظروف العصيبة التي مرت بها البلاد إلا أنها عادت إلى سابق عهدها بمجرد أن استتب الأمن في ربوع الوطن وهذا ما جعل العديد من الوافدين إليها يؤمن بقدرتها على التكيف مع مختلف الأوضاع المستجدة.

ترى نسبة 30% بأن الوعدة لا تستطيع التكيف مع العادات الجديدة ولا ربما يعود السبب في إبداء هذا الرأي إلى تأثر هذه الفئة بأفكار لا تؤمن بضرورة قيام الوعدة أو أنها ترى أن التجديد في المجال المادي يعد مؤشرا على أفول نجمها في حين أن الأصح هو تغير

الجانب المعنوي وهو الجانب الذي يتغير ببطء ويجد مقاومة شديدة لكل جديد من قبل القوى المحافظة التي تؤمن بدوام الرواسب الثقافية عبر القرون والعصور.

جدول رقم : 29 يبين سبب استمرار الوعدة

أسباب الاستمرار	التكرارات	النسبة المئـــوية
تكريما للولي	90	%75
امتثالا للزاوية	24	%20
عادة قديمة	06	%05
المجموع	**120**	**%100**

يوعز 75% من الأفراد استمرار الوعدة إلى القيام باحتفالاتها تكريما للولي الصالح سيدي أحمد المجدوب الذي يعد الجد الأكبر للقبيلة بكافة دواويرها. وهو واجب مقدس بالنسبة لجميع أبناء الدواوير الذين يقع على عاتقهم تنظيم هذه الاحتفالات سنويا. ولذلك يرون أمر توقفها أمرا مستحيلا بفعل تواترها عبر عديد من الأجيال التي حافظت عليها على مر الزمن. ويتوجب على الأجيال الحالية حمل المشعل ويضاف إلى هذا السبب أنها تشكل المتنفس الوحيد لسكان المنطقة في المجال الثقافي الذي تفتقد إليه مما يجعل العديد من الناس تهوي إليه. وتعمل الزاوية كذلك على تدعيم هذا الاستمرار في تكريم الولي عن طريق حرص مقدميها على دعوة الأفراد إلى المحافظة على هذه الاحتفالات التي تعد اعترافا بجميل الولي الصالح وعهد قطعه الأحفاد على أنفسهم من أجل تكريمه بعد وفاته وهذا ما يحصل سنويا بتنظيم مختلف التظاهرات الثقافية المخلدة لذكرى هذا الولي. وتبقى النسبة المتبقية تعتقد أن سبب دوام الوعدة يتمثل في كونها عادة قديمة دأب الناس على إحيائها سنويا ولا يستطيعون أن يتوقفوا عن أدائها شأنها شأن العادات التي ألفوها منذ زمن بعيد. وقد يوعز البعض سبب هذا الاستمرار إلى ضرورة تكريم وتبجيل أولياء الله الصالحين وهو ما يحث عليه الدين الإسلامي من ضرورة الاقتياد بهم وذكر محاسنهم وهو ما يستوجب الاحتفال بذكرى وفاتهم

وهذا ما ينسجم ويتوافق مع تعاليم الدين. فهل حقا أن هناك تطابق بين الاحتفال بالولي الصالح والدين؟ كما يؤكد عليه التدين الشعبي أم أن الأمر يتعلق بالتناقض بينهما كما يؤكد عليه علماء الدين الرسمي؟

جدول رقم : 30 يبين مدى تطابق الوعدة مع الدين

مدى المطابقة	التكرارات	النسبة المئـــوية
تتطـــابق	86	%72
لا تتطـــابق	24	%20
بدون رأي	10	%08
المجموع	**120**	**%100**

يوضح الجدول أن نسبة 72% ترى أن الوعدة تتطابق مع تعاليم الدين الإسلامي التي تحث على ضرورة تكريم وتوقير أولياء الله الصالحين وعدم التقليل من شأنهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤ ﴾[4] كما يتوعد الله الذين يعادون الأولياء بالحرب كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا، فقد آذنته بالحرب.."[5] وعلى هذا الأساس فإن تعظيم طقوس الاحتفال بالولي الصالح تعد تعظيما لصاحب الضريح في نظر التدين الشعبي الذي يرى أن الأنبياء عليهم السلام يتميزون بالمعجزات بينما الأولياء بالكرامات ومنهم سيدي أحمد المجدوب الذي أشرنا إلى كرامته سابقا. ويضاف إلى هذا أن كلا الجانبين يدعوان إلى نفس الأهداف إذ أن كثير من العادات والتقاليد التي يؤكد عليها الدين الإسلامي توجد محتواة في احتفالات الوعدة كالإحسان إلى الفقراء والتصدق عليهم وتوقير

الكبير والعطف على الصغير وإطعام الغريب وابن السبيل، وإصلاح ذات البين والقيام بالأعمال الخيرية التي تعود بالفائدة على المجتمع كالقيام بالحملات التطوعية (التويزة) شق الطرق إلى المناطق الوعرة، وإصلاح قنوات الري وبناء الزاوية والمساجد والمشاركة في خدمة أراضي الزاوية وتنظيم أمور المسلمين في شتى المجالات. ويضاف إلى هذا أن كثيرا من الزوار يعتقدون أن الدعاء مستجاب عند ضريح الولي ولذلك يغتنمون هذه الفرصة لتقديم أدعيتهم بجاه وليهم. ولا يرون في ذلك خروجا عن الدين. وهذا ما يجعل الوعدة في نظرهم لا تختلف عن الدين. في حين أن نسبة 20% ترى غير هذا الرأي أي أن الوعدة لا تتطابق مع الدين إذ أن الدين الرسمي يدعو إلى محاربتها يرى فيها أن بدعا ونوعا من الشرك والوثنية القديمة وغالبا ما يؤثر على نظرة هذه الشريحة تلقيها لثقافة دينية لا تتوافق مع هذا النوع من الطقوس التي تعتبرها غريبة عن حلبة الدين الإسلامي. وعلى العموم فإن الغالبية ترى أن الوعدة لا تخالف الدين بل تتناسب مع تعاليمه ويستشف ذلك من خلال نشاطاتها ابتداءا من قيامها إلى غاية إقامة الفاتحة.

جدول رقم : 31 يبين صفة المال المخصص لشراء الذبائح

صفة المـــــال	التكرارات	النسبة المئـــوية
حـــــلال	99	%82,5
مشبـــــوه	06	%05
بدون رأي	15	%12,5
المجموع	**120**	**%100**

يوضح الجدول أن 82,5% يؤكدون أن المال المخصص لشراء ذبائح الوعدة حلالا امتثالا لما ينص عليه الدين الإسلامي وتطبيقا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[6]. أما في السنة

الشريفة فقد روي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ الآية.

وقد ذكر الرجل يطيل السفر أشعث، أغبر يمد يده إلى السماء...يا رب...يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك.[7]

وعلى هذا الأساس يحرص العديد من الناس على أن يكون الطعام المقدم حلالا لأن الصدقات تشترط لقبولها المال الطيب. وهنا تلتقي العادات والتقاليد الشعبية التي يزخر بها طقس الوعدة مع تعاليم الدين الإسلامي في نظر التدين الشعبي. وهذا ما يجعل الوافدين يقرون بتطابق الوعدة مع الدين ولا يرون أي اختلاف بينهما. وهذا ما يجعلهم يؤكدون على أن الطقس النابع من التراث الإسلامي لا يمكن أن يضمحل مهما كانت العراقيل والمعوقات التي تعترض طريقه. فما هي الأسباب التي يرتكزون عليها للتشبث بهذا الرأي؟

جدول رقم : 32 يبين استمرار الوعدة أو توقفها

وضعيـــة الوعـــدة	التكرارات	النسبة المئـــوية
الاستمرار	96	%80
التـــوقـــف	18	%15
بدون رأي	06	%05
المجموع	**120**	**%100**

يرى 80% من المستجوبين أن الاحتفالات السنوية للوعدة ستدوم وستنظم باستمرار في وقتها المحدد على الرغم من أن هناك ظروف جديدة تؤثر عليها لأن القوى التي تقف وراء وجودها هي قوى ترى في بقائها استمرار لتكريم جدها الولي الصالح لأنهم يعتبرون أنفسهم أحفاده[8] كما يرون أن هذا الطقس يعتبر عادة قديمة دأب السابقون على إقامتها سنويا وهي احتفالات تتماشى مع الدين الإسلامي ويوعز الكثير بقائها إلى ما هو مبين في القرآن

الكريم الذي يؤكد على ضرورة الوفاء بالنذر كما جاء في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا ۝٧﴾ ولا يفرقون بالنذر المباح أو نذر المعصية. ويضيفون أن الوعدة بمثابة صدقة تقدم فيها الأطعمة من قبل أهل الولي المتوفى إلى الوافدين. وهي عادة موروثة والموروث لا يندثر بسهولة.

وإذا أضيفت الفوائد الاقتصادية التي تعود على سكان المنطقة بفعل توافد الزوار والسياح إليها بالآلاف مما ينعش الاقتصاد المحلي وتمثيلها لتظاهرة ثقافية وطنية الشيء الذي تفتقر إليها البلدية ندرك الأهداف التي من شأنها تشجيع واستمرار الوعدة. وإذا كان البعض 15% تنبؤوا بتوقفها نتيجة ما تحتويه من سلبيات وآفات فقد أكد الكثير أن إيجابياتها أكثر من سلبياتها ويضاف إلى هذا أن الوعدات الكبيرة على المستوى الوطني قد أصبحت تلاقي التشجيع والتدعيم من قبل السلطة المركزية والمحلية بفعل تدعيم الإسلام التقليدي قصد محاربة التطرف الديني والإرهاب وهذا ما يفضي إلى استمرار إقامة الوعدات.

الهوامش:

[1]ريمون بودون: " **منهج علم الاجتماع (ترجمة: هالة شيبون الحاج)** "، ط1 بيروت: منشورات عويدات، 1972، ص 78.

[2]لم تخصص دراسة للجنس على اعتبار أن أفراد العينة كلهم ذكور.

[3]أنظر عبد الرحمان بن خلدون: " **كتاب العبر** "، الجزء 11، دار الكتاب اللبناني، ص 105-106.

[4] سورة يونس: الآية 62،64.

[5]أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي، مرجع سابق، ص 139.

[6] سورة البقرة: الآية 172

[7]عز الدين بليق، " **منهاج الصالحين** " الطبعة الأولى، بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، 1978، ص 627.

[8]أنظر الملحق الخاص بالشجرة العائلية لقبيلة سيدي أحمد المجدوب

الفصل الرابع

النتائج العامة

- عرض نتائج البحث
- مناقشة النتائج

- **عرض نتائج البحث:**

إن أي باحث يحاول أن يعرف إذا كانت نتائج بحثه متطابقة مع الواقع أم لا؟ وهو بذلك يرنو إلى أن يصل إلى هذا الهدف على سبيل الاستطلاع ووضع الفرضيات. وتبقى الكلمة الأخيرة هي الإجابة على الإشكالية المطروحة، وذلك بالتحقق من كون الفرضيات تتوافق مع الميدان أم لا.

تتجسد الدراسة عل شكل عبارات تعبر عن الواقع المراد دراسته ثم تتحول إلى أرقام تعبر بصورة كمية عن هذا الواقع لتستقر في الأخير على شكل عبارات تختبر بها الفرضيات وتصبح سهلة التناول سواء بالنسبة للباحث المختص أو الإنسان العادي الذي لا تسمح له قدراته الفكرية بقراءة الأرقام أو بعبارة أخرى الانتقال من الدارسة الإحصائية إلى ترجمتها إلى لغة يفهمها الجميع.

بعد هذا العرض الموجز، نحاول التطرق إلى المرحلة الأخيرة من البحث أي عرض النتائج التي توصلنا إليها. ولبلوغ هذا الهدف سنركز على المؤشرات والربط بينهما وبين الفرضيات التي هي في جوهرها علاقات بين المتغيرات. وقبل أن نباشر الفرضيات لا بد أن نشير إلى الخلفية الاجتماعية والاقتصادية ويقصد بها " تلك العوامل التي يمكن أن تلعب دورا بشكل مباشر في التأثير على سلوك الأفراد. وهذه المتغيرات الفرعية هي الجنس والسن المستوى التعليمي والمستوى الاقتصادي التي تسمى المتغيرات الرائزة".[1]

لقد بينت الدراسة أن أكثير من نصف أفراد العينة شباب وهذا ما يتوافق مع نسبة الشباب في المجتمع. وهذا ما يفسر تطور نظرة الشباب إلى احتفالات الوعدة على عكس ما كان سائدا في الفترات السابقة حيث كانت تسود النظرة التقليدية المحافظة ويتعزز هذا الطرح إذا ما أدخلنا متغيري المستوى التعليمي والمستوى المهني حيث تؤثر هذه المتغيرات مجتمعة على سلوك أفراد العينة اتجاه طقس الوعدة واتجاه الولي الصالح. وهذا ما لمسناه من خلال دراستنا لمختلف الجداول حيث انعكس هذا التأثير على إجابات الكثير من المبحوثين.

ولا شك أن هذه العوامل تلعب دورا في التأثير على المتغيرات الرئيسية للبحث. وهذا ما يستشف من دراسة الفرضيات التالية:

أ- اختبار الفرضية الأولى

لقد كان محتوى الفرضية الأولى يدور حول تشكيل الممارسة الطقوسية للوعدة نوعا من عبادة الأسلاف القديمة التي اكتسبها قدماء الجزائريين من الاحتلال الروماني وامتزجت بمعتقداتهم. ومع ظهور الأولياء والطرق في القرن 15م بزغت من جديد عبادة الأولياء وأصبح الأبناء والأحفاد والأتباع يحتفلون بذكرى مؤسس طريقتهم أو زاويتهم، وغالبا ما يكون هذا المؤسس الجد المشترك للقبيلة. وقد استحدث طقوس مشتركة تناسب الاحتفالات وهي تماثل في حالها الطقوس القديمة التي أشرنا إليها.

فإلى أي حد تعتبر هذه الفرضية صادقة؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من العودة إلى البيانات الميدانية. إن التركيز على دراسة مؤشر الاعتقاد في الولي من خلال الطقوس التي يشترك فيها الأفراد من شأنه أن يعكس ذلك الترابط المقدس الذي يربطهم به ويبين نفوذه وسيطرته في الأوساط الشعبية، ومدى الاحترام والتقديس الذي يكنه له الناس. وللوصول إلى هذا الهدف نتساءل حول نقطتين:

أولا: نظرة الأفراد إلى الولي الصالح.

ثانيا: المشاركة في طقوس احتفالات الوعدة.

بالنسبة للنقطة الأولى بينت مختلف البيانات المدرجة في الجداول أن العلاقة التي تربط المبحوثين بالولي الصالح تصب جلها (90%) في توثيق الرابطة الروحية معه من خلال مختلف العلاقات لأنه يعتبر في العرف العام الجد المشترك للقبيلة. ويترجم هذا الاحترام والتقدير عن طريق تقديم الزيارات والصدقات للزاوية التي تقوم بدور كبير في المحافظة على طقوس الطريقة وبالتالي تعمل على استمرارية وإعادة إنتاج هذه العلاقة المقدسة بين الولي الصالح وأحفاده أو أتباعه أو من ينتسبون إليه. وذلك من خلال ما تقوم به من نفقات لفائدة

الغرباء وأبناء السبيل وكل هذا من أجل ضمان صيرورة سيرة الولي وديمومتها. ومما يزيد في توطيد العلاقة المقدسة هو أن أكثر من نصف المبحوثين يعتقدون بضرورة الوفاء بالنذر لفائدة سيدي أحمد المجدوب وإلا أصيبوا بمكروه نتيجة عدم الوفاء علما بأن عدم تجسيد الوعد ينقص من شيم الرجال. ويكتسي الأمر أهمية بالغة لدى كثير من الناس إذا عرفنا أن العديد منهم يقرنون الوفاء بالنذر بما جاء في القرآن الكريم وبما نص عليه في هذا المجال حيث يقول الله تعالى" ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾[2] ويتعزز هذا الاعتقاد حينما نتعرض إلى دور الولي في مجال النفع والضرر والانتقام حيث نجد نسبا معتبرة لا زالت تؤمن باستطاعته في أن يضر أو ينفع أو ينتقم ويعود هذا الأمر إلى الأساطير والحكايات التي تناقلتها الأجيال ومن ضمنها القصة المشهورة لسيدي أحمد المجدوب[3] وهذا ما تفطن له الاستعمار والمعمرون حيث أدركوا نفوذ الأولياء في الأوساط الشعبية وقاموا ببناء القباب للمحافظة على حقولهم من السرقة. وقد تم اكتشاف هذا الأمر بعد دراسة اعتقادات الأهالي حول دور ونفوذ أصحاب الأضرحة والقباب في بعث الذعر والخوف لكل من يحاول الاقتراب من هذه الحقول.

ولعل هذا الشعور يجد تفسيره من خلال البيانات التي احتواها الجدول رقم 10 حيث تفيد بأن نسبة 45% لا زالوا يشعرون بالخوف اتجاه الولي الصالح حينما يتصرفون تصرفا غير لائق قد يؤدي إلى غضبه علاوة على اعتقادهم في قدرة الولي على الإطلاع على هذه التصرفات مما يجعلهم يحجمون عن الإتيان بها. وقد لامسنا هذا السلوك خلال الفترة الاستعمارية حينما كان الكثير يقر بقدرة الولي الصالح الإطلاع على ما يقترف الناس من تصرفات حتى بلغ الاعتقاد فيهم بالحلف بأسمائهم وتعظيمهم وأصبح الحلف بالولي الصالح هو المعتد به على الرغم من الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من كان حالفا، فليحف بالله أو يصمت ". ولم يعد الأمر مستساغا في الوقت الحاضر مع نمو الوعي الديني والثقافي إلا أن هذا عوض بالاحترام والتقديس وجاه الشيخ الذي غالبا ما يرتكزون عليه في دعائهم لله سبحانه وتعالى. ويعد هذا من بقايا تلك الحقبة

ولاسيما حينما يتعلق الأمر بكبار السن. حيث يعتبر مجرد ذكر اسم الولي الصالح كافيا لإنهاء الخصومات أو التنازل عن الحقوق احتراما لشيخ الزاوية.

ثانيا: المشاركة في طقوس الوعدة:

تحمل المشاركة أهمية بالغة لجميع فئات الشعب إذ يساهمون في الاحتفالات بصفة دائمة بنسبة 80% تحت أسباب مختلفة منها أكثر من 60% إكراما للولي الصالح الذي يحظى بمرتبة مميزة في نفوس أحفاده. وتصبح المشاركة ذات معنى هام بالنسبة للسكان المحلين الذين يستحل عليهم مقاطعة هذه التظاهرة أو التوقف عن المساهمة فيها لكونها عادة قديمة ورثوها عن أجدادهم وما عليهم كأحفاد إلا حمايتها وإيصالها إلى الأجيال القادمة.

ومن شأن هذا الاعتقاد الراسخ في نفوس الأفراد أن يعيد إنتاج تلك العلاقة المقدسة بين الأجداد والأحفاد الذين يتوجب عليهم إعادة إحيائها كل سنة والعمل على نشر صيتها وترقيتها إلى تظاهرة وطنية. وهذا باحترام موعد إقامتها في وقتها المحدد أي في أكتوبر الفلاحي كما حدد الأجداد في سنة 1904.

ويعتبر الاحتفال ذا أثر كبير في نفوس المشاركين إذ يعتقد أكثر من 88% من الأفراد أنه يساهم في الاستقرار النفسي حيث يخفف من الشعور بالقلق ولاسيما إذا عرفنا أنه يقام من أجل الولي الصالح وإن الدعاء سيستجاب إن عاجلا أم آجلا نظرا لاعتقادهم بأن الله سبحانه وتعالى ولي الصالحين. وهم حينما يلجؤون إلى وليهم إنما يفعلون ذلك بعد أن نفذت كل الوسائل التي تمكنهم من حل مشاكلهم. لذلك يتوجهون إلى هذا الوسيط كآخر ملاذ لهم وقد بينت نسبة 39% من المبحوثين أنهم يدعون الله بجاه سيدي أحمد المجدوب في حين أن هناك ممن لا يتقبل هذا الأسلوب. ويرجع هذا الأمر إلى ارتفاع المستوى الثقافي والوعي الديني. وهذا ما يعتبر انعكاسا لتأثير المتغيرات الرائزة التي تطرقنا إليها سابقا.

تجدر الإشارة إلى أن 60% يعتقدون بأن للمكان علاقة باستجابة الدعاء لأنه مكان قداسة وبركة. وقد تأتت هذه الخاصية من قدسية المكان الذي تقام عليه الاحتفالات تبركا بصاحب الضريح. ولاسيما حينما تقام الفاتحة، ويغتنم الكثير هذه الفرصة للدعاء لأن

الاستجابة فيها مضمونة حسب المشاركين سيما وأن الدعاء مستجاب في ساعة يوم الجمعة. وقد يتحقق الدعاء وهذا ما جعل 85% يعمدون إلى تقديم الصدقة للزاوية أو زيارة الضريح كعرفان على قبول الدعاء الذي تم بجاه الولي الصالح وهذا ما يبين الاعتقاد الراسخ لدى الأفراد في التوسل بالأولياء الصالحين لقضاء الحاجات. وقد كتب رشيد رضا في هذا المجال ما نصه: " إن المعلوم من حال هؤلاء المتوسلين بالأشخاص أنهم يتوسلون بذواتهم الممتازة بصفاتهم وأعماله المعروفة عنهم لاعتقاد أن لهم تأثيرا في حصول المطلوب بالتوسل، أما بفعل الله تعالى لأجلهم وأما بفعلهم أنفسهم مما يعدونه كرامة لهم".(4)

مما سبق من تحليل وتفسير للنتائج حسب الجداول المقدمة يتضح أن الفرضية الأولى قد تحققت فعلا نتيجة لتماثل طقوس الاحتفالات مع عبادة الأسلاف التي كانت سائدة في القديم، ولاسيما ما تعلق بالاحتفال بذكرى وفاة الجد المشترك وما يلاقيه من احترام وتبجيل وقداسة من قبل الوافدين إلى الوعدة أو زيارة الضريح والتوسل به والدعاء عند مقامه وهذا ما يتفق مع ما قال له بعض المفكرين من " أن عبادة الأولياء هي بقايا وثنية دخلت إلى المغرب عن طريق المرابطين".(5)

ب- اختبار الفرضية الثانية

يؤدي التنظيم السنوي للوعدة إلى تجديد الحلف مع الولي.

يدل محتوى الفرضية على أن هناك علاقة وطيدة بين التنظيم السنوي للوعدة وتجديد تلك العلاقة المقدسة التي تربط القبيلة بجدها المشترك بحيث أن قيامها بهذه الاحتفالات وتقديمها للصدقات أو ما يسمى بالمعروف في شكل أطعمة للوافدين وقيامها بمختلف طقوس الوعدة، يعد واجبا مقدسا اتجاه الولي الصالح، وهي عملية متواترة بين الأجيال منذ زمن قديم. وقد دأبت مختلف الأجيال على تنظيمها بصفة دورية تنم عن معتقد شعبي يضاهي في كثير من الحالات الطقوس الدينية الرسمية في مخيلة الجماهير الشعبية التي تتمسك بها باستمرار ودون كلل أو ملل ولدراسة هذه الفرضية سوف نركز اهتمامنا على نقطتين أساسيتين هما:

1- المحافظة على إقامة الوعدة في وقتها المحدد.

2- تجديد العلاقة القرابية مع الولي من خلال تنظيم الاحتفالات.

تبين البيانات الميدانية أن 80% تقريبا من المشاركين يشاركون في الوعدة بصفة دائمة ولاسيما الدواوير التي ترتبط بنسب الولي الصالح كما هو مبين في الملحق، وتتواجد سنويا في المكان المحدد لها كما يتوافد على الاحتفالات دواوير من خارج الولاية للمساهمة فيها. وما يمكن الإشارة إليه هو أن الأفراد المنظمين للوعدة يرون أن عدم المشاركة إنما يعنى عقوق الوالدين على اعتبار أنهم يعتبرون أنفسهم أحفادا للولي وهذا ما يجعلهم يتمسكون بهذه العادة. وهاذ ما يعكسه الهدف من المشاركة إذ يأتي في المقدمة الولاء للجد بنسبة تفوق 50% تتبعها زيارة الشيخ بـــ 17,5% وهذا يبين درجة التعلق الجد الأكبر وهم بهذا يحافظون على ديمومة صيت جدهم وينشرونه في مختلف المناطق ولاسيما حينما نعلم أن هناك أولياء آخرين تقام لهم احتفالات سنوية وهذا ما يدعم تشبث القبيلة بهذه العادة القديمة التي تتناسب مع إكرام الولي بالدرجة الأولى مع وجود نية للمشاركين في رفع البلاء الذي يتيحه تقديم الصدقات تطبيقا للمثل الشعبي المعروف " الصدقة تدفع البلاء " إضافة إلى الدعوات التي غالبا ما تختتم بها الاحتفالات. ويكون للولي الفضل في تلبية هذه الدعوات حسب بعض المشاركين

وتصبوا أفئدة الكثير من الناس إلى الوعدة كمكان لالتقاء الأقارب والدواوير مما يؤدي إلى إعادة إحياء التماسك القبلي ولو لفترة محدودة ولو على مستوى المخيلة الشعبية التي تهفو إلى النظام القبلي الذي كان سائدا في وقت من الأوقات والذي اندثر بسبب اضمحلال بناه الاقتصادية والاجتماعية. ويشكل هذا التماسك نوعا من الحماية للفرد ولو على المستوى الرمزي. وقد أكد 65% من المبحوثين بأنهم يقيمونها تقربا للولي على اعتبار أنه جدهم المشترك. وهم إنما يتبعون ما قام به أجدادهم خلال القرون السابقة. بذلك يقومون بتنظيمها في وقتها المحدد في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر الميلادي من كل سنة. كما أقره المنظمون الأوائل في سنة 1904.

2- تجديد العلاقة القرابية مع الولي من خلال تنظيم الاحتفالات.

تنظيم الاحتفالات في الأمكنة المخصصة لها وحسب المجالات التي تناسب مختلف الأنشطة. وعلى خلاف الوعدات في بعض مناطق الوطن تنصب الخيام حسب كل دوار ولا تخصص فيها خيام للأعيان ولا لرؤساء الدواوير بل يخصص كل دوار بعض الخيام لفائدة الضيوف. وما يستشف من هذه الوضعية أن جميع الأفراد سواسية لأنهم ينتمون إلى جد مشترك واحد وهو سيدي أحمد المجدوب ولذلك ينعدم التمايز الاجتماعي والتفاوت الطبقي داخل هذه الاحتفالات مما يعكس الانسجام بين جميع الأفراد لأنهم يعتبرون أنفسهم إخوة ينحدرون من نسل رجل واحد. ويحرص الجميع من خلال تنظيمهم للاحتفالات على مراعاة الأخلاق الحميدة التي تعد انعكاسا لتعاليم الدين الإسلامي حيث يمنع منعا باتا الاختلاط، وكل ما يؤدي إليه. ولذلك خصصت منطقة للنساء ولا يمكن للرجال أن يقتربوا منها. وهذا ما يعطي للاحتفالات ذلك الطابع الأخلاقي الذي يتوافق مع الطابع المقدس للنشاط الذي يقوم به الأفراد والذين يتوجهون به إلى الولي الصالح، هذا الأخير الذي جسد في حياته القيم الأخلاقية الرفيعة حيث تطابقت سلوكاته مع تعاليم الدين الإسلامي حسبما يرويه أحفاده الذين يقع عليهم احترامها. وهذا يجسد طاعتهم له بعد وفاته.

تأخذ الصدقة مدلولها الحقيقي في هذه الاحتفالات إذ تتمثل في صنع الطعام من قبل الأتباع ليقدم للوافدين ترحما على روح الولي الصالح. وفي هذا الشأن يقول الحسن البصري رحمه الله: " كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها إلا نفقة الرجل إذا دعا إخوانه، فإن الله سبحانه وتعالى يستحي أن يسأله عن ذلك".(6)

وعلى خلاف ما هو معهود في كثير من مناطق الوطن حيث تخصص أفخر الأطعمة في الوعدات إلى أصحاب المال والجاه، لا يقدم كطعام للوافدين على اختلاف درجاتهم وأوضاعهم الاجتماعية إلا الكسكسي مصحوبا بقطع اللحم مما يشكل نوعا من المساواة في الأكل بين جميع الأفراد بما فيهم الضيوف لأن هذا الطعام يعد طعاما مشتركا بين جميع فئات الشعب على اختلاف طبقاته ولاسيما بسطائه. ويقدم الأكل في شكل تراتبي الرجال الكبار،

الضيوف القادمين وأخيرا النساء والأطفال. وهذا ما يتوافق مع تراتبية الأسرة التقليدية تراتبية الزاوية التي ينتمي إليها أحفاد الولي الصالح ومعنى هذا أن الأحفاد ملزمون بإتباع العادات والتقاليد التي دأب الأجداد على إتباعها وبالتالي المحافظة من خلالها على ذلك الرباط المقدس الذي يربطهم بجدهم المشترك. وقد يصيب هذه التقاليد التغير غير أنه لا يمس الجوهر بل أن الكل يجمع على احترامها وتقديسها والعمل على إحيائها في وقتها المحدد من خلال القيام باحتفالات الوعدة وتجديد العلاقة التي تربط الأحفاد والأتباع بالجد المشترك.

ومن خلال ما تقدم من تحليل للمعطيات المتعلقة بهاتين النقطتين نخلص إلى القول بأن الفرضية الثانية قد تحققت إذ أن جميع الجداول توضح بشكل صريح بأن تنظيم الوعدة في تاريخها المحدد من قبل أحفاد الولي دون تردد وبانتظام يؤدي إلى تجديد العلاقة والحلف معه أو إلى تجديد العهد بفضل إعادة إنتاج هذه الطقوس التي ترمي إلى إعادة إنتاج ذلك الرباط المقدس الذي يربطهم به باستمرار. وقد صرح العديد من المبحوثين أنه يستحيل عليهم حتى مجرد التفكير في توقفها أو عدم المشاركة فيها.

ج- اختبار الفرضية الثالثة:

تغير الظروف لا يعيق بقاء واستمرار الوعدة.

يعتبر التغير حقيقة بيولوجية واجتماعية وتاريخية تصيب مختلف النظم والعلاقات الإنسانية في كل المجتمعات البشرية. ويمس هذا التغير الثقافة بشقيها المادي والمعنوي. يتغير الشق الأول بسرعة أكبر من الثاني ويرجع السبب في ذلك إلى أن الإنسان لا يقاوم تغير ظروفه المادية التي تحسن وضعيته المعيشية وتؤمن رفاهيته وسعادته، في حين أنه يكون شديد التزمت لكل تغير في الجانب المعنوي وهذا بسبب ما درج عليه من تربية وقيم وما تلقاه من تقاليد ومثل خلقية ودينية وما اكتسبه من عقائد ولذلك يقاوم كل المحاولات التي تهدف إلى تغير قيمه وأنظمته الاجتماعية. وتؤدي الرغبة في المحافظة على القديم إلى كبح سرعة التغير ولاسيما إذا كان هذا القديم عبارة عن تراث للأجداد الذي يعتبرهم الإنسان مصدر الحكمة. وقد تتدخل عوامل أخرى في عرقلة سيره كانخفاض المستوى التعليمي والاجتماعي إضافة

إلى العامل البيئي المتمثل في عزلة السكان وهذا ما يفسر تخلف الجانب المعنوي عن مواكبة العناصر المادية وينتج عن هذا الوضع عدم موائمة القيم القديمة مع الوضعية الجديدة. ويؤدي هذا إلى صراع القيم ويحسم بفوز إحدى القوتين ليترك المجال للقيم التي تعد أصلح وأنجع للجماعة لخدمة مصالحها. ولذلك تكتب الديمومة والاستمرار للعادات الأكثر إيجابية.

ومهما كانت درجة الانعزال لأي مجتمع فإنه معرض للتأثر بما يجري في العالم الذي يحيط به إذ أن عوامل التغير عديدة تعمل على التأثير في الظواهر الاجتماعية ومن ضمنها الوعدة التي أصبحت تتأثر بالعادات الجديدة سواء تعلق الأمر بالجانب المادي الأكثر عرضة للتغير وبدرجة أقل الجانب المعنوي حيث أن العديد من الناس يقرون بهذه التغيير (60% حسب الجدول رقم 27) وهذا يلاحظ في كثير من العادات التي أصبحت دخيلة على الوعدة. إذ حلت محل العادات القديمة إذ لا ينكر تأثير الأجيال في تعديل العادات حيث يسعى كل جيل إلى تصحيح ما يتناسب مع تطوره ومعارفه وبمرور الزمن تعدل هذه القيم وفق ما يتطلبه المجتمع ويرتضيه لخدمة النظام القائم. وليس معنى هذا أن كل القيم والعادات القديمة قابلة للتغير السريع بل أن العديد منها يحافظ على ديمومتها واستمرارها، وتستطيع أن تتكيف مع الأوضاع الجديدة. إذ تستطيع القوة الاجتماعية التي تبناها أن تكيف سلوكها في مواجهة ما يطرأ على المجتمع من تغيرات وتوافق بين عادات قديمة وعادات مستحدثة داخل الإطار الاجتماعي.

يتضمن التكيف تبدلات في العادات تتأتى نتيجة التعلم والتجربة الاجتماعية وتؤدي بالأفراد إلى المحافظة على بعض العادات التي يتلقونها من الجماعة التي ينتمون إليها. بذلك ينتهجون سلوكات وتصرفات ومواقف ويصدرون أحكامهم وفقا لها. وقد تكون للسلوكات أو العادات السابقة من القوة ما يمكنها من تجاوز كل تغير محتمل كما هو الحال بالنسبة لطقس الوعدة حيث أن الطقوس المتوارثة لم يمسها تغير كبير على الرغم من وجود عوامل عديدة للتغير. وقد حدا هذا الأمر بأكثر من 62,5% من أفراد العينة (الجدول رقم 28) إلى الإقرار بقوة الوعدة على التكيف مع الأوضاع الجديدة في حين أن نسبة 30% لا

ترى نفس الرأي ولعل هذا الموقف يستند إلى النظر إلى بعض التغيرات التي أصابت الجانب المادي والتي تبدو في نظرهم ذات أهمية بالغة

لتفسير استمرارية الوعدة وديمومتها يتبين أن هناك دوافع وراء هذا الوضع كتكريم الولي الصالح 75% حسب الجدول رقم 29 والامتثال لأوامر الزاوية التي لا يزال نفوذها قويا في أوساط الأحفاد والأتباع إذ يقر العديد منهم استحالة توقفها أو حتى مجرد التفكير في ذلك. وما يدعم هذا الموقف هو أن العديد من الناس (72% حسب الجدول رقم 30) يعتقدون جازمين أن هذا المعتقد الشعبي يتطابق مع تعاليم الدين الرسمي ويستشهدون في ذلك بما جاء من آيات تحث على الوفاء بالنذر في القرآن الكريم كما لا يرون أي فرق بين طقوسه وطقوس الدين. ولاسيما أن هناك عادات عديدة تحويها الوعدة كإطعام المساكين والإحسان إلى المعوزين وإصلاح ذات البين والاعتماد على المال الحلال لجلب الذبائح ومحبة أولياء الله الصالحين التي تنص عليها الكثير من الأحاديث النبوية وهي أمور مشتركة بين التدين الشعبي والدين وهذه الأسباب هي التي تؤدي إلى استمرار الوعدة (80% حسب الجدول رقم 32) في حين لا يرى توقفها إلا نسبة قليلة وربما يعود السبب لديهم في تفشي الآفات الاجتماعية وهو حكم قيمي وأخلاقي في أكثر منه حكم موضوعي وبهذا نخلص القول إلى أن التغيرات الجديدة تبقى غير ذات تأثير كبير على الجانب المعنوي. إذ أن جوهر العادات الموروثة يبقى محافظا على سماته وخصائصه. وبذلك تتمكن الوعدة من مقاومة مختلف التغيرات وتشكل إطارا تتحرك فيه العادات القديمة والجديدة لأنها تمثل مظهرا من مظاهر تقديس الولي الصالح سيدي أحمد المجدوب. وتعيد إنتاج تحالف القبيلة مع جدها الأكبر، وهذا ما يؤدي إلى استمراريتها وديمومتها على الرغم من التغير المستمر الذي يعرفه المجتمع في مختلف مجالاته.

إن تحقيق الفرضيات التي أشرنا إليها يصب في بوتقة الفرضية العامة التي تؤكد على أن الطابع الوثني للوعدة يبرز من خلال ممارسة طقوسها. وهذا ما توقفنا عليه من خلال معالجة أسئلة الاستمارة وتحليل البيانات وتفسيرها. وهذا ما يفضي إلى أن كل هذه الطقوس

والاحتفالات إنما تهدف إلى تأكيد الرابطة المقدسة مع الولي الصالح وتشكل إعادة إنتاج لها وتؤدي إلى نوع من الوثنية عن طريق إسناد كثير من الأمور إلى الجد المشترك وبذلك تعبر عن نوع من عبادة الأسلاف وبالتالي إلى عبادة الأولياء.

- مناقشة نتائج البحث

تعني مناقشة نتائج البحث:

أولا: مدى تطابق موضوع البحث مع محتوياته.

ثانيا: مدى تدخل المتغيرات الرائزة في التأثير على المتغيرات الرئيسية.

إن موضوع هذا البحث هو الوعدة في الغرب الجزائري، أصولها وتطورها – دراسة اجتماعية ثقافية. وقد تم الالتزام بدراسة هذا الموضوع حيث تم التطرق إلى أصول الظاهرة وأسباب وجودها وإلى مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها ووصفت وصفا دقيقا وتمت الإشارة إلى وظائفها داخل المجتمع بصفة عامة حيث أنها ظاهرة عامة تمس الغرب الجزائري بمدنه الكبرى وقراه على اختلاف مناطقها. وتم التوصل إلى نتائج نظرية بعد دراسة البعد النظري وكان لزاما مقارنتها مع الميدان وإجراء دراسة امبريقية تمثلت في دراسة معروف سيدي أحمد المجدوب. وقد اختيرت عينة عرضية من رواد هذه الوعدة. وتبين أن نتائج الدارسة الميدانية تطابقت مع المنطلقات الأساسية للبحث. وساهمت المتغيرات الرائزة في التأثير على المتغيرات الرئيسية التي تمت دراستها وقد بينا ذلك من خلال تفسير البيانات وانعكست آثارها على مستوى الجداول. وقد تم التوصل إلى نتائج يمكن أن تنطبق على كل وعدة تحمل نفس المميزات والخصائص.

ويظهر من خلال هذه النتائج التي أكدت صدق الفرضية العامة المتمثلة في الربط بين الطابع الوثني للوعدة وممارسة الطقوس تعكس تشبث نسبة كبيرة من الناس بها بفعل تدني المستوى التعليمي والوعي الديني حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار نسبة المثقفين وانعكاس مواقفهم على مستوى العينة. وعلى هذا الأساس، فإن نتائج البحث التي تم التوصل إليها تكون أكثر أهمية في المجتمعات التي تسيطر فيها الأمية ومستويات التعليم الدنيا على روادها.

ربما تتغير هذه النظرة إلى الوعدة لو ارتفعت المستويات التعليمية وتزايدت التأثيرات الثقافية وأصبح المجتمع أكثر عرضة لها وأقل انعزلا مما يؤدي إلى إضعاف الروابط المقدسة التي تربط الأحفاد بالجد الأكبر كما حدث في كثير من الوعدات حيث أصبحت مجرد تظاهرة ثقافية لا ترتبط بالولي الصالح إلا اسميا أو رمزيا.

أما فيما يتعلق باستمرار وديمومة هذا الطقس الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بعبادة الأولياء. فقد تساءل عنه ج. برك واندهش حينما رأى أن كل التلال على طريق " الخميس " شمالا ويمينا كانت مزدانة بأبنية بيضاء مكعبة ذات قباب في أسفلها رسوم لأولياء وأجداد[7]. إن هذا الاندهاش ما هو إلا تعبير عن عودة سلوكات تقليدية في غياب نماذج أخرى من التعبير الثقافي في كثير من المناطق الجزائرية ويضاف إلى هذا استخدام السلطة للتراث الشعبي والثقافة الشعبية من أجل خدمة مصالحها ولذلك تسهم الدولة عن طريق ممثليها على المستوى المركزي والمحلي في استمرارية هذا الطقس وديمومته لما له من أهمية في تدعيم إعادة انبعاث الدين التقليدي ونشره في الأوساط الشعبية بمختلف فئاتها ولاسيما في المناطق الريفية. وهي تتدخل في ذلك عن طريق الإمدادات المادية ومحاولة التأطير والإشراف والترويج لها بالوسائل السمعية البصرية وحتى المكتوبة وقد يستغل القائمون عليها في تدعيم بعض الفئات على مستوى السلطة عن طريق المساهمة في الحمالات الانتخابية.

وإذا عدنا إلى النتائج المتوصل إليها أدركنا استحالة توقف الوعدة نظرا لوجود اعتقاد سائد لدى الناس في كونهم ينتمون إلى جد واحد مشترك يتحتم على جميع طاعته واحترامه والعمل على إعادة إنتاج العلاقة القرابية عن طريق إحياء هذا الطقس بصفة منتظمة. كما أن هناك عوامل أخرى اجتماعية واقتصادية تعمل في هذا الاتجاه إذ بالإضافة إلى تشكيلها كمتنفس ثقافي مرة في السنة نظرا لانعدام وسائل الترفيه والتسلية فإنها تشكل موردا هاما وسوقا رائجة للتجار والسكان لا يمكن التغاضي عنها. وهذا ما يدعم استمرارها واستدامتها.

من خلال ما تقدم يتضح أن هناك تطابقا للموضوع مع محتوياته. ويتعزز هذا الطرح بما توصلت إليه الدراسة من نتائج تعكس توافق وانسجام وترابط البعد النظري للمشكلة مع بعدها الميداني

الهوامش:

[1] ريمون بدون، مرجع سابق، ص 78.

[2] سورة البقرة، آية 270.

[3] أنظر تعليق جدول رقم 02.

[4] مبارك بن محمد الميلي، " **الشرك ومظاهره** "، مرجع سابق، ص 198.

[5] نور الدين، طوالبي، " **الدين والطقوس والتغيرات** "، ص، 141.

[6] زكي مبارك، " **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق** "، الجزء الثاني، بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ص 161.

[7] نور الدين، طوالبي، المرجع السابق ذكره، ص 134.

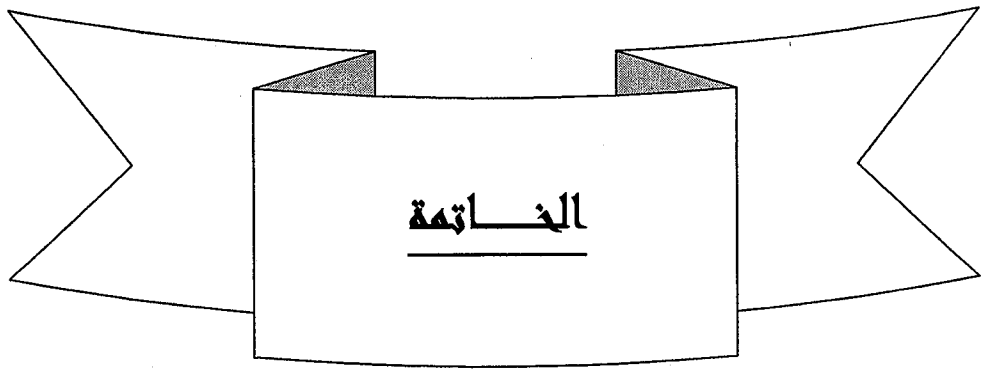
الخـــاتمة

الخاتمـــــة:

يتميز هذا البحث بكونه بحث وصفي، من خلاله جرت محاولة لوصف ظاهرة الوعدة وتحليلها وتحليل العوامل التي ساهمت في تكوينها على مر التاريخ من العهود التاريخية القديمة إلى غاية إعادة انبعاثها من جديد مع ظهور الطرق وعبادة الأولياء في القرن الخامس عشر الميلادي وإلى غاية اليوم. وقصد ربط البعد النظري بالبعد الميداني ومعرفة مدى تطابق البعدين فقد تم اختيار فرضية عامة تفرعت إلى ثلاث فرضيات فرعية. وكانت النتيجة أن الفرضيات صحيحة إلى حد كبير مما انعكس إيجابيا على الفرضية العامة وبالتالي أدى إلى توافق الجانبين. وقد ثبت أن ظاهرة الوعدة التي تعتبر معتقدا شعبيا تشكل أحد مظاهر التدين الشعبي والذي يتميز بالطابع الوثني من خلال ممارسة الطقوس التي تهدف في آخر المطاف إلى إعادة إنتاج ذلك الرباط المقدس بين الأحفاد والجد المشترك وهذا ما ستدل عليه مختلف السلوكات التي تتعاطاها الجماعة وتمارسها وتؤمن بها.

يمكن الإشارة إلى نتيجة استقيت من هذه الدراسة وهي التأكيد من قبل الأغلبية وبصفة قاطعة على ديمومة واستمرارية هذه الظاهرة على الرغم من وجود عوامل عديدة للإعاقة وهذه الآراء تعكس قاعدة هامة لتناقل التراث الشعبي شفويا من جيل إلى جيل والذي يتم وفق عملية ديناميكية تتسم بالحذف والإضافة الناتج عن الإبداع والتجدد وبفعل هذا التحول فإن ما يصل إلينا من الطقوس هو الجانب الإيجابي القادر على الاستمرار أما الجانب السلبي فإنه سرعان ما يعجز عن مقاومة التغير الدائم للظروف ولذلك يضمحل.

إن هذا الوضع يرتبط كذلك بإعادة بعث الإسلام التقليدي وما يتصل به من طرق وزوايا وقباب أضحت لا تخلو أي منطقة منها سواء تعلق الأمر بتشجيع من حاملي هذه المعتقدات أو بمباركة السلطة السياسية لإعادة انتشار هذه الأفكار التي تتناسب مع مصالحها بما توفره من ظروف لإعادة إنتاج المجتمع بكل تناقضاته أو ما تشكله من تغطية إديولوجية لأهداف النظام القائم.

ويشكل الدين الشعبي في هذا المجال الأساسي الذي ترتكز عليه السلطة في تدعيم مشروعيتها ولذلك تحرص على احتوائه وإعادة إنتاجه وديمومة طابعه المحافظ مع محاولة إيجاد التوافق مع إديولوجيتها والقيم الدينية الشعبية إذ حينما يركن الناس إلى المزارات والزوايا تتمكن في كثير من الحالات إلى استغلال الدين لمصلحتها وإخضاع الشعب وإلهائه باللجوء إلى الأولياء وإلى الأحياء كل ما يتعلق بالجانب التقليدي من الثقافة الشعبية وهو ما يؤمن استمرار النظرة التقليدية للوجود الاجتماعي وعدم تجاوز ما هو قائم. ويضاف إلى هذا سعي السلطة إلى تشجيع التعلق بالأولياء وإحياء التظاهرات الثقافية المتعلقة بهم لتستخدمها في تضليل بسطاء الناس وتزييف وعيهم ولذلك تعمل على إحياء الممارسات والطقوس والمعتقدات التي تبعد الناس عن قضاياهم وهمومهم وتؤمن للنظام القائم استمراره

ومن الأهمية بمكان القول أن العادات والتقاليد تكون أكثر رسوخا في عقول الأفراد مما يؤدي بهم إلى مقاومة العادات الجديدة ويتم هذا كلما حمل الأفراد مستويات دنيا من التعليم والتوعية الدينية والعكس صحيح. وقد لا حظنا هذا من خلال الدراسة ومعايشتنا لمختلف الوعدات على مستوى الغرب الجزائري.

لا شك أن العلم بناء متكامل إذ يضيف كل باحث لبنة جديدة إلى هذا البناء من خلال ما يتوصل إليه من معارف جديدة تثري صرح المعرفة الإنسانية. ونعتقد أن هذا البحث قد أضاف لبنة متواضعة. غير أن ثمة حاجة ماسة إلى مزيد من البحث والاستقصاء حول موضوع الوعدة. وهناك كثير من الأسئلة التي تتطلب إجابة ومثلها: كيف يستغل طقس الوعدة سياسيا؟ أو بصفة أعم كيف تستخدم الطقوس والمعتقدات الشعبية سياسيا؟

إن إجراء دراسات مستفيضة حول عناصر الثقافة الشعبية من شأنه أن يشكل محاولة لاكتشاف خباياها قبل اضمحلال العديد منها لأن عوامل التغير كفيلة بالإسراع باندثارها. وما تطرقنا إلى هذا الموضوع إلى نوع من هذا الاهتمام الذي نتمنى أن يشكل أرضية لدراسات مستقبلية تصب في محاولة إلقاء الضوء على كثير من الطقوس والمعتقدات

التي تحتويها ثقافتنا الشعبية وتراثنا الشعبي الذي لا زالت خباياه ومكنوناته لم تعرف كلها بعد.

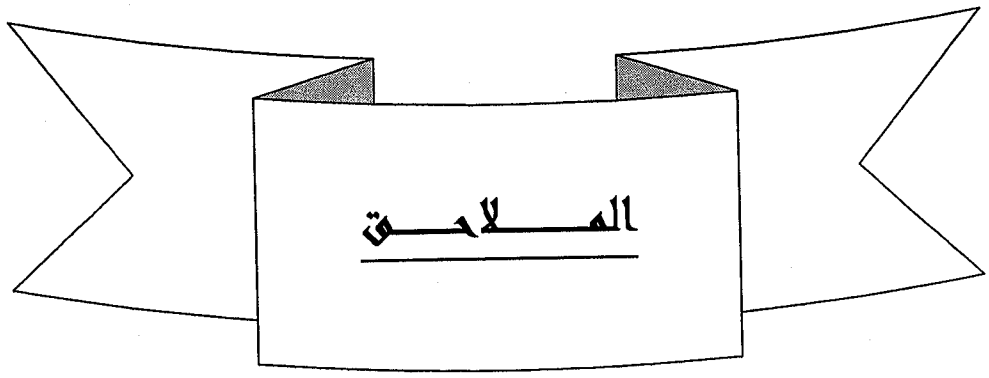
الملاحق

الملحق رقم: **01**

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم الثقافة الشعبية

استمارة بحث ميداني

الوعدة في الغرب الجزائري، أصولها وتطورها

دراسة اجتماعية وثقافية

الطالب: بن أحمد أحمد

إشراف: الأستاذ الدكتور سنايسي عكاشة

المعلومات الواردة في هذه الاستمارة سرية ولن تستخدم إلا لإغراض البحث العلمي

الملحق رقم: 01

بيانات الشخصية

1- السن:

2- المهنة:

عامل ☐ موظف ☐ فلاح ☐ موال ☐ تاجر ☐ بدون مهنة ☐

3- المستوى التعليمي:

أمي ☐ ابتدائي ☐ متوسط ☐ ثانوي ☐ جامعي ☐

أ- المؤشر الأول: الاعتقاد في الولي من خلال الطقوس.

4- ما نوع العلاقة التي تربطك بالولي الصالح؟

علاقة نسب ☐ ولاء ☐ وفاء ☐ أخرى ☐

5- هل تقدم الزيارة والصدقة للولي؟

نعم ☐ لا ☐

6- ما سبب مشاركتك في الوعدة؟

إكرام الولي ☐ الوفاء بالنذر ☐ عادة قديمة ☐ في إطار الدوار ☐

7- هل تعتقد أن الولي يقبل النذر ؟ نعم ☐ لا ☐

- هل وقعت وقائع تثبت هذا الاعتقاد؟ نعم ☐ لا ☐

8- حينما يتحقق طلبك هل تفي بالنذر؟ نعم ☐ لا ☐

9- هل تعتقد أن الولي يضر الآثم؟ نعم ☐ لا ☐

- هل تعتقد أن الولي ينفع المطيع؟ نعم ☐ لا ☐

- هل يخاف الناس من انتقام الولي؟ نعم ☐ لا ☐

10- هل تشعر بخوف ورهبة من الولي؟ نعم ☐ لا ☐

11- هل يخفف الاحتفال من قلقك؟ نعم ☐ لا ☐

12- هل تشعر أن دعواتك تلبى؟ نعم ☐ لا ☐

13- كيف يكون رد فعلك بعد الاستجابة لدعائك؟

شكر الشيخ ☐ تقديم الصدقة ☐ زيارة الضريح ☐

14- هل يتم الدعاء بجاه الولي؟ نعم ☐ لا ☐

15- هل تعتقد أن الدعاء في مكان الاحتفال مستجاب نعم ☐ لا ☐

ب- المؤشر الثاني: الوعدة كتجديد للحلف مع الولي.

16 هل تشارك في الوعدة؟ بصفة دائمة ☐ متقطعة ☐

17- لماذا تشارك في الوعدة؟

للحج والزيارة ☐ حل المشاكل ☐ الولاء للجد ☐

18- لماذا يقام الاحتفال حسب رأيك؟

من أجل الاستسقاء ☐ رفع البلاء ☐ إكرام الولي ☐ زيادة الغلة ☐

19- هل تنصب خيام خاصة لفائدة الأعيان؟ نعم ☐ لا ☐

20- هل هناك فصل بين النساء والرجال في الاحتفال؟ نعم ☐ لا ☐

21- ما نوع الذبائح في الوعدة؟

أغنام ☐ ماعز ☐ أبقار ☐ جمال ☐

22- ما هي نوعية الأطعمة التي تقدم؟

كسكسي ☐ مشوي ☐ أغذية أخرى ☐

23- هل يوزع الطعام حسب الفئات؟ كبار، شباب، نساء وأطفال نعم ☐ لا ☐

24- ماذا تمثل الوعدة بالنسبة إليك؟

التقاء الأقارب ☐ تماسك قبلي ☐ التقاء الدواوير ☐ التقاء القبائل ☐

25- هل تشكل الوعدة فرصة لحل المشاكل؟

بين الأفراد ☐ الدواوير ☐

26- ما هو سبب تمسك الناس بالوعدة؟

إكرام الولي ☐ الانتماء إلى الزاوية ☐ عادة قديمة ☐

27- هل تعتقد أن العادات الجديدة تؤثر على الوعدة؟ نعم ☐ لا ☐

28- هل تتكيف الوعدة مع هذه العادات؟ نعم ☐ لا ☐

29- بماذا تفسر بقاء الوعدة واستمرارها؟

المحافظة على إحيائها إكراما للولي ☐ التبرك به باعتباره مؤسس الزاوية ☐

امتثالا لأمر الزاوية ☐

30- هل تعتقد أن الوعدة تتطابق مع الدين نعم ☐ لا ☐

31- كيف هي صفة المال المنفق؟ حلال ☐ حرام ☐

33- هل تتخيل انقطاع الوعدة أو توقفها؟ نعم ☐ لا ☐

33 - إذا كانت الإجابة بالنفي ما هو السبب في نظرك؟.....

الملحق رقم: 02

أبناء وأحفاد سيدي أحمد المجدوب

1- سيدي سليمان بن المجدوب – جد فرقة أولاد سيدي لحسين.

2- سيدي التومي وأبناءه هم:

أ- سيدي محمد مقران، سيدي لعنتري، سيدي بوزار. ويشكل هؤلاء الثلاثة وأحفادهم فرقة أولاد سيدي مقران.

ب- ابن سيدي التومي الرابع هو سيدي بولنوار ترجع له كل بقية الفرق " الأفخاذ " المكونة لقبيلة سيدي أحمد المجدوب.

وتتوزع كالتالي:

سيدي أحمد بولنوار، أبناؤه هم أولاد سيدي محمد

أولاد سيدي الشيخ.

أولاد سيدي بوبكر.

أولاد سيدي الماحي.

أولاد سيدي بن عيسى – أولاد سيدي لحسن.

أولاد محمد بن بولنوار يشكلون فرقة أولاد سيدي بن عبد الله.

إلى جانب هذه الفرق لا زالت هناك فرقة تدعى أهل عسلة وهي من المكونات البشرية لبلدية عسلة ونفس الشيء ينسحب على سكان حمام "ورقة " وهم من أهل شريف ويعرفون بالشرفاء ويمتد نسبهم إلى السيد على بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وبذلك تصبح التركيبة البشرية لبلدية عسلة ودائرتها كالتالي:

أولاد سيدي لحسين

- أولاد سيدي مقران
-أولاد سيدي بن عبد الله
- أولاد سيدي محمد
- أولاد سيدي الماحي.
- أولاد سيدي بوبكر.
- أولاد سيدي الشيخ.
- أولاد سيدي لحسن.
- الشرفاء

لجنة وعدة سيدي أحمد المجدوب أكتوبر 1994

الملحق رقم: 03

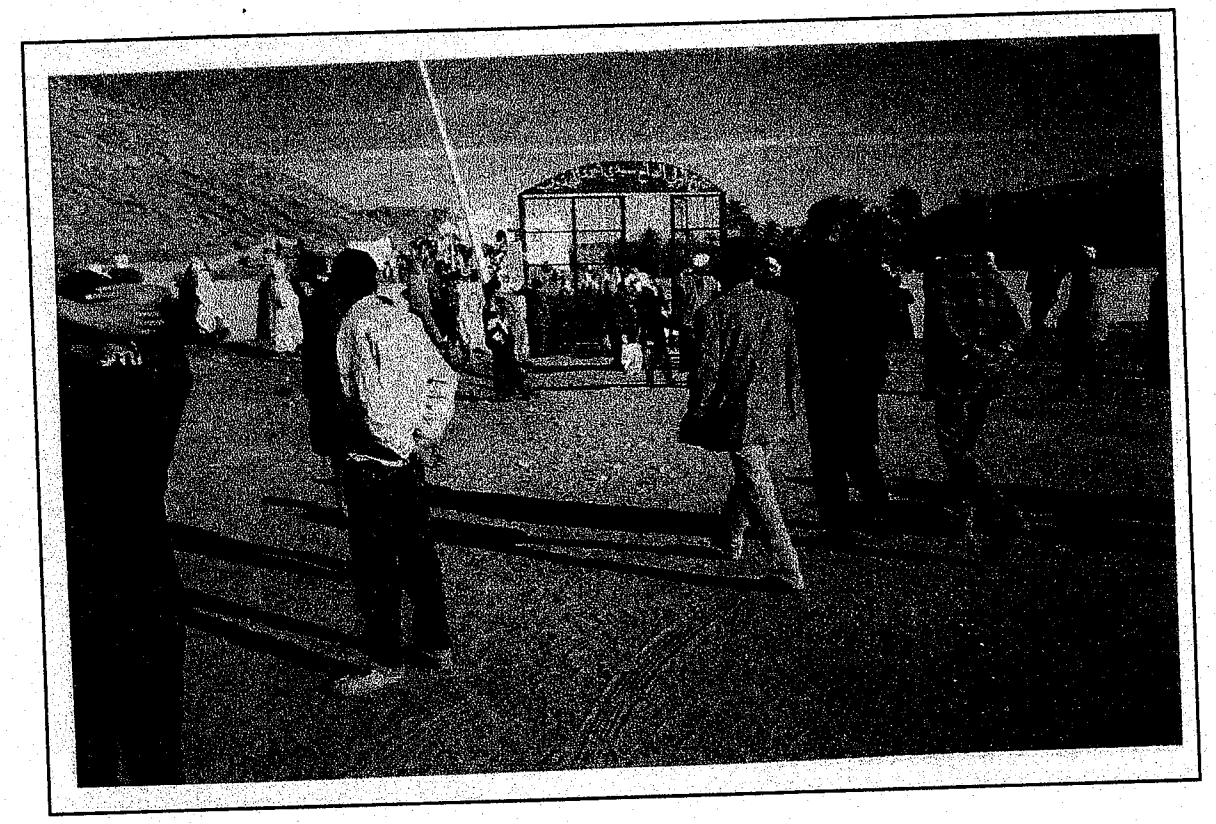

ضريح وزاوي سيدي أحمد المجدوب - بلدية عسلة -

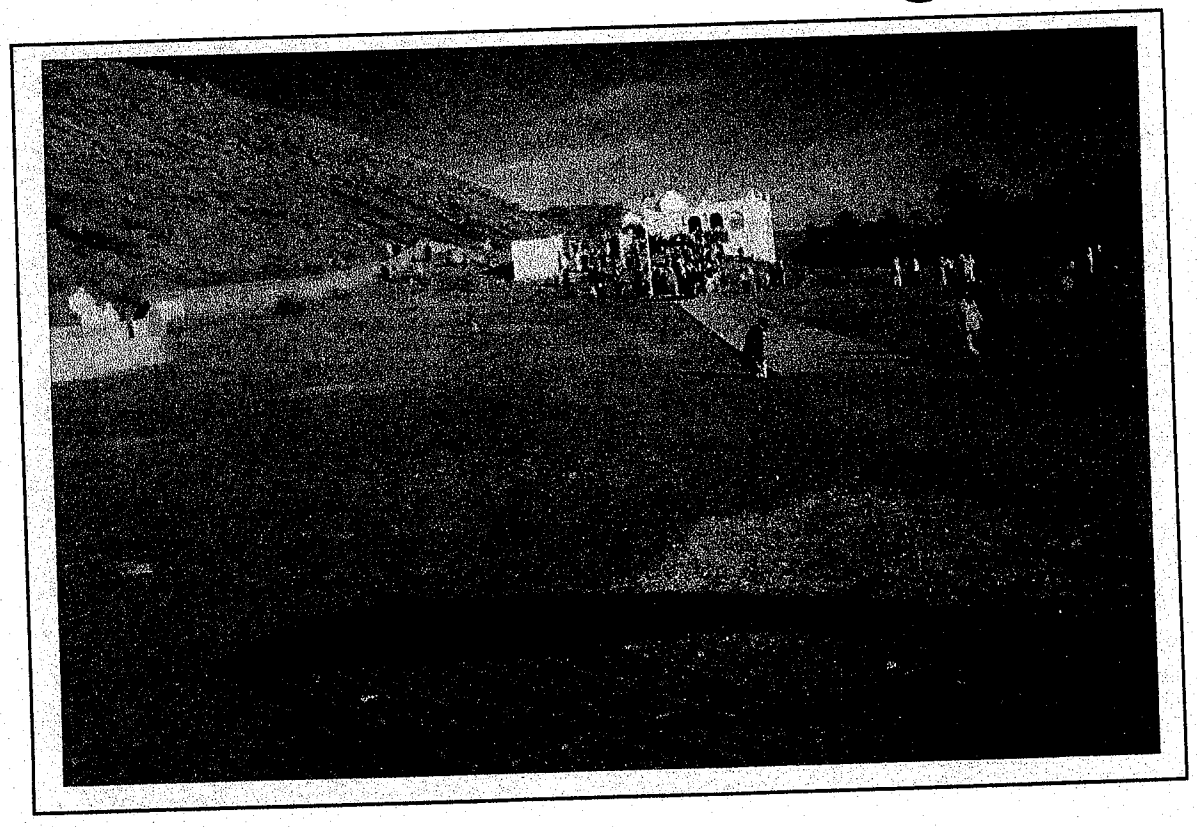

الملحق رقم: 04

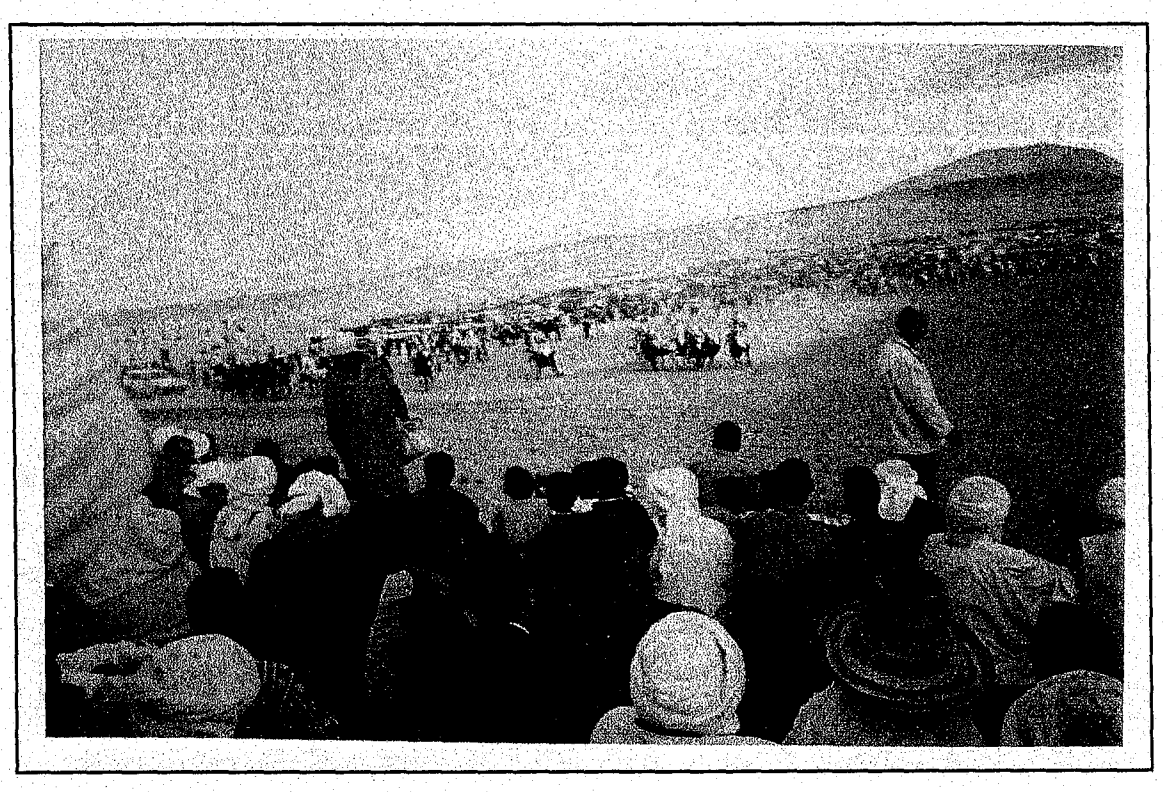

منظـــر من الواحـــة

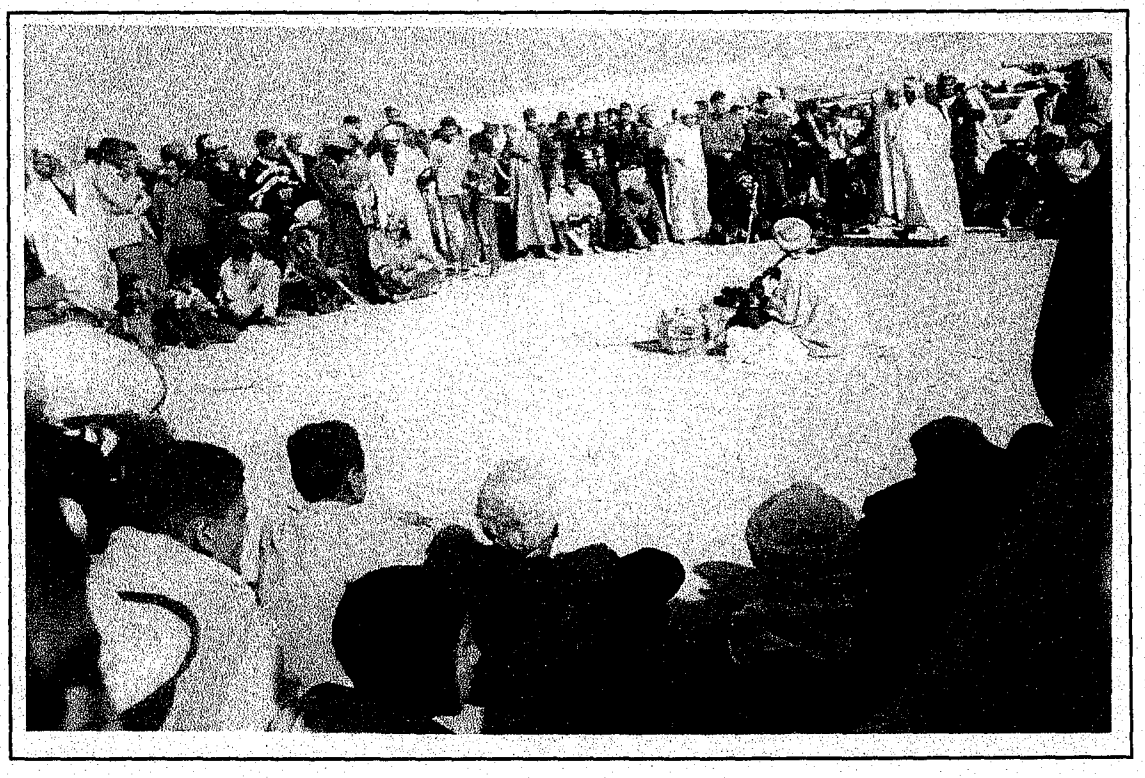

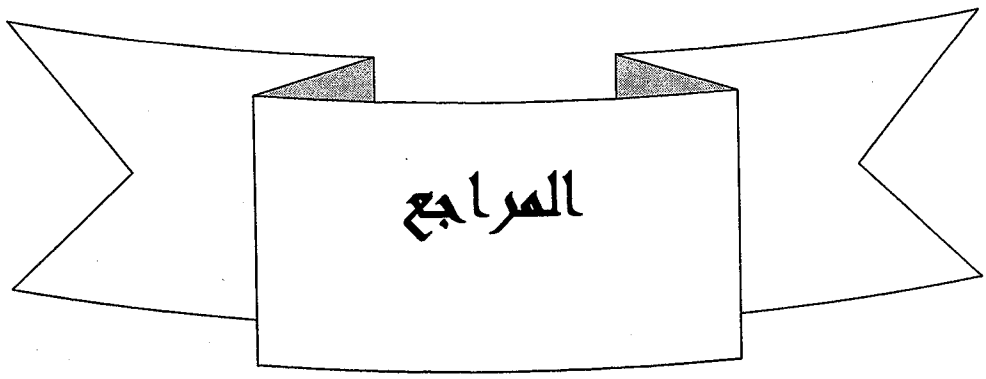
المراجع

المراجع باللغة العربية

[1] إبراهيم، عبد الوهاب. **أسس البحث الاجتماعي**، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1985.

[2] آدم، متز. **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**. (ترجمة الهادي أبو ريدة). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

[3] أبو شقة، عبد الحليم أحمد. **حول أزمة خلق المسلم المعاصر**". تونس: الزيتونة للإعلام والنشر، 1989.

[4] أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي – **رياض الصالحين**. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980.

[5] أبو فارس، محمد عبد القادر. **الإيمان والنذور**، باتنة: دار الشهاب، 1991.

[6] الأخضر لطيفة. **الإسلام الطرقي**، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية. تونس: سراس للنشر، بدون تاريخ

[7] الأشرف، مصطفى. **الجزائر الأمة والمجتمع**، (ترجمة حنفي بن عيسى)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.

[8] البيومي، محمد أحمد. **علم الاجتماع** دار الجامعية، القاهرة، بدون تاريخ.

[9] الحوراني يوسف. **الإنسان والحضارة مدخل ودراسة**، الطبعة الثانية بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1973.

[10] الخشاب أحمد. " **التغير الاجتماعي** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1971.

[11] الخشاب، مصطفى. **علم الاجتماع ومدارسه، المدخل إلى علم الاجتماع**. الكتاب الثاني، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية 1998.

[12] الجوهري، محمد وآخرون. **علم الفولكلور**، دراسة في الأنتروبولوجيا الثقافية، ط1، القاهرة: دار المعارف، 1975.

[13] الجوهري، محمد. **علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث**، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف، 1985.

[14] الخطيب، أحمد. " **جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

[15] الخواجة، محمد ياسر " **البحث الاجتماعي، أسس منهجية وتطبيقات عملية**، دار المصطفى للطباعة والكمبيوتر، الطبعة الأولى 2001.

[16] الخوري، بولس، سيور البولسي، **عوائد العرب**، بيروت: دار الرائد العربي، 1983

[17] السويدي، محمد. **محاضرات في الثقافة والمجتمع**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1985.

[18] العمايرة، محمد حسن. **أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية**، الطبعة الأولى، عمان دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 1999.

[19] ألفرد بل. **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**، ترجمة (عبد الرحمان بدوي) بيروت دار الغرب الإسلامي: 1981.

[20] الناضوري رشيد. **المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي لجنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا**. الكتاب الثالث: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت، دار النهضة العربية بدون تاريخ.

[21] النجيحي، محمد لبيب. **الأسس والحياة الاجتماعية في مصر**، القاهرة: 1980.

[22] أمين، أحمد. **قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية**، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1953.

[23] أمين، أحمد. **ضحى الإسلام**، الجزء الرابع، الطبعة الثالثة القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1962.

[24] أمين، أحمد. **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، بيروت: دار الكتاب العربي.

[25] بث هين وآخرون. " **علم الاجتماع**. (ترجمة محمد مصطفى الشعبيني)، السعودية، دار المريخ 1989.

[26] بركات، حليم. " **المجتمع العربي المعاصر** "، بحث استطلاعي اجتماعي الطبعة الثالثة، دراسات الوحدة، 1986.

[27] بدران إبراهيم، سلوى الخماش. " **دراسات في العقلية العربية الخرافية**، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الحقيقة.

[28] بليق، عز الدين. **منهاج الصالحين**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، 1978.

[29] بن نعمان، أحمد. " **نفسية الشعب الجزائري**، دراسة علمية في الأنتروبولوجيا. دار الأمة، 1994.

[30] بودون ريمون. **منهج علم الاجتماع** (ترجمة: هالة شيبون الحاج) "، الطبعة الأولى، بيروت: منشورات عويدات، 1972.

[31] ر. بودون وف. بوريكو **المعجم النقدي لعلم الاجتماع** (ترجمة سليم حداد) الطبعة الأولى، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 321.

[32] بورايو، عبد الحميد. **القصص الشعبي في منطقة بسكرة**، دراسة ميدانية. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

[33] ثابت، ناصر. **دراسات في علم الاجتماع التربوي**. الطبعة الأولى، الكويت: مكتبة الفلاح، 1990.

[34] حلمي عبد القادر علي. **جغرافية الجزائر، طبيعية، بشرية، اقتصادية،** الطبعة الثانية دمشق: مطبعة الإنشاء، 1968.

[35] جاد الله، منال عبد المنعم. **التصوف في مصر والمغرب،** الإسكندرية: منشأة المعارف بدون تاريخ.

[36] جودت، عبد الكريم يوسف. " **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرباع الهجريين (10/09م)** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

[37] زكي، مبارك. **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق،** الجزء الثاني، بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

[38] زكي، كمال أحمد. **الأساطير،** دراسة حضارية مقارنة، الطبعة الثانية، بيروت: دار العودة، 1979.

[39] دياب، فوزية. **القيم والعادات الاجتماعية مع بحث ميداني** بيروت: دار النهضة العربية 1980.

[40] سابق، السيد. **فقه السنة،** المجلد الأول، بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

[41] سابق، السيد " **فقه السنة** "، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة بيروت دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

[42] سعد الله، أبو القاسم. " **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (20/16م)،** الجزء الأول، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

[43] سعيدوني، ناصر الدين. **العوامل المتحكمة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني،** الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982.

[44] سمير نعيم أحمد. **الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي ومقالات في المشكلات الاجتماعية والانحراف الاجتماعي**، القاهرة: مكتب سيعد رأفت، بدون تاريخ.

[45] سيجمند، فرويد. **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي**، (ترجمة: أحمد عزت راجح)، مكتبة مصر، الفجالة، بدون تاريخ.

[46] طوالبي نور الدين. **الدين والطقوس والتغيرات**. (ترجمة وجيه البعيني) بيروت: منشورات عويدات، 1988.

[47] طوالبي، نور الدين. **في إشكالية المقدس أو تحولات التغير الاجتماعي السيكولوجية**، (ترجمة: وجيه البعيني) بيروت، : منشورات عويدات 1988.

[48] عبد الباسط، محمد حسن. **أصول البحث الاجتماعي** مكتبة وهبه 1976.

[49] غالي شكري، "**العرب بين الدين والسياسة** "، مقال من كتاب (الإسلام والسياسة) الجزائر، دار موقم للنشر.

[50] فيلالي، مختار بن الطاهر. **نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني**، الطبعة الأولى، باتنة: دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر، 1976.

[51] فيلالي، مختار بن الطاهر. **رحلة الورتلاني**، عرض ودراسة، باتنة: دار الشهاب، بدون تاريخ.

[52] مبارك، بن محمد الميلي. **رسالة الشرك ومظاهره**، الطبعة الثالثة، قسنطينة، دار البعث للطباعة والنشر 1982.

[53] مبارك، بن محمد الميلي. **تاريخ الجزائر القديم والحديث**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976.

[54] نور الدين، عبد القادر. **القول المأثور من كلام عبد الرحمان المجدوب**، الجزائر: مطبعة رودسي قدور.

[55] مختار، محي الدين. **محاضرات في علم النفس الاجتماعي**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، بدون تاريخ.

مراجع باللغة الأجنبية

[1] ADDI, LAHOUARI " De l'Algérie précoloniale à l'Algérie colonial, Economie et Société ", Alger : ENAL, 1985

[2] ATTALAH, DHINA, "LES ETATS DE L'OCCICDENT MUSULMAN AU XIII, XIV ET XV SIECLES " Alger: ENAL.

[3] BEAUD, MICHEL. "L'ART DE LA THESE " Alger: EDITIONS CASBAH, 1999.

[4] BOURDIEU PIERRE, "SOCIOLOGIE DE L'ALGERIE", 3ème édition "Que sais-je ? " Puf, 1970 P 102.

[5] CHARLES-ROBERT, AGERON " LES ALGERIENS MUSULMANS ET LA FRANCE (1871-1919)" Tome II PUF P 2.

[6] CHEIKH, SI HAMZA BOUBEKEUR "UN SOUFI ALGERIEN SIDI CHEIKH " Paris 1990.

[7] CHEIKH, BOUAMRANE ET LOUIS GARDET, " PANORAMA DE LA PENSEE ISLAMIQUE " Paris, 1984

[8] DUVIGAUD. J. " LE DON DU RIEN " Essai d'anthropologie de la fête. Edition STOCK France, 1977.

[9] VILLOT, (ancien chef du Bureau Arabe). "MŒURS, COTUMES ET INSTITUTIONS DES INDIGENES DE L'ALGERIE ", 3ème édition, Librairie ADOLPHE JOURDAN 1888.

المجلات باللغة العربية

[1] بن نعمان أحمد. " **العلاقة الوظيفية بين الدين الإسلامي واللغة العربية** "، مجلة الثقافة، العدد (45) – يونيو – يلويو 1978.

[2] رأس مال، عبد العزيز. " **المعروف المحدد بالمجال، الخصائص والصيرورة** "، المركز الوطني لبحوث ما قبل التاريخ والأنتروبولوجيا والتاريخ، الجزائر في 2001/01/04.

[3] زعيمي مراد، " **التكامل المنهجي للبحث** " مجلة دراسات في المنهجية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

[4] سعيدي، محمد، " **من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية، ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا** "، وهران: مركز البحوث الانتروبولوجي والاجتماعية، جوان 1995.

[5] سفاري ميلود: " **الإشكالية في العلوم الاجتماعية** "، مجلة العلوم الاجتماعية، قسنطينة: جامعة منتوري، 1 999.

[6] عيلان محمد " **الفنون الشعبية الجزائرية، واقع وآفاق** "، مجلة التواصل، العدد 06، جامعة عنابة، جوان 2000.

[7] كنونة مسعود، " **ملاحظات حول الاستخدام الميداني لبعض تقنيات البحث السوسيولوجي**"، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة: 1999.

المجلات باللغة الأجنبية

[1] ACHILLE, ROBERT, " Jeux et divertissements des indigènes d'Algérie (Région de Bordj Bouarreridj) " Revue .Africaine Année 1921 N°62 Alger: OPU 1986

[2] ARRIPE H.J "ESSAI SUR LE FOLKLORE DE LA COMMUNE MIXTE DE L'AURES " Revue .Africaine N° 55 Année 1911 Alger OPU 1986.

[3] BEL ALFRED : " L'ISLAM MYSTIQUE " Revue Africaine N° 69 ANNEE 1928. Alger : OPU 1986.

[4] BIAR NAY " ETUDE SUR LES BETTIOUA DU VIEIL ARZEW " Revue Africaine Année 1911 Alger: OPU 1986.

[5] R,A 1906 DESTAING, EDMOND "FETES ET COUTUMES SAISONNIERES CHEZ LES BENI-SENOUS" Revu Africaine 1906 Alger OPU 1986

[6] DOUTTE E : " NOTES SUR L'ISLAM MAGHREBIN LES MARABOUTS " Extrait Revue de l'histoire des religions – Paris 1900

[7] GOGNALOUS L. "FETES PRINCIPALES D'OURGLA ", Revue Africaine N° 53 Année 1909 – ALGER OPU. 1986.

الرسائل الجامعية

[1] بلعربي خالد، " **ظاهرة زيارة الأولياء في المجتمع الجزائري** "، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان 2000.

[2] بن أحمد أحمد: " **ظاهرة الوعدة، تطورها وخصائصها الاجتماعية والثقافية وعدة سيدي يحي بصبرة نموذجا.** " رسالة ماجستير. معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1996،.

[3] حسنين، نعيمة عبد الله " **التغير الاجتماعي والتباين القيمي في المجتمع القيمي** "، دراسة ميدانية لعينة من سكان مدينة الدولة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 1994.

[4] عبد العزيز، سعاد محمد " **ظاهرة الاعتقاد في السحر في المجتمع المصري**"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس القاهرة، 1982.

[5] ، العيد مسعود سعيد " **المجتمع الجزائري في العهد العثماني** " رسالة ماجستير في التاريخ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة.

الجرائد اليومية والأسبوعية

[1] خزار، أ/ع " **جذور الحركة التنصيرية في الجزائر** "، الشروق الثقافي العدد: 06 من 1993/07/23 إلى 1993/08/04

[2] طواهرية، محمد " **موسم الحج إلى رقان** " الخبر اليومي، العدد (2853) المؤرخ في: 2000/07/15.

[3] بلفضال سليمان، " **الأبيض سيدي الشيخ، محطة لاستحضار ومواقف الجهاد والقداسة** "، جريدة الرأي، العدد 970 بتاريخ 2001/07/05.

[4] بن بريك ع،" **بركة سيدي الهواري** "، المجاهد، عدد 1488 المؤرخ في: 1988/07/15.

[5] بوغرارة، محمد " **وعدة سيدي محمد بن عودة،** " موعد سنوي للفرحة والكرم والتراث"، الخبر اليومي، العدد 2972 المؤرخ في 2001/09/21.

[6] بن عماره، خليفة، " **البوبكرية، تاريخ ومسيرة الصالحين: سيدي أحمد المجذوب وأبيه سيدي سليمان** "، (ترجمة قندوسي محمد) غير منشور

[7] لجنة وعدة سيدي أحمد المجدوب " **تقرير حول تنظمي الوعدة** " عسلة، أكتوبر 1994، غير منشور.

فهرس الجداول

جدول رقم : 1 توزيع السن حسب العينة 187
جدول رقم : 2 يبين مهنة أفراد العينة 188
جدول رقم : 3 يبين المستوى التعليمي لإفراد العينة 189
جدول رقم : 4 يبين نوع العلاقة التي تربط بالولي 190
جدول رقم : 5 يبين تقديم الزيارة والصدقة للولي 191
جدول رقم : 6 يبين هدف المشاركة في الوعدة 191
جدول رقم : 7 يبين قبول النذر من قبل الولي..... 192
جدول رقم : 8 يبين الوفاء بالنذر. 193
جدول رقم : 9 يبين الاعتقاد في نفع وضرر وانتقام الولي..... 194
جدول رقم : 10 يبين الشعور بالخوف اتجاه الولي 196
جدول رقم : 11 يبين أثر الاحتفال على الاستقرار النفسي..... 197
جدول رقم : 12 يبين الشعور بتلبية الدعاء 197
جدول رقم : 13 يبين رد الفعل بعد الاستجابة للدعاء..... 198
جدول رقم : 14 يبين كيفية الدعاء..... 199
جدول رقم : 15 يبين علاقة مكان الاحتفال بالدعاء 199
جدول رقم : 16 يبين صفة المشاركة في الوعدة 200
جدول رقم : 17 يبين سبب المشاركة في الاحتفالات 201
جدول رقم : 18 يبين سبب القيام بالاحتفال 202
جدول رقم : 19 يبين كيفية تنظيم الخيام 203
جدول رقم : 20 يبين تنظيم الاحتفال..... 203

جدول رقم : 21 يبين نوعية الذبائح 204
جدول رقم : 22 يبين نوعية الأطعمة المستهلكة في الوعدة..... 205
جدول رقم : 23 يبين تنظيم الأكل في الاحتفال..... 205
جدول رقم : 24 يبين أهمية الوعدة بالنسبة للمشارك 206
جدول رقم : 25 يبين دور الوعدة في حل المشاكل..... 207
جدول رقم : 26 يبين أسباب تمسك الناس بالوعدة 208
جدول رقم : 27 يبين تأثير العادات الجديدة على الوعدة..... 209
جدول رقم : 28 يبين تكيف الوعدة مع العادات الجديدة 210
جدول رقم : 29 يبين سبب استمرار الوعدة..... 211
جدول رقم : 30 يبين مدى تطابق الوعدة مع الدين..... 212
جدول رقم : 31 يبين صفة المال المخصص لشراء الذبائح..... 213
جدول رقم : 32 يبين استمرار الوعدة أو توقفها 214

ملخص رسالة باللغة العربية

يتفق العديد من الباحثين والمؤرخين على اعتبار عبادة الأولياء بقايا وثنية برزت من جديد مع ظهور المرابطين والطرق الصوفية، وانعكست من خلال طقوس النذور (الوعدات) التي تحمل في طياتها هذه البقايا التي قاومت مختلف التغيرات التي عرفها المجتمع الجزائري عبر مختلف مراحله التاريخية.

تضرب الوعدة بجذورها في أعماق التاريخ وقد نتجت كظاهرة من عبادة السكان المحلين القدماء وطعمت وتأثرت بمختلف الحضارات الوثنية القديمة التي وفدت على الجزائر (القرطاجين، الفينيقيين، الرومان،...إلخ). ورغم أن الجزائر خضعت للدين المسيحي ثم بعد ذلك للدين الإسلامي طوال قرون طويلة، فإن سكانها حافظوا على عقائدهم الأولى ولم يطهروا عاداتهم وتقاليدهم من الوثنية.

يدعم رجال الدين الرسمي (الفقهاء) القدماء والمحدثون هذا المسعى بتأكيدهم على الطابع الوثني والشركي للنذر الذي يقدم لمخلوق والذي يجب عدم الإقدام عليه والوفاء به حسبهم.

أما التدين الشعبي فإنه يؤكد على أن تقديس هؤلاء الأولياء واحترامهم إنما ينبع من صميم الدين الإسلامي ويتطابق مع ما يدعو إليه الكتاب والسنة وبذلك يتم اتخاذهم كوسطاء مع الله نظرا لكراماتهم. وتعمل الجماهير الشعبية على تعايش الطقسين: الديني وشبه الديني في إطار الدين الإسلامي، وهي لا ترى أي تناقض بينهما.

إن هذا الأمر يجرنا إلى دراسة: الوعدة في الغرب الجزائري أصولها، وتطورها، دراسة اجتماعية وثقافية ويتطلب هذا الموضوع طرح إشكالية التالية:

ما هي أسباب استمرا الوثنية في الوعدة رغم معارة الدين الذي يعتنقه ممارسو هذا الطقس؟

تجيب هذه الرسالة بشقيها النظري (الدراسة التاريخية) والميداني (الدراسة الإحصائية والتحليلية) بفرضياتها المطروحة على هذا التساؤل. وتؤكد على أن الممارسة الطقوسية في احتفالات الوعدة تحمل في أحشائها بقايا وثنية تعود في أصلها إلى الحضارات الوثنية القديمة ولعل أبرز هذه الحضارات هي الحضارة الرومانية التي كانت تعتنق عادات الأسلاف تطابق في جوهرها احتفالات الوعدة في الجزائر.

Résumé de la Thèse en Français

La religion populaire produit ses propres rites qui s'adaptent avec les croyances populaires ce qui contraint l'individu à les respecter, malgré qu'ils s'imprègnent de survivances païennes. La Waada est un de ces rites qui a pu résister aux différents changements qu'a connu la société Algérienne et ce depuis le culte des anciens peuples d'Algérie influencé par les diverses invasions étrangères. On peut constater cette résistance qui persiste lors des célébrations des fêtes annuelles au profit des saints (imploration, sacrifice des moutons...etc).

Malgré la présence de l'islam depuis plusieurs siècles, il n'a pu mettre fin à cet aspect païen des traditions populaires. Cela est confirmé par plusieurs scientifiques tel que ***E. BERMINGHAME, Jaques BERQUE, E. DOUTTE*** ainsi que par les théologiens musulmans qui sont unanimes qu'aux origines de culte des saints et des fêtes qui s'y rattachent.

Contrairement à cette orientation, la religion populaire croit en ces saints qui sont vénères d'après elle par le Coran et la Suna, ce qui implique qu'il n' y a aucune contradiction entre la religion officielle et populaire et que cette dernière vit en conformité avec la première.

Pour mieux cerner ce phénomène, on a choisi d'étudier le sujet suivant : « La Waada dans l'ouest Algérien, origines et évolution, étude socio-éducative» on s'est basé sur la problématique suivante :

- Quelles sont les causes qui font que la Waada persiste malgré son aspect païen ?

L'étude théorique (Historique) et du terrain (Statistique) et (Analytique) ont permis de répondre à la question posée suivante : La réalisation des hypothèses avancées et confirme que la pratique des rites lors des festivités des Waada portent en elle des survivances païennes introduites par les civilisations anciennes notamment la civilisation Romaine qui a instauré le culte des ancêtres et qui présente des ressemblances frappantes avec la Waada et qui explique cette persistance païenne.

SUMARY OF THESIS IN INGLISH

The popular Religion has it own rites adapted to the general beliefs. However, the individual has the respect then although they are imbued with Pagan survival. One of these rites is with " Waada " wich is still celebrated in spite of the change our society has know and the civilization which have invaded Algeria.

This feast is celebrated once a year in the profit of saint, these traditions disappeared with the appearance of islam centuries ago. Scientist such as : E BIRMINGHAM, Jacques BERQUE, E. DOUTTE have confirmed that Islam coulidut put an end to this havent't pagan aspect of the tradition.

The popular religion believes in the saints venerated by the "Coran" and "Suna", this weans, here his no cant radiction between the official and popular religion we have chosen the following topic "Waada" in the west of Algeria to outline this phenomenon [origins evolution, socio-educative study, we ve been based on the following problematic : why does the "Waada" still persist ? in spirit of its pagan aspect ? to answer this questions may researches have been done heavy statistic, analysis] these pagan survivals have been introduced by the ancient civilizations especially the Roman one. "Waada" goes back the deep past, resulting a phenomenon fro the people's beliefs. At was influenced by the different civilizations going from Roman, Phoenicians....

الكلمات المفتاحية

تؤلف الكلمات المفتاحية لهذا الموضوع الموسوم:

الوعدة في الغرب الجزائري، دراسة اجتماعية وثقافية تركيبا متناسقا يسمح تحديده بدقة بالاختيار الأنسب للمنهج وللتقنيات التابعة له، مما يمكن الباحث من إجراء دراسة وفق ما تقتضيه مجريات الدراسة العلمية. ولعل أبرز هذه الكلمات هي كلمة " وعدة " التي تعد كلمة محورية يتردد صداها من بداية الدراسة إلى نهايتها في شقيها النظري والميداني وذلك لأن تعريف المصطلح بدقة ينير الطريق الذي سيسلكه الباحث عند تناوله لموضوعه.

إن هذه الظاهرة لا يمكن فهمها إلا من خلال الحيز الجغرافي الذي درست فيه. وتعبر كلمة الغرب الجزائري عن هذا الانشغال بتحديدها للإطار المكاني. ويكتمل هذا البعد بالبعد الزماني وهو الذي يسمح بتتبع الظاهرة في سياقها التاريخي لمعرفة العوامل التي أثرت في رحلتها الطويلة وهو ما تؤمنه كلمتا الأصول والتطور حيث ترميان إلى معرفة ظروف النشأة والتطور والمسار والنتائج.

ولعل ما يربط بين هذه المكونات هو الدراسة التي يكفلها البعدان الاجتماعي والثقافي أي السياق الاجتماعي والثقافي للمجتمع الذي نشأت وتطورت فيه الظاهرة المدروسة.

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
مكتبة الكلية

الفهرس

الموضوع: الصفحة:

الإهداء

كلمة شكر واعتراف بالجميل

مقـــــدمة .....ب

الباب الأول: البعد النظري لمشكلة البحث 10

الفصل الأول: المعتقدات الشعبية في الجزائر، أصولها وتطورها ومظاهرها

1- الإنسان والمعتقدات القديمة: 12

2- عبادة الأسلاف عند الرومان: 16

3- الثقافة الشعبية والمعتقدات: 17

أ- استمرارية المعتقدات القديمة. 26

ب- الاستسقاء والممارسة الشعبية: 35

ج- أصول التصوف في الجزائر. 40

4- أثر الوثنية في الطقوس الشعبية: 42

- الطقس المفهوم والوظيفة في المجتمع: 42

الفصل الثاني: الوعدة، المفهوم والخصائص المشتركة

- الوعدة، لغة واصطلاحا 52

- الوعدة والتراث الشعبي 57

أ- المعتقدات والمعارف الشعبية: 58

ب- العادات والتقاليد الشعبية: 59

ج- الثقافة المادية والفنون الشعبية: 60

د- الفنون الشعبية: 60
و- الموضوعات الرئيسية للفنون الشعبية: 61
- دور ومكانة الوعدة في المجتمع الجزائري: 64
- الوعدة في الغرب الجزائري 68
- أ- الوعدة في المنطقة الغربية الشمالية: 76
- ب- الوعدة في المنطقة الغربية الجنوبية 77
- تنظيم الاحتفال بالوعدة 79
- الخصائص المشتركة للوعدة 81
- أ- حولية الاحتفالات 82
- ب- ارتباط الطقس بالأولياء الصالحين 83
- ج- الاحتفال بالولي 85
- د- الفنون الشعبية كقاسم مشترك بين الاحتفالات 87
- ه- الطابع التراتبي للوعدة 88
- و- الدعاء عند اختتام الاحتفالات 89

الفصل الثالث: الوعدة الدوافع والوظائف

- تمهيد 96
- دوافع الاشتراك في الوعدة: 96
1- الدوافع النفسية 96
2- الدوافع الاجتماعية والثقافية 98
3- الدوافع الاقتصادية 101
4- الدوافع السياسية 102
- وظائف الوعدة في المجتمع: 103
1- الوظيفة الاقتصادية 108
2- التكافل الاجتماعي 111
3- الوظيفة الثقافية 113
4- الوظيفة الدينية 115

- أثر التغير على عادات وتقاليد الوعدة.....116
- العادات والتقاليد الشعبية بين القديم والحديث.....120

الفصل الرابع: الوعدة، المسار التاريخي والنتائج

تمهيد 131
- الحياة الدينية والثقافية في العهد العثماني.....131
- المرابطون:.....132
- الزاوية: 133
- الطرق الصوفية: 134
- الأولياء والكرامات: 135
- الوضع الديني والثقافي أثناء الاحتلال الفرنسي 140
- جمعية العلماء المسلمين والطرق:.....146
- الوعدة بعد الاستقلال.....149

الباب الثـــــاني: البعد الميداني لمشكلة البحث.....156

الفصل الأول: معروف سيدي أحمد المجدوب من تراث للأجداد إلى حماية الأحفاد

- نبذة عن تاريخية حول حياة سيدي أحمد المجدوب 158
- تحضير وسير المعروف 162
- تنظيم وسير الحفل 165

الفصل الثاني: الإجراءات المنهجية للدراسة

1- إشكالية البحث ومنهجيته.....171
2- فرضيات البحث.....173
3- أهداف البحث وأهميته 175
4- منهج البحث المستخدم 176

5- مجال الدراسة 178
أ- المجال الجغرافي.....178
ب- المجال البشري (العينة) 179
6 - وسائل جمع البيانات.....180
7- استمارة البحث 182
8- تقنيات تحليل البيانات.....183

الفصل الثالث: تحليل وتفسير البيانات

- الخلفية الاجتماعية والاقتصادية للعينة 186
- عرض البيانات 186

الفصل الرابع: النتائج العامة

- عرض نتائج البحث: 218
أ- اختبار الفرضية الأولى 219
ب- اختبار الفرضية الثانية.....222
ج- اختبار الفرضية الثالثة: 225
- مناقشة نتائج البحث 228
الخاتمـــــة: 233
الملاحق: 236
المراجع: 247
فهرس الجداول 259
ملخص الرسالة باللغة العربية.....261
ملخص الرسالة باللغة الفرنسية.....263
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية.....264
الكلمات المفتاحية.....265
الـــــفـــــهـــــرس..... 266